شاهِد عصرِه

يوسف إدريس



شاهِد عصرِه

تأليف
يوسف إدريس



شاهِد عصرِه

يوسف إدريس

الناشر مؤسسة هنداوي سي آي سي
المشهرة برقم ١٠٥٨٥٩٧٠ بتاريخ ٢٦ / ١ / ٢٠١٧

٣ هاي ستريت، وندسور، SL4 1LD، المملكة المتحدة
تليفون: ٨٣٢٥٢٢ ١٧٥٣ (٠) ٤٤ +
البريد الإلكتروني: hindawi@hindawi.org
الموقع الإلكتروني: http://www.hindawi.org

تصميم الغلاف: عبد العظيم بيدس.

الترقيم الدولي: ٩ ١٦٠٨ ٥٢٧٣ ١ ٩٧٨

المحتويات

حتى الأشجار تقاتل

وأنا أتلقَّى الدرس الكبير من الطبيعة كنت لا أكاد أصدِّقه، أحيانًا يُخيَّل إليَّ أن بساطًا سحريًّا نقلني في الأحلام إلى قلب الغابة، وأحيانًا يُخيَّل لي — رغم واقعية كل شيء ومعقوليته تمامًا — أن الروعة أكبر من أن تكون حقيقة؛ فهو لم يكن جميلًا فحسبُ، كان مروِّعًا موقِظًا مستفزًّا.

«السقوط» هكذا سمَّوه، وهكذا راحوا يتحدثون عنه ببساطة وكأنها مسألة جوٍّ أو وقت، وأنا من فرط الروعة أحس أني وحدي المنفعل المبهور المتوجس. السقوط، الغابة بأشجارها العالية المشرئبة في استقامةٍ وتحدٍّ نحو الفضاء، أعواد السنديان مستقيمة كالمسطرة «سرحة» كالبالرينا النحيلة اليافعة، ثم السقوط.

قالوا: غدًا، يوم أول الشهر، سيبدأ السقوط.

وأخذتها ككل الكلام ببساطة أو بلا تصديق حقيقي لما يقولون، ولكن الساعة الكونية البالغة الدقة، كما دقت أول يوم في الشهر في ميعاده تمامًا، وبدأ الخريف في نفس اليوم بالضبط، منذ أوائل ساعات الصباح الأولى بدأت أوراق الأشجار الكثيفة الخضراء تشحب، وفي اليوم التالي بدأت تَصفرُّ وتَصفرُّ، ثم بدأت تتساقط، والأرض تلك التي كانت جرداء عارية إلا من أعشابها التقليدية بدأت تستقبل الورق الساقط، آلاف، وملايين الأوراق تفرش الأرض، وتهبُّ الريح فتدفعها موَشْوِشة وتتطاير بها أدراج الرياح. وفي أسبوع واحد كانت كل الأوراق قد تساقطت تمامًا من فوق الأشجار، وأصبحت كل شجرة ليست سوى الساق الرفيعة الطويلة ذات الأفرع الصغيرة، واقفةً جرداء غريبةً كثيرةً كجماعة نسوة كبيرة محلوقات الشعر.

عجبت للسرعة التي تمت بها العملية والدقة والشمولية.

من أين أخذت الأشجار الأمر؟ وكيف نفَّذته كلٌّ منها في نفس الوقت واللحظة؟

ومَن قال لماء الحياة أن يجفَّ في الورقة إلى أن تسقط وحدها ومن تلقاء نفسها ميتة؟ أهو الجوُّ قد أعطى الأمر؟ لم يكن الجوُّ تغيَّر كثيرًا. إنه نفس جوِّ الأسبوع السابق. فكيف ومن أين نبعت هذه الدقة الغريبة، هذا الخضوع المطلق لخاصية التغير؟ لم يكن الجو قد تغيَّر أبدًا، ففيمَ هذا التعري من الأوراق؟ وفيمَ الوقوف هكذا جرداء كأنها قد تحولت إلى جماد؟

أسئلة سرعان ما أجابت عليها الطبيعة ذاتها، فبعد عشرة أيام تمامًا بدأ جو ضواحي موسكو يتغير وينخفض، وكأنما بأمرٍ كونيٍّ آخر إلى ١٠ ثم ٥ ثم الصفر.

كانت الأشجار إذن تستعد لمقدم الخريف ثم الشتاء، وكانت تعرف أن المعركة التي عليها أن تخوضها معركة رهيبة ضد البرد الهالك. ضد الثلج الذي بدأ يتساقط. كانت تعرف أنها معركة حياة أو موت، وأن عليها أن تستعد لها بحيث لا تترك ثقب إبرة لنقطة ضعف. كان عليها أن تتخلص من حملها الضخم من الأوراق الذي يُعرِّضها لأكبر جرعة من البرد. وهكذا لم تتعرَّ حسبما تصورت، إنما انكمشت روح الحياة فيها إلى أقصى قدر وبحيث تستحيل الجذوع والفروع إلى ما يشبه الأسلاك الخشبية الميتة وما هي بميتة، إنما هي آخذةٌ وضع الاستعداد، وضع الميدان؛ فالحرب الرهيبة ضد الشتاء مقبلة ولا مكان للهزل، فإما دفاع عن كُنْهِ الحياة فيها إلى آخر رمق، وإما الفناء والموت.

وقفت وسط الغابة الساكنة الصامتة صمتًا مريبًا صمت الجد، صمت المعركة الخفية الدائرة، والثلج يغمر الأرض بعدما كانت تغمرها الأوراق، وآلاف الجنود الشجرية سامقة، عالية، مهيبة، تدافع عن نفسها ضد جوٍّ أصبح تحت الصفر، صامدة في بطولة، قد تخلصت من كل معوقات المعركة وكست نفسها بزي الحرب الكابي وأخذت تقاتل، وبعنفٍ مستميت بطوليٍّ تقاوم، أبدًا لن ينتصر الشتاء، ورغم الثلج وبرودة الثلاثين تحت الصفر ستبقى، فما وُجِدَت وما زُرِعَت إلا لتبقى، وليكن بقاؤها بمعركة، ولتكن المعركة رهيبةً أو مفجعة، فلا بد أن تقاتل؛ فالشتاء طويل لن يرحم، ولا شيء في كل ما يدور بالحياة وتدور به الحياة لا يكون إلا بمعركة، ولا معركة إلا بقتال، وأن تبقى مقاتلًا أو تقاتل لتبقى هو القانون. وقفت وسط الغابة مسحورًا ببطولة الشجر، ببطولة الحياة البكماء الصماء العمياء وهي تدافع عن وجودها، وآلاف الأحاسيس تتنازعني؛ أوَّلُها وأضخمها إحساسي العارم أنَّ أحطَّ أنواع الحياة بكل صَمَمِها وبَكَمها وعماها هكذا بالسليقة، وبحكم كونها حياة ما وُجِدَت إلا لتقاوِم، ومن أول لحظة وجودها تقاوِم.

تقاوِم قانون الجاذبية الأرضية وتتحداه لتنمو مستقيمةً باسقةً إلى أعلى، تقاوم الريح بالجذع المتين الملفوف، تقاوم الشتاء بكل ما تملكه من أسلحة ضد الشتاء؛ وأولها خلع

أردية الصيف الملوَّنة الجذابة، وتوديع أيام الدلال فيها، وارتداء زي الميدان ثم الصمود، والصمود مهما حدث.

كان خليقًا بي — وأنا أرى الأشجار عاريةً جرداء فوق سطحٍ أرضيٍّ شاسع أبيض مخيف — أن أحسَّ بالوحشة والضياع، ولكني لم أفعل، بالعكس أحسست — رغم البرودة الصارخة — بدفء الإحساس بالحياة. ولا شيء يجعلك تؤمن بالحياة وتتدفأ بإيمانك هذا قدر مشاهدتك لها وهي تقاوم عناصر فنائها أعنف وأخلد مقاومة. بالعكس أحسست بالغابة المتجردة جميلة جمالًا لا حدَّ له، يا للروعة، جمال المقاومة! يا لمنظرها المبهر صفوفًا من الشجر وراء صفوف تَسخر بالشتاء من الشتاء، ومتأكدة أنها المنتصرة حتمًا، وأنها هي الباقية، وأنه هو الذي لن يلبث أن يزول، وستحضر حتمًا مقدم الربيع، وحينئذٍ — وحينئذٍ فقط — تبدأ تطلق أوراقها الجديدة، وتشيع ألوانها الزاهية، وتغنِّي الغابة وتتراقص مع النسمات. ولكن كل ذلك لا يكون الآن؛ فالآن، فاليوم أمر، أمر ذلك الشتاء الموحش الزاحف المخيف، لو تراجعت أمامه خطوة لهلكت، لتأجَّل ربيعها إلى الأبد.

يوميات ٥٩

الاثنين

في الأسبوع الماضي أتيح لي أن أُحصيَ عددًا من التصرفات التي قام بها عددٌ وافر من أصدقائنا الفنانين والكُتَّاب، وكدت أغضب وأنفعل وأهيج وأبدأ أحاسب وأسأل وأعاتب لولا أني تذكَّرت حكمة لا أذكر مَنْ قائلها: الفنان هو شخص يفكر كرجل، ويحس كامرأة، ويتصرف كطفل.

وهكذا قلت لنفسي: إذا كنا ندَع عالمًا من الأطفال الصغار يمرح ويلعب ويتصرف دون محاسبة أو تقييد، فلماذا لا نفترض وجود عالم صغير آخر من الأطفال الكبار ندعهم يتصرفون دون أن نحاسبهم؟ لنفترض هذا ونريحهم ونريح أنفسنا، ولا نخاف ولا نعتقد أننا بهذا نعطي الفنانين رخصةً للتصرف والعبث بلا قيد أو شرط؛ فالفرق بين الطفل والطفل، والطفل والفنان، أن الأخير هو الذي يحاسب نفسه، بل إن عملية حسابه لنفسه أشقُّ وأمرُّ من أي حسابٍ آخر يلقاه ولو حتى من أقرب الناس إليه؛ إذ هي العملية التي تدفعه أحيانًا لأن يغيِّر شخصيته كُلِّيةً، وهي التي تدفعه أحيانًا لأن يُنتِج ويُبدِع، هي التي دفعت تولستوي العظيم إلى أن ينقلب من شابٍّ أرستقراطيٍّ عابثٍ إلى متصوِّفٍ اجتماعيٍّ وفلسفيٍّ وديني. لندعهم إذن يتحملون تبعة تصرفاتهم، ولا نحاول أو «نحمِّلهم» التبعة، لعل وعسى.

الثلاثاء

أتعرفون ما هو أجمل مكان في إقليمنا الجنوبي؟ إنه ليس هيلتون ولا مرسى مطروح أو بلاجات المنتزه والمعمورة. إنه — إلى الآن على الأقل — مكانٌ مهجورٌ مغمورٌ لا يطرقه أحد، ومع هذا فما رأيته فيه من جمال كاد يجعلني أتمنى أن أقضي بقية عمري فيه، وحتى إذا متُّ أُوصِي بدفني هناك. المكان دلتا النيل، أو على وجه الدقة: بداية دلتا النيل، في تلك البقعة التي يبدأ فيها مجرى النيل ينقسم إلى فرعَي رشيد ودمياط. بينها وبين القناطر مسيرة دقائق ولكن الطريق إليها شاقٌّ ومتعِب وغير ممهَّد. تعدي القناطر الأولى المقامة على بداية فرع دمياط ثم تنحرف إلى اليسار، ويقابلك جسر عالٍ كالصراط المستقيم تسير عليه إلى أن تجد بقعةً حافلةً بالأحراش المائية والمستنقعات والحدائق، إذا استطعت أن تنفذ منها وجدت نفسك في زاوية «دال» النيل تمامًا، الزاوية التي تتسع بعد هذا وتتسع حتى تصل عند البحر الأبيض إلى مئات الكيلومترات. مكان ضيِّق ولكنك تحس إذا تأملت المشهد من حولك بروعة بلادنا وأزليَّتها. النيل متسع اتساعًا لا حدَّ له، تسمع دمدمة مياهه وهديرها وهي تحوم وتتفرق حول بداية الدلتا والشواطئ البعيدة، أجمل شواطئ؛ فللنيل هناك ثلاثة شواطئ، والشمس في غروبها والقمر في شروقه، والطبيعة الخشنة في عظمتها البدائية حيث الماء، أكبر كمية من الماء العذب ممكن أن تراها عيناك، وحيث الأرض، أوسع مساحة من الأرض ممكن أن يمتدَّ إليها بصرك، هناك تحسُّ ببلادك ضخمة ومهيبة وخالدة، وحتمًا تحس بالفخر لأنك ابن تلك البلاد وصاحبها.

الأربعاء

قررت أن أمتنع عن التدخين؛ فقد ثبت لي بعد عملية حسابية بسيطة أن المدخن إنسانٌ مارقٌ مجنونٌ يجب الحجر عليه؛ واحسبوا معي: إذا كان طول السيجارة سبعة سنتيمترات، ومتوسط ما يدخنه الشخص العادي ثلاثين سيجارة في اليوم، ويظل يدخن خمسين عامًا من عمره، فإنه يدخن في حياته سيجارة طولها على الأقل أربعون كيلو مترًا؛ أي سيجارة طولها أبعد من المسافة بين القاهرة وبنها، وثمنها لا يقل عن ٣٥٠٠ جنيه، وبملحقاتها من قهوة وشاي خمسة آلاف جنيه، فتصوروا حين يدفع المدخن منا خمسة آلاف جنيه لقاء عامود من الدخان طوله أربعون كيلو يدخل صدره! ألا يُعَدُّ هذا جنونًا مُطبِقًا؟

القنبلة

الخميس

> لا تخَفْ. الدولة تحميك من إشعاعات القنبلة الذرية الفرنسية. اتُّخذت الاحتياطات لمنع خطورة هذه الإشعاعات. إذا فجرت فرنسا قنبلتها فسيقوم خبراء الذرة العرب بتطهير التلوث الذري، وستُرسَل نسبة الإشعاعات الذرية إلى المنظمة الدولية لشئون الذرة، وستُوفِد المنظمة خبراء وآلات لحماية السكان من الأخطار.

هذا الكلام قرأته منشورًا في إحدى الزميلات الصباحية، ومعناه — كما هو واضح — ألَّا خوف عليكم أيها المواطنون لو ألقت فرنسا قنبلتها الذرية في صحراء الجزائر، وأن المسألة بسيطة جدًّا. وإذا حدثت إشعاعات ذرية أو نتج عن الانفجار غبارٌ ذرِّي وهدَّد حياتكم فستحمينا المنظمة الدولية لشئون الذرة، وستُوفد خبراء وآلاتٍ لدرء كل الأخطار.

هذا الكلام يُنْشَر في الوقت الذي أجمع فيه علماء العالم شرقه وغربه وشماله وجنوبه على وجوب وقف التجارب الذرية فورًا؛ إذ ثبت لهم أن أي تجربة ذرية في أي مكان من العالم تُلوِّث الجوَّ المحيط بالكرة الأرضية وتسمِّمه، وتؤثِّر على كل أنواع الحياة فوق سطح الأرض، وتؤدي حتمًا إلى تشويه النسل وتغيير خلقته وتركيبه. هذا الكلام يُنْشَر في الوقت الذي نخوض فيه — حكومة وشعبًا — كفاحًا لا هوادة فيه من أجل تكتيل شعبنا وكل شعوب آسيا وأفريقيا والرأي العام العالمي للوقوف في وجه محاولة فرنسا المجرمة لإرهابنا وتلويث جونا. هذا الكلام يُنْشَر ويدَّعي كذبًا أن المنظمة الدولية لشئون الذرة كفيلة بحمايتنا من الأخطار في حين ثبت علميًّا أنه لا يمكن مقاومة أخطار الإشعاعات الذرية. وثبت هذا عمليًّا؛ إذ لم تستطع هذه المنظمة — بجلالة قدرها — أن توقِف إصابة الصيادين

اليابانيين بالإشعاعات الذرية وسرطان الدم الذي حدث نتيجة للتجارب الذرية الأمريكية في جزر المحيط الهادي.

وأنا لا أريد أن أتَّهم أحدًا بسوء النية، وأيضًا لا أريد أن أسأل الجريدة من أين وكيف استقت معلوماتها المزيَّفة هذه ولمصلحة مَنْ تنشرها في هذا الوقت بالذات؟! ولكني أريد أن أسأل السيد الدكتور فتحي عبد الوهاب الذي نشر اسمه وصورته مع كلام الجريدة، والذي يعمل بمؤسسة الطاقة الذرية: لماذا يتطوع ويقول: إنه إذا حدث عندنا أي تلوث أو تساقط ذري فسنستطيع أن نقضي عليه في الحال؟ كيف — وهو الخبير العالِم في مثل هذه الشئون — يدَّعي أن باستطاعته أن ينقذنا من التساقط الذري والإشعاعات المُهلِكة في الوقت الذي نقرأ فيه أن مئات العلماء المتخصصين في الولايات المتحدة مثلًا أكدوا أنهم لا يمكنهم إنقاذها من الإشعاعات الذرية في أي حرب ذرية مقبلة؟ وفي الوقت الذي عجز فيه كل علماء اليابان وأمريكا عن تطهير المياه المحيطية من الإشعاعات الذرية عقب التجارب التي أُجْرِيَت في المحيط الهادي؟

بأية معجزة سينقذنا السيد الدكتور؟

ولمصلحة مَنْ يدَّعي أن باستطاعته أن ينقذنا؟

الجمعة

اكتشفت إحدى حقائقنا الغريبة. كنا جالسين في بيت أحد الأصدقاء الأطباء، وكان الجميع يتحدثون ويتناقشون في سلطة الحديث الذي يدور كلما اجتمعت شلة أصدقاء ومثقفين، حديث قد يبدأ بزيارة خروشوف لأمريكا وينتهي بغلاء الأسعار ورداءة المأكولات في كازينو قصر النيل. وكان بيننا سيدة لم تتجاوز الثلاثين من عمرها، بادية الأناقة، «تواليتها» كامل وألوان ملابسها مختارة بعناية، «مانيكور» أظافرها مطلي بأحدث طريقة، ولكنها كانت إذا تكلَّمت يخرج كلامها تافهًا إلى درجة تعجب لها، وتظن أنها خادمة أو مربية أطفال تسللت بطريقة ما وحشرت نفسها في وسط هذه الزمرة من الأفندية والمثقفين.

ومِلْتُ على أحد الموجودين — وقد بدأ حديثها يضايقني — أسأله عنها، فإذا به يقول: إنها طبيبة، وإنها زوجة أحد الحاضرين، ذُهلت لأن حديثها كان يدل على أنها تجهل القراءة والكتابة حتمًا، وملحوظاتها من الصنف «البيتي». في أوج احتدام النقاش حول تأميم الطب أو تأمينه تلتفت مثلًا إلى جارتها وتقول: الجيبون بتاعك الظاهر واسع شوية ع الفستان.

أو إذا جاءت سيرة خروشوف في الحديث وأحب زوجها أن يُشرِكها معنا فيه وسألها إن كانت تعرفه، تجيب بقولها: أيوه عارفاه، مش الراجل القصير ده أبو صلعة، دا شكله ملخبط خالص.

وكنت وأنا أسمعها أسائل نفسي: «تُرى كيف استطاعت بهذه التفاهة أن تجتاز امتحانات كلية الطب المعقَّدة وتأخذ البكالوريوس وتنجح؟ وكيف أمكن أن تستوعب علوم الكلية كلها دون أن تترك هذه العلوم أي أثر يدلُّ على أنها مرَّت بعقلها أو لامسته؟»

والواقع أن هذه ليست هي الحادثة الوحيدة، فأنا أعرف سيدة حاصلة على دكتوراه في الكيمياء «تَرْقِي» أولادها إذا مرضوا مخافة أن يكونوا قد أصيبوا بعين حسود. وقِسْ على هذا عددًا كبيرًا من السيدات والرجال الذين يرون في علوم الجامعة وموادها مجرد «كلام» تُشْحَن به العقول لتُفرغه في أوراق الامتحان، فإذا ما انتهى الامتحان وتخرَّجوا عادوا إلى طبيعتهم الأولى، الرجال يتباهون بأغلى الكرافتات، والسيدات يتحدثن عن الجيبونات، والنتيجة أن جامعاتنا خرَّجت لنا آلاف «الحرفيين» الذين يزاولون الطب والهندسة والقانون، ولم نحصل منها على «جامعي» واحد، جامعي بحق؛ يحيا ويفكر ويتصرف كمثقف خريج جامعة.

اللغة التي لا نجيدها

يُخيَّل لي أن مواطنينا قد «زهقوا» من الطريقة الواحدة غير المتغيرة التي نتكلم بها عن «الاستعمار» و«أذنابه».

غير معقول أن نظل خمسة عشر عامًا نكرر كلماتٍ كهذه في تصوُّرهم فوق حقيقتهم أو تحويلهم إلى رموز وكنايات. غير معقول أن يستحيل أعداء كهؤلاء إلى قوًى مطلَقة خفيَّة كلفظ الجن أو كلمة العفاريت.

إني لا أدعو بهذا الاستهانة بالقوى الاستعمارية التي تُحاربنا دائمًا، وإنما أدعو إلى تحديدها، وتحديد حجمها وبدقة، تحديد مَن معنا ومَن علينا ومَن معهم ومَن عليهم وبدقَّة أيضًا. وكفى مطْلَقات، كفى أن يقال: إن الرأي العام الأوروبي — مثلًا — ليس معنا أو بدأ يتحول. كيف حدث هذا؟ وأين؟ وأي البلاد في حاجة إلى جهدٍ أكبر؟ كل هذا أصبح مطلوبًا اليوم لكي يتجسَّد لنا العدو من تجهيزات وجبهات، نعرفها ونعرف بالضبط حجمها فلا نخاف منها، ولا نغالي في الاستهانة بها. وأحد أسباب هذا في رأيي هو إخواننا الأساتذة كُتَّاب السياسة في الصحافة، أو القِلَّة الذين كان مفروضًا أن يُدْفَعَ لهم بالحقائق — والحقائق وحدها — لتقديمها للناس، بدلًا من استعمال الخطابات أحيانًا، وأحيانًا أخرى استعمال الكلمات المجرَّدة كالاستعمار أو أعوانه.

أو ... أو ... إلخ.

والنتيجة أن توجد كلمات — كالاستعمار وأعوانه — وتضيع الحقائق، أم هل نتصور أننا بقولنا كلمة استعمار والاستمتاع بالرضا عن النفس بعدها نكون قد أعطينا مواطننا كل شيء عن الموضوع؟

لا أتمنَّى شيئًا قدْرَ ما أتمنى أن يكون لنا سلك ديبلوماسي نشِط كالسلك اليوجسلافي. في نفس اليوم وباليد، وصلني مظروفٌ ضخم لمطبوعاتٍ شتَّى أهمُّها في رأيي هو ذلك الكُتيب الصغير الهام الذي يحوي إنتاجًا لثلاثين كاتبًا وشاعرًا، وكلُّهم من جيل ما بعد الحرب العالمية الثانية؛ «أي ممن نسمِّيهم هنا بالكُتَّاب الجُدُد». والإنتاج مترجم من السلافية إلى الإنجليزية في كتابٍ يصدر كل ٤ شهور وتطبعه جامعة «فالاري ديكنسون» بنيوجرسي وتُصدره للعالم كله، وأول ما تتلقَّفه بالطبع هو سفارات الدولة المنشور عن أدبها الكتاب؛ «إذ هي في كل مرةٍ تنشر أدبًا مختلفًا»، وتوزِّعه على كلِّ من يهمهم الأمر ليدفعهم — حتى مجرد حب الاستطلاع — إلى قراءة ولو كفكرة عن آداب الناس وكيف يكون إنتاجهم الجديد مثلًا.

والمهم ليس هذا أيضًا، ولا من أجله كتبت هذه الكلمة. المهم أنه داخل هذا الكتاب توجد قائمة بأسماء الكتب اليوجسلافية التي صدرت بالإنجليزية. والقائمة تشتمل على كُتَّاب من الكلاسيكيين من أمثال إيفو أندريتش، وهو من أشهر مَنْ في يوجسلافيا وأعظم «يدوسلاف كريلزا»، وإن كان لم يقدم بالعربية أبدًا، فإن تعدادها أكثر من ثلاثين كتابًا صدرت في العالم الغربي عن الكُتَّاب اليوجسلاف المعاصرين.

وإصدار هذه الكتب ليس أبدًا نشاطًا للناشرين الغربيين. إن وراء كلٍّ منها نشاطًا لا يخمد لليوجسلاف أنفسهم وتقديمًا مستمرًّا لإنتاج كُتَّابهم ووضعه في متناول الناشرين والمترجمين، ثم بعدُ إخراجه وتوزيعه على نطاق العالم أجمع، وبواسطة هذا الشيء الغريب لدينا المسمَّى السلك الديبلوماسي والذي إذا لم يكن نَشْر فنِّ بلده وإنتاجه على أوسعه نطاق هو عمله، فماذا يكون العمل إذن؟!

إن وراء فوز إيفو أندريتش بجائزة نوبل مثلًا قصصًا طويلة من جهود ظلت تبذلها وزارات الثقافة والخارجية من ترجمة لأعماله وعرْضها على الناشرين في إنجلترا، وشراء كميات منها توزعها على كلِّ ملحقيها الثقافيين في الخارج لا ليضعوها في المخازن ويذهبوا يبحثون عن المرسيدس والنجف، وإنما لكي يوجَّه كل كتاب منهم إلى شخصٍ بعينه من المهم أن يعرف إنتاج أندريتش، وهكذا إلى أن أصبح أندريتش كاتبًا معروفًا على نطاق العالم أجمع.

وكل صرصار أو مشروع كاتب في إسرائيل تقام له ضجة وكأنه اختراعٌ جديد تفتَّق عنه الذهن الإسرائيلي العبقري.

إن الدول الآن — أو بالضبط الشعوب — أصبح اهتمامها بالسياسة يأتي لاهتمامها بفنون البلاد الأخرى وغنائها وموسيقاها. إن الفن الهندي منتشر مليون مرة أكثر من السياسة الهندية، أما نحن فسياستنا (على قدر ضيق انتشارها) منتشرة أكثر بكثير من فننا وأدبنا، وهذا ما يجعل الآخرين يعتقدون أننا أمة من الصُّمِّ غير القادرين على التعبير. إن معلوماتهم تقف عند حدود المتخصصين جدًّا، وحتى عند البعض إلى عصر ابن الهيثم أو ربما ابن دانيال. إننا لو انتهزنا فرصة اهتمام الناس بنا بعد حرب يونيو وأغرقناهم بموسيقانا وأشعارنا وقصصنا ولوحاتنا؛ لكان في هذا أعنف وأبلغ ردٍّ للمؤامرة الخبيثة ضدَّنا وقتل وتشريد مواطنينا بزعم الدفاع عن النفس.

إن الفن هو لغة عصرنا، ومن لا يستطيع التفاهم به مع الآخرين سوف يبقى عاجزًا عن الوصول إلى الناس. غير مهم الحكومات؛ فالناس هي صانعة السياسة وصانعة الحكومات والرأي العام، والوصول إليهم هو انتصارنا الأكبر؛ فلا قيمة لأي انتصار حربي لا يحظى بعطف العالم وتأييده. القيمة الحقيقية أن يكون العالم معك. لن يكون معك إلا بأن تعمل أنت أولًا وبكل طاقتك، وفي كل الاتجاهات.

متى يحدث هذا كله؟

معهد قومي للمفكرين

أي مشكلة من مشاكل مجتمعنا — مهما بدت تافهة وغير ذات وزن — إذا تتبَّعناها ووصلنا إلى جذورها سنجد أننا بطريقة أو بأخرى قد أصبحنا نواجه مشكلة سياسية من الدرجة الأولى لا بدَّ من دراستها والتعمق فيها. مشكلة العلاقة بين المُلَّاك والمستأجرين مثلًا؛ لقد كان الوضع يخضع لسوق العرض والطلب، ثم بدأت الدولة تتدخل لحماية المستأجرين وأصدرت قوانين التخفيض. أصحاب العقارات بالتالي لم يُسلِّموا بما حدث، بدءوا يتحايلون على القانون بخلوِّ الرِّجْل ورفع إيجار المنازل الحديثة، وتأجير الشقق التي تخلو في عماراتهم كشقق مفروشة. إذا نحن تتبَّعنا مشكلةً كهذه سنجد أننا في النهاية وصلنا إلى فلسفة مجتمعنا القائمة على الاشتراكية الديمقراطية التعاونية، وسنجد أننا في النهاية مطالَبون بأن نعرف موقف فلسفتنا هذه من تلك المشكلة، وأيضًا سيتحتَّم علينا أن نجد لها حلًّا اشتراكيًّا ديمقراطيًّا تعاونيًّا.

وهكذا الحال في مشاكل كثيرة أخرى تفرض علينا أن نوازِن في النهاية بين مصالح فئتين أو أكثر من فئات مجتمعنا ونحلَّها حلًّا سلميًّا.

نحن لا نستطيع أن نفعل هذا إلا إذا بدأنا تطبيق الاشتراكية الديمقراطية التعاونية كفلسفة؛ إذ من خلال محاولات تطبيقها ومن خلال المشاكل العديدة التي علينا أن نجد لها الحلول، من خلال هذا كله ستتكون لنا في نهاية الأمر حصيلة نظرية تضع لمجتمعنا فلسفةً متكاملة.

لهذا فإني أقترح أن يُنشأ معهد قومي للبحوث السياسية يكون مركزًا لأبحاث نقوم بها لدراسة مشاكلنا الخارجية والداخلية، لكي نقف منها الموقف الصحيح؛ يكون معمل تجارب واختبارات لاشتراكيتنا الديمقراطية التعاونية بحيث تتحول فيه فلسفتنا من نظرية إلى واقع، ونحاول فيه أن نعثر للشعارات على تطبيق.

إننا في حاجة ماسَّة وحقيقية إلى دراسة مشاكلنا دراسة علمية، ومراقبة أنفسنا ونحن نتطور وننمو، ولكي نجد في فلسفتنا حلولًا لمشاكلنا. باختصار نحن في حاجة إلى مفكرين نفس حاجتنا إلى الكلمة، وفي حاجة إلى متخصصين يتعمقون في دراسة ظواهر حياتنا لكي يستخرجوا لنا في النهاية فلسفة متكاملة. وأعتقد أن الأوان قد آن لكي نقيم هذا المركز القومي للمفكرين أسوةً بالمركز القومي الذي أقمناه للعلماء؛ ولعلنا إذا فعلنا هذا نكون قد أحدثنا التفاعل الواجب بين فكرنا الثوري وعلمنا وخطواتنا الثورية.

روح العصر تتنافى مع الظلام

الاهتمام الشديد الذي لا يزال العالم يتابِع به قضية إقصاء خروشوف ليس وليد الصدفة، ولا هو عملًا موجَّهًا ضد القادة الجدد للاتحاد السوفيتي. وحين أقول العالم أعني الناس الطيبين الشرفاء، ولا أعني بالطبع أعداء الاتحاد السوفيتي أو الدوائر التي يهمُّها بمناسبة وبلا مناسبة أن تنال من المعسكر الاشتراكي كله.

إني إنما أتحدث عن اهتمام المواطن العادي — حتى هنا في الجمهورية العربية المتحدة — بتلك القضية؛ فهو اهتمام له ما يُبرِّره، فصحيحٌ أن رئاسة الوزارة في دولةٍ ما مسألةٌ داخلية محضة، إلا أن عالمنا اليوم أصبح أضيق من أن تُعْتَبَر فيه أمور دولة ما منه مسألة داخلية لا تُهِم غير مواطني تلك الدولة، وإلا لما حقَّ للعالم أن يهتمَّ بلومومبا أو بفوز العمال أو بنجاح الثورة في روديسيا الجنوبية.

والاتحاد السوفيتي ليس دولة عادية؛ إنه دولة كبرى يؤثِّر كل ما يحدث لها في كل دولة من دول العالم.

من أجل ذلك يتابع الناس بانتباهٍ شديدٍ قضية خروشوف، وتثور في أذهانهم أسئلة كثيرة تتطلب ردودًا، ووكالات الأنباء الغربية نشيطة تحاول أن تعثر أو تخمِّن أو تفتعل ردودًا تشفي غليل الملايين من القرَّاء.

والسؤال المحيِّر الأول هو: إذا كانت القيادة الجديدة قد أعلنت أنها تلتزم بالخطوط العريضة لسياسة خروشوف، ففيمَ كان تغييره إذن؟ إن رئيس الوزراء أو سكرتير الحزب ليس مجرد شخص؛ إنه أولًا سياسة واتجاه، فإذا كانت السياسة باقية فلا بد أن التغيير لأمرٍ يتعلق بشخص خروشوف. ومن حق ملايين الناس من مختلف أنحاء العالم الذين يؤمنون بخروشوف ويتحمَّسون له ويؤيدون سياسته، والذين ظلوا لسنوات طويلة يفعلون هذا، من حقهم أن يعرفوا ماذا في شخص خروشوف أوجب تغييره؛ فالثقة في القائد أو في

الزعيم لا تأتي بين يوم وليلة ولا بمجرد عمل أو موقف، إنها تأتي بتتبُّعٍ دقيق لسياسته ومواقفه وتصرفاته، وتُبْنَى ببطءٍ شديد بحيث لا يصبح من السهل أن تهدمها في يوم وليلة. وثقة الناس في خروشوف كانت جزءًا لا يتجزأ من ثقتهم بالاتحاد السوفيتي.

وليس من أجل الثقة في خروشوف أو عدمها طلب الناس معرفة أسباب إقصائه، ولكن من أجل الثقة في النظام السوفيتي نفسه، ومعرفة على أي أساس يضع الناس في المراكز، وعلى أي أساس يُقصِيهم عنها. وليست ثقة شعوب العالم في النظام السوفيتي أو فقدانها مسألة هينة؛ فالنظام السوفيتي جزء هام وأساسي في النظام الذي يرتكز عليه الأمن والسلام في عالمنا، بحيث إن أي شك فيه ممكن أن يدفع إلى قلق عالمي مروِّع. والحزب الشيوعي في الاتحاد السوفيتي ليس حزبًا سِرِّيًّا بإمكانه أن يتصرف في أمره وأمر الشعب السوفيتي بسرِّية كاملة مطلقة وإبهام. إنه الحزب الحاكم في أقوى دولة من دول العالم، وعلى قراراته بما يتوقف مصير البشرية بأسرها. وإذا كانت السرِّية قد سادت في عهد ستالين والستار الحديدي باعتبار أن الاتحاد السوفيتي أيامها كان يحكم حكمًا بوليسيًّا استبداديًّا لا مجال للعلنية أو الديمقراطية فيه؛ فالأمر اليوم لم يعُد كذلك، ولم يعد يُخجل أو يُضعِف أي حزب أن يتصرف في العلن أو ينقد نفسه أحيانًا أمام العالم كله. من حق هذا الحزب أن يُولِّيَ سكرتيرته مَن يشاء ويعزل مَن يشاء، ولكن لا بد أن يتولى بنفسه تبرير تصرُّفه هذا، ليس فقط لأعضائه وإنما للشعوب السوفيتية كلها وللعالم أجمع؛ إذ لو كان خروشوف قد ارتكب أخطاءً فلمصلحة مَنْ تُخفى هذه الأخطاء؟

ولو كان بريئًا من الأخطاء، فلماذا يُغَيَّر وهو البريء من الأخطاء؟

إن المسألة ليست مسألة خروشوف، ولكن الأهم والأعمق هو النظام الذي يعزل خروشوف أو يُبقيه، والمنطق الذي على أساسه يتم العزل أو الإبقاء.

إن النظام الشيوعي في العالم لم يعُد ضعيفًا إلى درجة يُخْشَى عليه من العلنية. لقد أصبح نظامًا يكاد يشمل نصف العالم بأَسْره. وإذا كانت المركسية واللينينية تؤكد وتصرُّ على احترام إرادة الشعب باعتبارها هي الأصل في كل نظام وبغيرها لا يمكن إقامة الاشتراكية، فمن بابٍ أَوْلَى أن يبرز هذا الاحترام على هيئة ثقةٍ كاملةٍ في تلك الإرادة الشعبية واستعدادٍ تامٍّ لمواجهتها والاهتمام الأكبر برأيها.

إنني أعتقد أن عرض قضية إقصاء خروشوف عرضًا علنيًّا أمرٌ لا بد من حدوثه، فروح العصر أصبحت تتنافى مع الغموض والظلام، وإحساس الناس أصبح مضاعفًا بوجوب أن يسود العدل وأن تكون الكلمة للقانون. وليس من مصلحة النظام السوفيتي أن يجعل من

خروشوف شهيدًا في نظر جماهير العالم في وقتٍ من الجائز أن يكون قد أخطأ فيه. وليس من مصلحته أيضًا أن يحسَّ الناس أنه مذنبٌ في وقتٍ قد يكون بريئًا.

إن المواطنين الشرفاء في العالم أجمع يأملون ألَّا يطول هذا الموقف الغريب، وأن تتاح لهم فرصة الوقوف بأنفسهم على أسباب هذا التغيير.

ويوم يحدث هذا لن يكون أمرًا هينًا؛ لأنه سيكون الفاصل بين عهدين؛ عهد لا يقيم وزنًا لإرادة الشعوب، وعهد يضعها في المحل الأول، عهد تحدث فيه الاتهامات علنًا ويدافع المتهم فيه عن نفسه علنًا، عهد لا تحدث فيه التغييرات في الحكم خلسةً أو بالاستبعادات، وعهد تحدث فيه التغييرات بناءً على أسباب، وأسباب يقبلها الرأي العام؛ إذ تلك هي الديمقراطية الاشتراكية كما لا بد وكما يجب أن تكون، فلا يُعْقَل أبدًا ألَّا يثق النظام الذي إحدى دعاماته الثقة في الناس والجماهير، ألَّا يثق في تلك الجماهير، وألَّا يُولِيَ رأيَها وإرادتَها قيمةً أو اعتبارًا.

الظاهرة الغريبة

أليس شيئًا غريبًا ألَّا نفوز بأي ميدالية ذهبية أو فضية أو برونزية أو حجرية حتى في الدورة الأولمبية، بينما تفوز أكثر من سبع وثلاثين دولة من بينها ترنداد ونيجيريا وأرجواي التي لا يتعدى سكانها المليون بميداليات؟!

فيمَ إذن كل هذا الاهتمام الكبير بالرياضة في بلادنا، والنفقات والاعتمادات والألفاظ الرنانة الكبيرة التي نسمعها من المذيعين والمعلِّقين عن البطل فلان والبطل علان؟ فيمَ كان اشتراكنا في الدورة الأولمبية نفسها؟ وأين جهود المجلس «الأعلى» لرعاية الشباب الذي له عشر سنوات وهو يعمل، وكان من الواجب أن تظهر نتيجة جهوده خلال هذه السنوات؛ فعشر سنوات مدة كافية جدًّا لخلق جيل جديد كامل، وفيمَ كان تتويج هذا الاهتمام كله بوزارة خاصة للشباب والرياضة؟ إنه ليس فقط شيئًا مخجلًا ولكنه حقيقةً يدعو للتأمل والتفكير، وأنا لست رياضيًّا ولا علاقة لي بالرياضة من قريب أو بعيد، ولكن الظاهرة نفسها استرعت انتباهي؛ فليس من المعقول أن يكون ترتيبنا في المجال الرياضي الدولة الأخيرة في الدورة، في حين أني متأكد أننا نُنفق على الرياضة ونهتم بها أضعاف ما تُنفقه دولة كأيرلندا مثلًا أو الدانيمارك التي فازت بميداليتين ذهبيتين وميداليتين برونزيتين.

وهو أيضًا أمرٌ لا يدفع للتفكير بل لا بد أن يدفعنا لمراجعة الأُسُس نفسها التي نبني عليها برامجنا للرياضة ولصحة الشباب؛ فلا بد أن هناك خطأً أساسيًّا في الطريقة نفسها، أو لا بد أننا — مثلنا في مسائل كثيرة — لا نزال نتبع أسلوب الحداقة والفهلوة، ولا نريد أن نعترف بالعلم.

إن الموضوع كله في حاجة إلى مراجعةٍ شاملة ونظرة علمية جديدة يقوم على أساسها التخطيط. وإلى أن يحدث هذا أعتقد أن العقل يدفعنا لتوفير النقود الكثيرة التي ندفعها لنشترك في مباريات دولية، وننفق هذه النقود على إقامة دعائم بيتنا الرياضي أولًا، ووضع أسس لحياة رياضية سليمة توسِّع من قاعدة اختيار اللاعبين وترتفع بمستوى شبابنا كله.

المتع الصغيرة المدمرة

منذ بضعة أيام شاهدت لدورنمات مسرحية عظيمة على هيئة فيلم اسمه الزيارة. وإذا كان كامي قد نبغ في مسرح العبث، وتينيسي ويليامز قد نبغ في مسرح الجنس، فدورنمات قد نبغ في نوعٍ هامٍّ ومدرسة قائمة بذاتها من مدارس المسرح؛ المدرسة التي تعتمد على القصة (الحدوتة) أو الأسطورة الحديثة.

إن دورنمات لا يعتمد على التراث الإغريقي ولا على قصص التاريخ. إنه عبقري في خلق أسطورة العصر الحديث؛ فرواياته تعتمد على فكرة أسطورية لا يقبلها عقلنا المتحضر المثقف فقط، وإنما يؤمن بها إلى الدرجة التي ينسى فيها تمامًا أسطورية الموقف أو الفكرة، ويتابع المؤلف في محاولاته الجريئة من أجل أن يقتحم حياتنا الحديثة ويُغوِر في أعماقها معتمدًا على السلاح القوي الأخَّاذ الذي تزوده به الفكرة أو الأسطورة.

وأسطورة قصة الزيارة أسطورة بسيطة جدًّا تفترض أن فتاةً خرجت من قريتها القريبة من تريستا مطرودةً حاملةً سفاحًا، وقد تنكَّر لها حبيبها حين قاضته مطالِبَةً باعترافه بأبوَّة ابنتها منه، وأحضر شاهدَين رشاهما بزجاجتين من البراندي ليشهدا أنهما كانا على اتصال بها ليُثبت أنها فتاة عابثة وليبرأ هو من تهمة الأبوَّة. فتاة كهذه تعود بعد عشرين عامًا إلى قريتها بعد أن تكون قد نجحت في أن تتزوج مليونيرًا يملك خمسة في المائة من بترول العالم، عادت لتنتقم من أهل القرية بطريقتها الخاصة؛ فقد اشترت المنجم المجاور للقرية والمصنع وجميع مصادر الثروة والعمل وأوقفتها عن الإنتاج، فاضمحلَّ وضع القرية الاقتصادي وأصبح أهلها على شفا الإفلاس. وحينئذٍ تأتي المليونيرة لتزور القرية وتتعهَّد بدفع مليونَي جنيه لأهلها بشرط واحد: أن يقتلوا سيرج حبيبها، واعتمادًا على هذا الشرط أو الفرض الأسطوري، يبدأ دورنمات في عبقريةٍ غريبة يستعرض مواقف

القرية وأهلها من هذا العرض، وكيف بدءوا بالرفض الباتِّ وانتهوا بإقامة محاكمة علنية ويحكمون على صديقهم الذي عاش بينهم أربعين عامًا بالإعدام.

وتقف المليونيرة بعد صدور الحكم وتسأل إن كان أحدٌ يشك في سلامة الحكم أو عدله؟ وتنتظر أن يُبدي واحد منهم فقط اعتراضه أو يقف ليقاوم، ولكن أحدًا لا يعترض أو يقاوم؛ حينئذٍ تُكمل المليونيرة انتقامها بأن تعفو عن سيرج ليظل حيًّا بينهم يؤرِّق ضميرهم الذي باعه كلٌّ منهم، ورضي أن يغتاله من أجل أن ينال حفنةً من المال، ولتنتقم من سيرج أيضًا حين يقضي بقية عمره بين قومٍ عرف وأدرك أنهم أحلُّوا دمه وكانوا على استعداد لسفكه من أجل أن يمتلك كلٌّ منهم تليفزيونًا أو غسالة أو فستانًا جديدًا.

إن الرواية مليئة بالرمز الموحي، وكله رمز يُسْتَوْحَى من العصر الذي نحيا فيه والذي يتحكم فيه الربح أو رأس المال؛ فكل ما تتيحه الرأسمالية من بوتاجازات وثلاجات نضعها في مقابل القيم الأساسية للحياة، وتنتصر الثلاجات والبوتاجازات والمتع الصغيرة وتكتسح أمامها القيم الكبيرة وأوَّلها حب الناس للناس.

إن في الأسطورة مبالغةً، ما في ذلك شك؛ فليس من المعقول أن يُجمِع الكلُّ على نبذ القيم في سبيل المتع الرخيصة.

إنه فيلم يغتفر لهوليود كثيرًا من السيئات التي تُنتجها والتي تُستخدَم، كما تُستخدَم البوتاجازات والتلفزيونات في الفيلم لإغراء الناس على نبذ القيم، بل هو في رأيي حدثٌ خطير في تاريخ السينما والمسرح.

جيلنا والمسئوليات الكبرى

ليس أروع من رؤية شعبنا وهو يُجمِع على الشيء ويصرُّ؛ إنه حينئذٍ يستحيل من إرادات كثيرة مبعثرة إلى إرادةٍ واحدةٍ كفيلةٍ بأن تقول للشيء: كن، فيكون. والحقيقة أيضًا أنها نتيجة غير مستبعَدة بالمرة؛ فقد كان لا بد أن ينتهي هذا الحوار الخلَّاق بكل ما فيه من اندفاع وتصميم إلى هذه النتيجة الرائعة، نتيجة أننا أخيرًا قد اتفقنا على أسس ثابتة لحياتنا المقبلة، اتفاق جعل من الشعب والثورة والحكومة والقيادة كتلة واحدة متحدة أعادت لنا كل ما فقدناه من أرض إلى درجة أصبحت معها حركتنا الوطنية الشعبية أكثر ثراءً وغنًى واحتشادًا مما كانت قبل ٥ يونيو حتمًا. مرة أخرى نحن معًا، ولكنا معًا على أسس جديدة وبوعي أنضج. مرة أخرى نحن جبهة متَّحدة في وجه العدو، ولكنها جبهة تدرك أنها مكوَّنة من مواطنين متفقة على رأيٍ لا تملك خلقه أو تغييره، هو رأيها الذي قالته ورأته والتفَّت حوله. نحن معًا مرة أخرى، أقوى مما كنا ألف مرة، وعلاقتنا أخصب وأعمق ألف مرة. نحن معًا في بوتقةٍ قد صهرت كل ما كان ينغِّص نفوسنا كأفراد وما يُثقِل خواطرنا كفئات. نحن معًا وقد قلنا رأينا الصريح، وعرف كلٌّ منا رأي الآخر وقدْره واحترامه. نحن معًا إخوة على العدوِّ الغريب.

إننا بهذه الموافقة الإجماعية الرائعة على بيان ٣٠ مارس، لم نعُد من حيث بدأنا، لم نعُد إلى إجماعنا في المرات الأولى، ولكنه إجماعٌ جديد لظروف جديدة، ولهدفٍ جديد أيضًا. إنه إجماع يعني المسئولية الكبرى، يحملها الشعب والقيادة معًا؛ فقد أصبح بيان ٣٠ مارس بالنسبة للقيادة أمرًا واجب التنفيذ بكل دقة وعبقرية، وبالنسبة للشعب أصبحت مسألة مراقبته للتنفيذ، وتحمُّله مسئولية الحفاظ عليها وعلى كل ما جاء في البيان من مبادئ، أخطر المسئوليات التي حملها أو ممكن أن يحملها شعبنا منذ قامت ثورتنا في هذه اللحظة، ولكن هذا كان أبدًا لا يمكن أن يخيف، فإجماعنا هذه المرة إجماع الأقوياء المتحدين.

حسنًا! إنها لظاهرة طيبة حقًّا؛ فلقد بدأ جيلنا يحمل مسئولياته. وإني لأعبُر بناظري سنوات كثيرة إلى الوراء لألمح بداية تكوُّن وعينا كطلبةٍ صغار في أوائل عهدهم بلبس البنطلون الطويل؛ فقد خرجوا — لا يزالون — من دائرة وجودهم الصغيرة إلى الدائرة الأرحب: دائرة الوجود الوطني الكبير.

في تلك الفترة جمعتني الزمالة والصداقة بطالب كان يبدو دائمًا أكبر حكمةً وأقل كلامًا وأوسع اطلاعًا. لا زلت أذكر وقفاتنا الطويلة بجوار سور المدرسة الحديدي، وموضوع نقاشنا في تلك الفترة المبكرة من حياتنا. أشياء غريبة على تفكير الطلبة الصغار بشكل عام، أشياء مثل الجديد في شعر العقاد. كان العقاد — رحمه الله — قد أصدر ديوانه الشعري الجديد الذي يتحدث فيه بطريقة جديدة عن موضوعات لم تكن قبله أبدًا موضوعات شعر؛ فهو يتكلم باسم البيوت مثلًا، أو على لسان الجدران والشوارع، وبطريقة أسقط منها كل المحسنات البديعية للشعر وكل فخامة الألفاظ وجوفائيتها. وكان صاحب الديوان الذي اشتراه وحرص على إحضاره معه إلى المدرسة لنناقشه هو ضياء الدين داود الطالب معنا في السنة الأولى الثانوية آنذاك، وليس زميلي في المدرسة فقط، ولكن زميل رحلة الأوتوبيس الطويلة بين الروضة ودمياط؛ فترة من أخصب فترات الحياة، فترة التطلع إلى كل العالم من حولك باندهاش وتعجُّب وتساؤل مرير، وإن يكن زميلك في هذه الرحلة صديقًا صافي النفس كضياء وتُسبَر معه أغوار هذا العالم الغريب من حولك لَشَيء يبعث على السعادة حقًّا.

وأن تظل الحياة تتقاذفنا حتى لتفرِّق بيننا في المدرسة، ثم في الجامعة والحياة، وحتى لَتنقطع أخباره تمامًا عنك، ولَتُفاجأ به ذات يوم عضوَ مجلس أمةٍ عن فارسكور، ثم من بين الأعضاء يُختار وزيرًا، شيء لم يدهشني مطلقًا.

فالخاصية الأساسية في ضياء الدين داود أنه كان دائمًا يبعث على الثقة، وكنت لا تملك إلا أن تثق فيه حتى إنك لا تتورع أبدًا عن البوح له بكل متاعبك وأسرارك. ولا عجب إذن أن ينتقل من كونه محلَّ ثقتنا نحن أصدقاؤه وزملاؤه الصغار إلى ثقة الدولة الاشتراكية نفسها والقيادة. تطوُّر طبيعيٌّ كان لا بد أن يحدث ويكون؛ فالإنسان لا يصبح فجأةً مسئولًا. إنه ذلك الأهل للمسئولية وهو بعدُ طالبٌ صغير. إنه مسئول ربما من لحظة ولادته.

كل تمنياتي لك بالتوفيق يا صديق الصبا وزميل لحظات العمر.

مخدر المدينة

قضيت بعض أيام الأسبوعين الماضيين في الفيوم مع فاتن حمامة وبركات ومنير رفلة وضياء ومجموعة من الفنانين والفنيين الذين كانوا يصورون فيلم «الحرام». والحقيقة أن التجربة استغرقتني تمامًا؛ فلقد اتبع الفنان بركات طريقة فريدة في تصوير الفيلم؛ إذ جعل الفلاحين أنفسهم على هيئة «ترحيلة» يمثلون دور «الترحيلة» في القصة، والنتيجة مذهلة لكلِّ مَن رآها؛ فبعض الناس يعتقدون أن الفلاحين مثلًا أناس لا يمكن أن تكون بينهم وبين الفنون — وخاصةً التمثيل — صلة؛ باعتبار أن الفنون المتطورة نبعت واشتهر بها المتعلِّمون أهل المدن، ولكنا وجدنا في الفلاحين مادةً خامًا غنيةً غنًى لا يتصوره العقل، باستطاعة اليد الماهرة أن تشكِّلها وتُخرج منها عملًا فنيًّا معجزًا.

ورغم أنني كان يجب أن أنصرف بكُلِّيتي إلى التصوير والقصة وما كانت تقوم به المجموعة من عملٍ شاقٍّ رهيب، إلا أني وجدت اهتمامي كله ينصرف إلى عمال الترحيلة الذين أحضرهم منير رفلة ليقوموا بدور الترحيلة؛ أي القيام بالدور الخالد الوحيد الذي ظلُّوا يلعبونه مئات السنين وآلافها.

استغرقتني تمامًا حياة هؤلاء الناس التي صادفتها بلا وعيٍ وأنا طفل، واليوم أشهدها بكل وعيي وإدراكي وانتباهي.

ولقد خرجت من استغراق في تأمل حياة الناس بأن أعتقد أننا في القاهرة نحيا تحت تأثير مخدر قوي اسمه المدينة، بعماراتها وعرباتها وشوارعها الفسيحة ومتنزهاتها ومسارحها وسينماتها، والمواطنين الأنيقين النظيفين الذين يَحيون فيها، والذين يستنكفون أن يدخنوا السيجارة مثلًا إذا سقطت منهم على الأرض. إن هذه المناظر التي تُطالعنا صباح مساء تُنسينا أحيانًا بل دائمًا ما تنسينا أننا شعب من الفلاحين، وأن الوجه الحقيقي لهذا الشعب ليس هو الوجه القاهري المطليُّ بالألوان والدوكو، وإنما الوجه الحقيقي هو ذلك

الشاحب المليء بالحُفَر والحبوب، الأصفر بالنقص في التغذية، ذلك الذي يطالعنا إذا تحرَّكنا بضعة كيلو مترات مبتعدين عن القاهرة.

هناك نرى أنفسنا وبلادنا على حقيقتها. هناك لا خداع. هناك أدركت أننا برغم كل ما صُغناه وقمنا به من أعمال مجيدة خلال الثورة لم نستطع أن نغيِّر كثيرًا من صورة مجتمع القرية؛ فالفقر هناك لا تزال له الغلبة ولا يزال هو القاعدة المُخيفة التي لا بد يقشعرُّ لها جسدك.

هناك حيث الملابس مُهرأة، والوجوه ذابلة كوجوه الموتى المحنَّطة التي امتصَّت منها القوة القاهرة كل ماء الحياة ونضرتها.

هناك حيث وقفت سيدة أمريكية كانت تحضر التصوير وقالت — والألم يلوي ملامحها: «أقسم أنكم لكم الحق أن تفعلوا أي شيء في سبيل أن تخلِّصوا هؤلاء الناس من هذه الحياة المرعبة — وإن حاربتم إلى آخر رجل — كي يستطيع هؤلاء الناس أن يَحيوا الحدَّ الأدنى من الحياة الجديرة بالإنسان. إن هذا الفقر لا يعيبكم؛ فأنتم لم تصنعوه وإنما ورثتموه، ولكنه بالتأكيد يعيب العالم المتحضِّر كله؛ يعيب القوى التي تقف ضدكم، ومنها للأسف بلادي التي تريد أن تمنع الطعام والملبس والمستقبل عن هؤلاء الناس. أرجوكم افعلوا أيَّ شيء وكلَّ شيء؛ قاتلوا، حاربوا الاستعمار، أوقفوا هذا، لا تجعلوه يستمر، أوقفوه.»

ولم أحسَّ أبدًا — مثلما تحس بعض الجهات المعنية بالأجانب عندنا — بالخجل؛ لأن هذه السيدة الأمريكية قد اطلعت على صورة حقيقية لحياة فلاحينا؛ بالعكس أحسست أن الصدق قد كسب لنا مُنصِفةً وداعيةً وصَديقة. أحسست أن خير ما نستطيع أن نفعله لشرح وجهة نظرنا للآخرين هو أن نُري الآخرين إلى أي درك هبطت الحياة بشعبنا تحت وطأة الاحتلال الأجنبي والاستعمار والاستغلال. إن هؤلاء الناس الذين يكتبون للجرائد وفي الجرائد أحيانًا، ويطلبون أن نُخفي ما يسمونه بالمناظر المؤذية عن عيون السياح والضيوف يملئونني بالغيظ؛ فليس في وجود الفقر ما يُخجل؛ فهو فقرٌ — على رأي السيدة الأمريكية — لم نصنعه وإنما ورثناه، وهو قضيتنا ومبرِّرنا العادل ليس فقط لقيام ثورتنا وإنما لكلِّ ما تتخذه ثورتنا من خطوات.

وليس الأجانب فقط وإنما نحن أنفسنا؛ نحن الذين كثيرًا ما يُنسينا الوجه المشرق لُمدننا وعواصمنا ذلك الوجه المظلم الآخر، ذلك الذي تُخدِّرنا المدينة عن رؤيته وتُفقدنا القدرة على تذكُّره، وتُنسينا أن الثورة لم تقُم لتوزيع اللحم أو الأرباح على الناس، وإنما قامت أولًا وأساسًا للقضاء عليه، فهو أخطر وأشر الأعداء.

كتاب جيد

ثلاث ساعات متصلة قضيتها أحيا محمومًا في عالمٍ غريبٍ ساحِرٍ من صنع كاتب عملاق في رأيي، وإن كان بعض الناس يضنُّون على جيلنا الحديث أن تظهر فيه العمالقة. الكتاب اسمه «سلامة موسى وعصر القلق» والكاتب هو فتحي خليل. ولقد أتيح لي قبلًا أن أعرف فتحي خليل الشاعر وفتحي خليل المفكر الملتزم؛ وتلك كانت أول مرة يتاح لي فيها أن أعرف فتحي خليل المؤرخ. ولقد كنت أعتقد دائمًا أن أسوأ ما في التاريخ هو طريقة كتابته، ولا أزال إلى الآن أعاني من عقدة التاريخ كما درسناه في الكتب المقررة؛ في حين أن كتابة التاريخ من الممكن، لا أن تصبح فنًّا فقط، وإنما تتحول — بالنظرة المفتوحة المدرَّبة — إلى أعمالٍ أقرب إلى النفس من الروايات، وأكثر حياة ونبضًا من الأفلام والمسرحيات، ولها كل سحر القصص والحواديت.

وسلامة موسى مفكر، والقضية قضيةٌ فكرية وثورية من السهل أن يستحيل علاجها إلى جرعة دواءٍ جادٍّ مرٍّ لا أثر للمتعة فيه.

ولكني — في هذا الكتاب — ظللت أقرأ مبهور الأنفاس، وكأني أتتبَّع أحداث قصة بوليسية مثيرة. وفتحي خليل بفنٍّ عظيم وجهد وتمكُّن يرسم لي لوحةً بانوراميةً هائلةً لعصرٍ بأكمله، لوحة عامرة بالتفاصيل الدقيقة، لا تُغفِل حتى الشعيرات، ولا يُفلِت من راسمها المُحنك خط الأساس؛ لوحة من كثرة ما تحس بصدقها تتصور أنها خيال، ولشدَّة ما استُعْمِلَ الخيال في تصورها تؤمن أنها لا بد الحقيقة.

لقد قرأت معظم مؤلفات سلامة موسى وقرأت الكثير عن عصره. والتاريخ قريب، ولكني أشهد أني لأول مرة — وبفضل كتاب فتحي خليل — استطعت أن أُدرِك بالضبط

مكانة سلامة موسى من عصره، ومكانة ذلك العصر من نفوسنا نحن، ومن الصراع الفكري العقائدي الذي امتد من يومها إلى يومنا هذا.

إنه كتاب صغير الحجم حقيقةً لم يستطع أن يتناول الموضوع كله، ولكنه أعاد لي ثقتي ورأيي في الكتاب؛ فالكتاب هو — كما يقول الأستاذ كامل الشناوي: ذلك الشيء الذي تقرؤه فتحس أنك لست نفس الشخص الذي كُنْتَه قبل قراءته، وإنما تغيرت فآمنت بشيء لم تكن تؤمن به، أو تخلَّيت عن إيمانٍ مترسِّب فيك. الكتاب الذي يذكِّرني دائمًا بوظيفة الجامعة وأساتذة الجامعة ودور الجامعة كمنبرٍ للفكر ومنارٍ للثورة العميقة. فليس عمل أساتذة الجامعة هو إضاعة الوقت في كتابة المقالات للجرائد والمجلات، وإنما عملهم الأساسي أن يؤلِّفوا الكتب، أن يطلقوا المدفعيات البعيدة المدى، أن يبنوا صناعتنا الفكرية والثقافية الثقيلة، وهو بالضبط نفس العمل الذي يقوم به كتاب ككتاب «سلامة موسى وعصر القلق»؛ فمنه تستطيع أن تتعرف بيقين على أرض الصراع التي نقف عليها اليوم. منه ترى أن السيقان الحالية والثمار لها جذور، والجذور ممتدة إلى أعماق، وأننا لن نعرف أنفسنا ولن نعرف حتى ما نريده إلا إذا كشفنا واكتشفنا تلك الأعماق والجذور، وهذا هو دور المؤرخ الذي لا يكتفي بسرد الحوادث ورصد الأحداث؛ وإنما دوره أن يخرج من دراسته للتاريخ بوجهة نظر، وعلى أساسها ومن خلالها يقدم لنا وجهة نظره التاريخية تلك في صورة نابضة متكاملة حية كما فعل فتحي خليل.

لَكَمْ تمنيت أن أكون ناقدًا لأوفِّيَ ذلك الكتاب حقَّه، ولكني دائمًا وأبدًا لا أتخيَّر أمام الكتاب الحقِّ دورَ الناقد أو حتى دور الكاتب؛ دائمًا ببساطة وتلقائية أتخيَّر دور القارئ؛ إذ هو أحب الأدوار إلى نفسي. وإذا كانت الكتابة متعةً فأمتَعُ شيء عندي هو القراءة، وأمتعُ ما في القراءة أن تعثر على كتابٍ جيِّد.

ولقد اعتبرت نفسي محظوظًا إذ عثرت هذا الأسبوع على كتاب فتحي خليل «سلامة موسى وعصر القلق».

من برلين إلى بلغراد

اعترف لي أحدهم — وكأنه يُدلِي بسرٍّ خطير — أنه لم يهضم أبدًا تلك الضجة الكبرى التي سبقت وصاحبت وها هي تعقب مؤتمر بلغراد، متسائلًا — بيني وبين نفسي — أيضًا عن الأهمية غير العادية لمؤتمر كهذا، الأهمية التي تبرِّر مثل تلك الضجة، وتستحق كل هذه «المانشتات» من الجرائد، وكل تلك الكتابات في الصحف.

ولا يسارع أحد ويكيل الاتهامات لمثل ذلك الشخص؛ فلا زلت أعتقد أنه حسن النية، ولا زلت أرى أن كثيرين من حَسني النوايا هؤلاء يفشلون أحيانًا كثيرة في الإحاطة بأحداث كثيرة هامة تقع على مرمى الأبصار والأسماع منهم، ويقصرون عن تبيُّنها؛ فمصاحبة الأحداث الكبرى شيء، وإدراك كنهها ومغزاها شيء آخر.

أحيانًا لا بد من مُضي وقت، لا بد من إضافة عنصر الزمن إلى الحادث لكي نتعرف على قيمته الحقيقية ونراه من جميع جوانبه، ونراه بعيونٍ خَلَت من العواطف الشخصية والوقتية.

ولنأخذ مؤتمر بلغراد كمثل. إنه ليس مؤتمرًا كغيره من المؤتمرات انعقد وانفضَّ واتخذ قرارات. إنه مرحلة، وتتويج لمرحلة، لكي نتبيَّنها على حقيقتها لا بد أن نقارن بينه وبين مؤتمر أو مؤتمرات أخرى عُقِدَت في أوروبا أيضًا منذ سبعين أو ثمانين عامًا فقط؛ لنرى من كان يعقد هذه المؤتمرات، ومن أجل ماذا كانت تنعقد.

في سنة ١٨٨٤ وبعد توحيد ألمانيا وهزيمة فرنسا وتأديبها، دعا بسمارك عاهل ألمانيا الموحدة الدول الأوروبية كلها ما عدا سويسرا إلى مؤتمرٍ يُعْقَد في برلين من أجل «تنظيم الاستيلاء على المناطق الجديدة في أفريقيا». بوجه أصح وأكثر دقةً دعا إلى مؤتمر ينعقد لأجل الاتفاق على الاستعمار الأوروبي الجماعي لأفريقيا، ولقد انعقد المؤتمر فعلًا في الفترة ما بين ١٥ نوفمبر ١٨٨٤ إلى ٣ يناير ١٨٨٥، وحضرته الدول الأوروبية، وحضره أيضًا ممثل

عن الولايات المتحدة الأمريكية. ولأن الاستعمار كان دائمًا يرفع أعلامًا خفاقة من الشعارات الإنسانية لتبرير غزواته وتدخُّله؛ فقد نصَّ القرار الأول للمؤتمر على أهمية رسالة التبشير المسيحية بالنسبة إلى سكان أفريقيا «الهمج»، وتحريم الرِّقِّ «لتوفير الأيدي العاملة أولًا في المستعمرات»، ثم ناقش المؤتمر أيضًا في تفصيلات كثيرة: تنظيم طريقة إعلان الحماية، والاستيلاء على مناطق جديدة في أفريقيا، ووضع شروط إعلان الحماية والضم، وحدَّد لذلك شرطين أساسيين: أولهما ضرورة رفع علم الدولة على المنطقة، وثانيهما ضرورة إخطار دول مؤتمر برلين. وبهذين الشرطين فقط يصبح احتلال أيٍّ من الدول الأوروبية لأية منطقة في القارة الأفريقية قانونيًّا ومعترفًا به دوليًّا. ولم يفُتِ المؤتمر أيضًا أن يتخذ قرارات تخدم حرية «التجارة»، وتنص على عدم التفريق أو التمييز بين الدول الأوروبية في هذا المجال.

وقبل مؤتمر برلين، أو بعده، لا أذكر، انعقد مؤتمرٌ آخر من الدول الغربية لتقسيم مناطق النفوذ في الصين.

كانت المؤتمرات تُعْقَد إذن لتقسيمنا وتنظيم استعمارنا والاتفاق على الخطوات اللازمة لبسط سلطان الدول الأوروبية الاستعمارية على بلاد آسيا وأفريقيا. وقد نجحت تلك المؤتمرات فيما أرادته، وبالوحشية والقسر حينًا؛ بحرق القرى، بالشنق، بالإعدام رميًا بالرصاص، بالتنكيل والإرهاب والعسف؛ كان لأوروبا الاستعمارية ما أرادت، وتمَّ لها تقسيم الصين، واستعمار الملايو وإندونيسيا وإخضاع الشرق الأقصى، وكذلك تمَّ لها احتلال أفريقيا واستعبادها.

حدث هذا في القرن التاسع عشر.

واليوم وفي النصف الثاني من القرن العشرين، وعلى التحديد ونحن في الثامن والعشرين من شهر أغسطس سنة ١٩٦١، ها هو مؤتمر في بلغراد الأوروبية ينعقد، وممن؟ من نفس البلاد التي اعتبرتها أوروبا الاستعمارية مساحات شاسعة من المواد الخام والأرض، يكفي أن ترفع إحدى الدول علمها عليها لكي تصبح مِلْكًا خالصًا لها دون نظر أو اعتبار إلى أهل تلك المناطق وشعوبها وما يريدون. حسن جدًّا! بعد قرنٍ من الزمان استطاع هؤلاء الناس — بالكفاح والتضحية والدم والبذل — أن يرفعوا عن آسيا ومعظم أفريقيا الأعلام اللصة الكاذبة، وأن يضعوا أعلامهم هم ويستعيدوا حقهم في الأرض والحياة. اجتمعت تلك الدول في بلغراد لا لتقرر تقسيم أوروبا وتنظيم استعمارها، لا لتقهر وتطغى وتتجبر، وإنما اجتمعت — ويا للمصادفات! — لكي تناقش السلام العالمي

وتفرضه. وبالذات الخطر الساحق الذي يهدده في برلين — عاصمة بسمارك — الرجل الذي دعا أوروبا ذات يوم على مائدة تلتهم فيها أرض أفريقيا وشعوبها.

ولا تنبع خطورة مؤتمر بلغراد من هذه المقارنة التاريخية التي يكفي نظرة واحدة إليها لتدلَّ على طول الشوط الذي قطعته شعوب آسيا وأفريقيا، وعلى نُبل الرسالة التي تعلَّمتها خلال كفاحها الشاقِّ من أجل الحرية، والتي اجتمعت اليوم كي تكافح من أجل فرضها: رسالة السلام والأمن العالميين.

خطورة المؤتمر تنبع في الحقيقة من كونه مرحلةً أرقى من مراحل الكفاح الوطني، ليس في آسيا وأفريقيا وحدهما ولكن في العالم أجمع؛ خطورته أنه يجيء ليُبيِّن أن مشكلة التحرر والاستقلال لم تعُد مشكلةً خاصة بين الدول المستعمِرة والشعب المستعمَر، ولكنها أساسًا المشكلة القائمة بين الاستعمار بكل دوله وأشكاله وبين الشعوب الراسفة في أغلاله أو التي حطمتها، ولكن خطر العودة لا يزال ماثلًا أمامها. هو مؤتمر دول غير منحازة ولكنها دول ملتزمة، وجاءت لتلتزم بميثاق تتكاتف فيه وتتضامن وتتعاون ضد كل أعداء السلام والحرية وأنصار التبعية.

خطورته أنه من خلاله أدركت الشعوب والحكومات المستقلة والحديثةُ الاستقلالِ والظامئة إليه، أن عليها واجباتٍ وتبعاتٍ تجاه بعضها البعض وتجاه الإنسانية جمعاء.

خطورته أنه جاء ليطوِّر الكفاح الوطني في العالم وينقله إلى مرحلة أقوى وأرقى، مرحلة التزام غير المنحازين؛ مرحلة ألَّا يكفي لكي يتحرر الشعب أن يتحرر وحده، وإنما عليه — لكي يظل محتفظًا بالحرية — أن يساعد كل شعب مستعمَر وبكلِّ وسيلةٍ على التحرر؛ مرحلة تضامن الأحرار العاملين من أجل الحرية داخل إطارٍ غير منحاز؛ غير منحاز بالنسبة إلى الكتلتين المتصارعتين، ولكنه منحاز وملتزم ومتضامن بالنسبة إلى قضية الكفاح الوطني في كل مكان.

وكما تتحدد أخلاق الشخص من خلال الهدف والقضية التي يعمل من أجلها، وكما حدد دور أوروبا القرن التاسع عشر الاستعماري، التوحش والإجرام والقهر وسيلةً لأداء ذلك الدور لبلوغ الهدف، فلم يكن من الممكن أبدًا أن تجتمع دول بلغراد لتتبنى قضية كبرى كهذه دون أن تنبع من هذه القضية أنبل وأصدق الأهداف الإنسانية، ولم يكن تدخُّلها في برلين من أجل مصلحة ذاتية أو اتفاقات من أمثال اتفاقيات ١٩٠٤ بين فرنسا وإنجلترا على إطلاق اليد هنا نظير إطلاق اليد هناك. لقد دخلت دول بلغراد هذه المرة لتفرض السلام كضرورة وكقيمة إنسانية وليس كمصلحة أو كتكتيل، وطالبت بإيقاف سباق التسلح ونزع

السلاح وإيقاف التجارب النووية كمبدأ أيضًا وليس وسيلة مساومة أو كسب للوقت. لقد جاءت الدول التي خاضت غمار أشرف معركة، معركة التحرر الوطني لتفرض على أوروبا والعالم قيمًا إنسانية عُلْيا بشَّرت بها واكتسبتها خلال كفاحها البطولي العظيم. لقد كانت خريطة العالم قبل بلغراد موزعةً كالآتي: كتلتان هائلتا القوة تتصارعان، دولة مستقلة وحديثة الاستقلال ومكافحة من أجل الاستقلال تُتَّخذ كوقود للحرب الباردة، وتُسْتَعْمَل كمخالب أحيانًا، وأحيانًا لا يُنْظَر إليها بأي اعتبار.

وتكفَّل مؤتمر بلغراد بتغيير الخريطة جذريًّا؛ فلقد أوجد للسلام العالمي وللتحرر الوطني وللعدالة قوة؛ قوة الحركة الوطنية العالمية حين اكتشفت نفسها والتفَّت ونقلت الكفاح الوطني من مرحلته ذات الطرفين إلى مراحل الجبهة المتماسكة التي تحارب الاستعمار أنَّى وُجِدَ، وتحاربه معًا وبكل ما تملك من سلاح، وتحارب التدخل أنَّى وُجِدَ.

قوة التحرر الوطني والسلام العالمي أصبحت ببلغراد دعوةً عالميةً لها جنودها والعاملون حتى الموت من أجلها.

ومن هنا تنبع الخطورة الحقيقية، وترتسم الصورة الصادقة لمؤتمر بلغراد.

إلى اليسار الطيب

قصة اليسار العربي قصة طويلة حافلة؛ إن كلمة اليسار نفسها كلمة مطاطة اخترعها المثقفون الفرنسيون. ولا أعرف لماذا أجدها دائمًا ثقيلة على لساني وقلمي، وعذري الوحيد لاستعمالها أنها شاعت وانتشرت بفضل بعض دعاتها عندنا ممن يحلو لهم دائمًا أن يتفاخروا باستعمال نفس التعبيرات التي يستعملها المثقفون في باريس ولندن. كلمة مطاطة من الممكن — كما رأينا — أن تمتد وتمتط حتى تشمل جي موليه أو بِن جوريون. ولكني حين أستعملها إنما أقصد بها تلك العناصر من حركتنا الوطنية التي تدفع — بعملها لا بقولها — حركة الشعب إلى الأمام، وتفعل بإيمانٍ نابعٍ من ذات الإنسان ومواقفه ودوره وليس نابعًا مما يتشدق به ويجعجع. وما أسهل أن يتشدق البعض ويجعجع باسم الاشتراكية في ظل حكومة اشتراكية وثورة اشتراكية.

الفصول المظلمة

هذه القصة الطويلة الحافلة بين الثورة التحررية الاشتراكية وبين اليسار العربي — وبالذات بينها وبين بعض عناصره — قد احتوت — وما أكثر ما احتوت — على بعض فصول مظلمة دامسة الظلام؛ فصول عَطَّلت وشقت وأَخَّرت وأضاعت على شعبنا وقتًا وجهدًا وإمكانيات؛ فصول جعلت اليأس يدب إلى بعض القلوب والسأم يتسرب إلى النفوس والأمور تختلط على بعض الناس؛ فصول حدثت — وكان لا بد أن تحدث — بالثورة حين تقوم، لا يعني قيامها ونجاحها ووصولها إلى الحكم أن الناس جميعًا قد آمنوا بها. إن الحل الثوريَّ يؤمن به في العادة عدد قليل من الناس، ويظل الإيمان به يتسع إلى أن يشمل عددًا أكبر وأكبر، حتى تأتي الظروف الملائمة ويستولي هؤلاء الثوار على الحكم. وبالحكم

وبإمكانية العمل في وضح النهار يأخذ هؤلاء الناس على عاتقهم مهمة التبشير بالثورة، وتوسيع دائرة الإيمان بها إلى أن تشمل المواطنين جميعًا. وحين أقول: الإيمان، فإني أتحدث عن الإيمان وليس عن التأييد أو الموافقة أو التحمس الظاهر. وأعتقد أن معظم المخلصين الذين اختلفوا مع ثورتنا كانوا يختلفون — لأنهم كانوا يريدون أن يتفقوا، وأن يكون اتفاقهم عن إيمان راسخ وعن اقتناع — خلافًا يُعَدُّ أشرف في رأيي ألف مرة من اتفاقٍ لمجرد الاتفاق أو المراءاة أو ذرِّ الرماد في العيون.

وخلال الأسابيع الماضية انتهت — كما هو واضح ظاهر أخَّاذ — قصة ماضٍ حافل، أكاد أقول: ماضيًا مؤسفًا لولا أن الحياة تُعلِّمنا ألَّا نأسف على شيء حتى الفشل؛ إذ ليس الفشل سوى نجاح مؤجَّل، ولا ينبع الصواب أبدًا إلا من الخطأ، والعصمة لله وحده. والإنسان هو الكائن الوحيد الذي يملك قدرةً أن يتعلم من نجاحه — وربما من فشله يتعلم أكثر — والقصص التي كانت تُروى في الماضي لنأخذ منها العبر، والتاريخ يكتب ليضاف إلى عمر كلٍّ منا عدد السنين التي وعى تاريخها وذاكَرَه واستفاد به، والصفحة جديدة مشرقة لا نبدؤها من أول وجديد؛ فالبداية عمرها اثنا عشر عامًا من المعركة والتجربة، حتى تجربة الموت والحياة. والطريق مفتوح واسع لا نهاية لطوله ولا حد لاتساعه، والبلد بلدنا، كان صغيرًا وقامت فيه ثورة، ثم أصبحت بلادنا نفسها بكل ما فيها وما عليها ثورة، ثورة عملاقة، خرجت من قمقم الزمن وجعلت الحياة تدبُّ في جسد أمة ممزقة لينتفض ويتحرر ويعتد بالثورة والتحرر، ولم يبقَ على خلاص الوطن العربي كله سوى أيام.

دور اليسار

والمهمة الكبرى الملقاة على عاتق هذا اليسار هي أن ينسى هذه الذات اليسارية التي لم يفعل معظمها شيئًا طوال أعوام مضت إلا أن يتأملها ويحافظ عليها ويدافع عنها. أسلوب لعله كان السبب الوحيد في جميع ما انتاب اليسار من أمراض وعلل وما جرَّه إلى سوء تقدير بعض المواقف والخطأ. إن وضوح الهدف — كما يقول الميثاق وتقول الحقيقة — هو نصف الطريق إلى النجاح، والهدف ليس هو الذات أبدًا حتى ولو كانت ذاتًا يسارية؛ الهدف هو التحديات الضخمة التي تقف أمامنا؛ الهدف أن تصل ثورتنا التي ما زالت طليعية إلى أعمق أعماق شعبنا، إلى كل أفراده، الهدف أن تصاحب عملية التحول الاشتراكي الاقتصادية عملية تحول فكرية وعقائدية؛ الهدف ليس أن نقف ونؤثِّر على الناس بالطلاء ونقسمهم إلى يمين ويسار ووسط، إنما الهدف الأكبر أن نحرك الناس، أن نحرك اليمين إلى اليسار،

واليسار إلى الأمام، نحرِّكه إلى أن يغيِّر ويتغير ويزداد فهمًا وإدراكًا ودراسة لمشاكلنا وكدحًا من أجل حلها. إني لا أطيق هؤلاء «اليساريين» الجالسين فوق منصات المجالس أو المنابر، واضعين الساق فوق الساق، جاعلين من أنفسهم أوصياء على الاشتراكية ومصدري أحكام وحافظي بعض شعارات من شعارات الماضي، بينما الحياة تتحرك من حولهم وهم كالببغاوات يردِّدون: هذا يساري وذاك يمين اليسار أو يسار الوسط، وهذا انتهازي وذاك متسلق. هؤلاء المحكِّمون في مسابقات لم يُقِمْهَا أحد ولا طلب منهم أحد حكمهم فيها، هؤلاء الجاعلون من أنفسهم حتى في مجالات الأدب والفن قضاةً بغير قانون، أو بقانون من ابتكارهم هم، وقضاة ليسوا حتى متخصصين، فباستطاعتهم أن يحكموا في كل شيء، في مخالفات التسعيرة وجرائم الأخذ بالثأر والخيانة والإعدام، بل وقضاة مزيفين؛ فالقضاء ليس جعجعةً ولكنه مجهود ودراسة وتفنيد وتمحيص وعمل شاق. ولكن هؤلاء يريدون أن يكونوا اشتراكيين ويساريين بلا عمل، بلا جهد يبذلونه، وإنما القول بعظمة وكبرياء: هذا عمل اشتراكي وهذا ضد الاشتراكية، جهدهم وعملهم الوحيد قاصر على وضع الساق فوق الساق، ثم القول بعظمة وكبرياء: هذا عمل اشتراكي وهذا ضد الاشتراكية، هذا يسار وذاك يمين، هذا مخلص وذاك انتهازي، ويحسبون أنهم بهذا قد أبرءوا ذمَّتهم، و«كافحوا» الكفاح كله وأرضَوا التاريخ، فهل يرضى التاريخ؟ إن التاريخ ليس كلمة أو حكمًا ولكنه أولًا وأساسًا عمل وتغيير. والاشتراكي واليساري لا يكون إلا بما يبذله من جهد لتحريك الحياة ودفع الواقع وتغيير الناس؛ تغيير الساكن إلى متحرك، والرجعي إلى تقدمي، والمتسلق إلى مجاهد.

ومهمة اليسار، بل مهمة أي مواطن يريد أن يكسب هذه الصفة عن جدارة أن يعمل ويُنتج ويغيِّر مهمته، أن يختلف ويناقش ويجادل، ولكن أيضًا بهدف أن يغيِّر، بهدف أن يدفع إلى التغيير.

الحاجة إلى يسار كبير

إن المجتمع الاشتراكي هو المجتمع الذي يطلِق من عقاله كلَّ طاقات المواطنين على العمل والإنتاج. وإذا كانت مهمة المواطنين في المجتمع الاشتراكي هي تغيير الواقع بهذا الإنتاج الهائل، فمهمة الثوريين في ذلك المجتمع هي تغيير الناس؛ هي تسليحهم بالقيم الاشتراكية؛ هي ربط العمل بالعقيدة؛ هي إتاحة الفرصة للخصال الإنسانية أن تتفجر وتعمَّ وتزدهر ليصبح العمل والإنتاج عملًا وإنتاجًا إنسانيًّا، يقوم به الإنسان الاشتراكي ليبنيَ به مجتمعه الاشتراكي الإنساني.

المهمة الملقاة خطيرة، والصفحة جديدة مشرقة، والبلد كبير بحاجة إلى يسار كبير. إن كانت تجارب السنين الماضية لم تُنضِجه فلا أعتقد أنه سينضج أبدًا، واليساري الحقيقي ليس بحاجة لادِّعاء اليسارية وللإعجاب بذاته المصونة اليسارية. وليست وظيفته أن «يحكم» على الآخرين، وإنما وظيفته الحقيقية أن «يغيِّر» الآخرين بلا كللٍ ولا يأسٍ ولا ملل.

من المهم جدًّا أن يدرك يسارنا هذا الفارق؛ فأَخْوَف ما نخاف أن تتكرر نفس الأخطاء، وأن يمزِّق اليساريون أنفسهم ويحاولوا تمزيق الآخرين بالشتائم، وللتناحر حول مَن اليسار ومَن الأحق ومَن الأجدر؛ فالأحق والأجدر دائمًا بعمله وإنتاجه وليس بما يعتنقه؛ إني أفضِّل الموظف ذا الأفكار المتعفنة المواظب على عمله وإنتاجه القاضي لمصالح الناس على الموظف البلطجي المتفاخر بعقيدته أو ثقافته؛ فنحن لا نوزع الأسلاب، وحتى إذا كنا نوزعها فصاحب النصيب الأكبر هو صاحب أكبر جهد مبذول لقضية الاشتراكية أو التفكير الاشتراكي.

إن اليساري يساريٌّ بحركته نحو الهدف وبخدمته لثورة عبد الناصر الاشتراكية، ودفع الثورة إلى أقصى مدى. ويُخيَّل إليَّ أننا لو استبدلنا كلمة اليساري بكلمة المتحرك أو العامل أو المنتج أو المغيِّر لتقلَّصت الصفة عن أناس كثيرين يستعملونها لتغطية العجز والجعجعة والكسل، ولأظهرت ووضعت تحت أضواءٍ عناصرَ يسارية حقيقية من خيرة أبناء شعبنا؛ هي العاملة الدائبة المؤمنة في إصرار ورحابة وصمت، وهي — في رأيي — الغالبية التي تعطي لهذا اليسار ثقلًا وتجعل منه قوةً حقيقيةً ذات فائدة عظمى لبلادنا وثورتنا واشتراكيتنا، وإنما يغطي على عملها ودورها تلك الأقلية الصارخة العابثة المتباكية المزعجة.

والأمل كله معقود على هذه الصفوة الخيرة التي تضرب بعملها وسلوكها المثل.

حركة إلى الخارج

فلتتحرك هذه العناصر الطيبة، وليتحرك كل ما هو طيب في اليسار، ليتحرك لا إلى الداخل، لا إلى التناحر والتفاخر والتنابز، ولكن حركة إلى الخارج، حركة لسحق التحديات القائمة أمام الثورة وأمام حركة الشعب والتاريخ، حركة هي العلاج الوحيد لكل أمراض الماضي، وهي التي ستتكفل بإغلاق أفواه المجعجعين المتسيرين المتياسرين الضاربين، وكذا إلى أعلى، إلى أنضج، إلى الآفاق الأوسع في التفكير والصدور الأرحب، حركة هدفها الانطلاق ومساعدة

شعبنا وتسليحه بالقدرة على الانطلاق، حركة أناس اعتنقوا الثورية والاشتراكية واليسارية عن حب، عن إحساس بالرغبة في احتواء شعبنا كله بين الضلوع والسير به إلى أمام، عن حب وليس عن كره وحقد وفشل.

ليتحرك اليسار المؤمن الطيب حتى ينقرض المدعي الضار، وحتى يصح وينطلق ويكفَّ عن التعثر والسقوط والاكتفاء بتحميل الآخرين مسئولية عجزه. ليكن هذه المرة مسئولًا عن عجزه إذا عجز وعن فشله إذا فشل، ليحمِّل نفسه مسئولية نفسه والشعب كله. ليكن جديرًا بهذه المسئولية وكبيرًا كبرها. ليتحرك الخيِّرون حتى يتحرك الخير. ليتحركوا مع الشعب المتحرك أبدًا والذي لم يكفَّ يومًا عن حركته والذي أبدًا لا ينتظر ولا يتوقف ليُصغي للأحكام الزائفة والجعجعة.

إن الصفحة ليست بنت اليوم ولكنها جديدة وضَّاءة، فلتكن الكلمات التي ستكتبها حركة اليسار الطيب جديدة أيضًا ووضَّاءة، لتصبح حركة إنسان عوفيَ من أمراضه وتعثراته وطفولته وانطلق ناضجًا رحبًا في مجتمع ناضج رحب، حركة يسار عليه أن يقود ويوحِّد ويصحح اليسار العربي كله والأفريقي، ويتضامن معه ويتآزر من أجل الثورة العربية والثورة الأفريقية والثورة والسلام في العالم أجمع.

ويا لها من أزمة صحافة!

لا يزال الحديث عن الصحافة وأزمتها لم ينقطع، بل إنه دخل حتى مجلس الأمة. والحقيقة أني ما رأيت أزمةً عرفها الجميع وشخَّصها الجميع وأدرك الجميع حلَّها — ولم تُحَلَّ — مثل أزمة الصحافة. ولا يكفي أن نقول: إن عندنا جرائد تصدر وتحمل للرأي العام الأخبار والتعليقات والمقالات؛ ففي كل مكان من أنحاء الدنيا توجد صحافة تحمل للرأي العام الأخبار والتعليقات والمقالات. ولا يكفي أن نقول: إن صحافتنا توزِّع عشرات الألوف، وتُقْرَأ خارج الجمهورية، وتنجح أحيانًا في إثارة الزوابع والمواضيع؛ فأي إنسان بمفرده ممكن أن ينجح إذا أراد في إثارة زوبعة وفي خلق موضوع.

إن الصحافة هي عيون المجتمع وآذانه وحواسه. وتصوَّر نفسَك حين لا تنقل لك حواسك إلا ما تريد أن تراه وتسمعه وتشعر به. تصوَّر ثورة جسدك عليك والألم يعصف به وعينك منصرفة عن ألمك تُحدِّق مبهورةً في خبرٍ عن ممثلة، أو في لجاجٍ عجيب حول اللغة وبأيٍّ منها نكتب الأدب. إن حواسًّا كهذه لا بد أن تفقد ثقة عقلك «المسئول» من ناحية وجسدك المتألم «القارئ» من ناحية أخرى.

إنها مشكلة معروفة محفوظة مزمنة ملَّ الكُتَّاب والصحفيون ترديدها. وإذا كنت أعيد الكتابة عنها فإنما لأحمل للشعب هذه المرة مسئوليتها؛ فالصحافة ليست مِلْكًا للعاملين فيها. وليست أداةً من أدوات الحكومة. إنها أولًا وأساسًا مِلْكُ الشعب؛ لأنها حواسه، ولأنها جزء لا يتجزأ منه، والشعب وحده هو الذي يستطيع معالجة حواسه إذا مرضت.

إن العلاج وما نطالب به لا يتعدى نفس ما قاله الرئيس جمال عبد الناصر في مؤتمره الصحفي الذي عقده عقب قانون تنظيم الصحافة عام ١٩٦١.

نصف مليون

أثار الأستاذ الكبير محمد التابعي — بما كتبه في «أخبار اليوم» — موضوعًا على جانب كبير من الأهمية، وكنت قد قرأت الوصف الغريب لحالة مستشفيات الأمراض العصبية والعقلية الذي نشره الصديق الكبير أحمد الصاوي محمد. والحقيقة أن الإنسان ليس بحاجة إلى أن يقرأ أو تنتقل إليه الصورة. تكفي نظرة خاطفة يلقيها أيُّ عابرٍ على حالة المرضى في مستشفيات الأمراض العقلية؛ ليدرك أن شيئًا ما يجب أن يُصْنَعَ من أجل الارتفاع بمستوى هذه المستشفيات من أجل أن تتحول إلى أماكن علاج حقيقية، وليس كما هي الآن مجرد سجون يُحْجَز فيها المرضى بالأعصاب والعقول، حيث يعامَلون معاملة أسوأ من تلك التي يلقاها المجرم في الليمان.

والحقيقة أن الأمر لا يقتصر على مستشفيات الأمراض العصبية والعقلية وحدها، تلك التي تحتوي على عدد من المرضى يوازي عدد المرضى في المستشفيات الأخرى بكافة أنحاء الجمهورية مجتمعة. هناك مستشفيات الحُمَّيَات، وفي القاهرة كلها وضواحيها مستشفيان فقط للحُمَّيَات: أحدهما في إمبابة، والآخر في العباسية، ويبلغ عدد المرضى المحجوزين بهما أرقامًا خيالية. والحقيقة أن كلمة «مستشفى» تعبيرٌ غير دقيق؛ فهي في الأصل ثكنات للجيش الإنجليزي أُحِيلَت دون أي تصرُّف أو تعديل إلى أماكن لتكديس المرضى، بحيث يتحول العنبر الذي يتسع لعشرين مريضًا أو مريضة فقط إلى شيء كالإسطبل يضم أكثر من ثمانين مريضًا، ينام عشرون منهم على أسِرَّة (والتعبير مجازيٌّ أيضًا)، بينما يرقد الباقون على الأرض، أجل الأرض، الأسفلت، ومجرد بطانية واحدة مشبَّعة بالخروق تُصْرَف للمريض إذا واتاه الحظ، عليه أن ينام فوقها وتحتها ويصنع منها مخدة.

وإذا كان المرضى في المستشفيات العقلية يعامَلون معاملة المنبوذين، وأسوأ منهم — على ما أعتقد — أولئك المنبوذون الحقيقيون المحجوزون في مستشفى الجُذام.

والمشكلة في هذه المستشفيات أنها بالرغم من أن المرضى المحجوزين بها والمترددين عليها يكادون يتجاوزون عدد المرضى الذين تخدمهم مستشفيات جمهوريتنا مجتمعة، إلا أنهم من الطبقات الفقيرة الكادحة المقطوعة الصلة تمامًا بالرأي العام. إن مرضاها لا يعرفون الطريق إلى الجرائد ولا يدرون لمن الشكوى. إنهم فقط يعانون ويجأرون من الألم ولا ينطقون. لقد زرت مستشفى الأمراض العقلية بحكم العمل، وذهبت إلى مستشفى الحُمَّيَات في إمبابة والعباسية، ورأيت ما يبعث القشعريرة إلى كلِّ من باستطاعته أن يرى ويحس؛ آلاف من المرضى يعذِّبهم الازدحام وانعدام الرعاية والدواء ولا يشكون، وإنما الشاكون هم الأطباء، في جلساتهم معي كانوا هم الذين يصرخون طالبين النجدة. طبيبة معمل في مستشفى إمبابة قالت لي: إن عليها أن تحلل في اليوم الواحد أكثر من ٥٠٠ تحليل للدم وللبصاق والبول، وإنها لو جاءوا لها بعشرة أطباء آخرين لما استطاعوا إنجاز كل تلك التحليلات. والعجيب أن دخول هذه المستشفيات إجباري ويُنفَّذ بقوة البوليس والقانون مخافة العدوى ومحافظةً على أرواح المواطنين. دخول إجباري عبارة عن عقوبةٍ صارمة يدفعها المريض العاجز الفقير من دمه وصحته وكرامته، يدفعها صاغرًا وأنفه في التراب ورأسه على الأسفلت، والويل له إذا قال: «آه.»

وقد يعتقد بعض الناس أن كل هذا يحدث خلف المسئولين في وزارة الصحة، في حين أني في مناقشة مع الدكتور النبوي المهندس أدركت أنه أول العارفين والمقدِّرين. كل ما في الأمر أن المسألة — مثلها مثل أي شيء آخر — في حاجة إلى نقود واعتمادات؛ فمتى وكيف يفطن المسئولون عن ميزانيتنا واعتماداتنا إلى هذا الوضع المُخزي المُخجل؟

إن الثورة أبدًا لم تصل إلى هذا القطاع الرهيب من قطاعات حياتنا. إن مستشفيات الأمراض العقلية والحُمَّيَات والجُذام كما هي وعلى مثل حالها قبل الثورة، بل منذ أن انتهت الحرب العالمية؛ أي منذ ثمانية عشر عامًا ازددنا فيها بالملايين، وتضاعف سكان القاهرة، وتضاعف عدد المرضى والمصابين، والوعي الصحي، وبقيت هذه الإسطبلات والزنازين على حالها لم تتغير، ومَنْ أوقعهم سوء الحظ وسوء الصحة في أحابيلها يجأرون ويصرخون صرخات مكتومة صابرة لا تجد من يتبنَّى قضيتها ويرفع صوته من أجلها، إني أهيب بالأستاذ محمد التابعي والأستاذ أحمد الصاوي محمد وجميع من يهمهم أمر نصف مليون محموم ومريض بعقله ومنبوذ أن يتبنَّوا قضية هؤلاء الناس، أن نقوم بحملة كبرى من أجل الأخذ بيدهم؛ من أجل بناء مستشفيات حُمَّيَات جديدة؛ من أجل إقامة مستشفيات حقيقية لمرضى العقول؛ من أجل هؤلاء الذين جريمتهم الكبرى أنهم وُلِدُوا فقراء، والمرض يأتيهم وهم مفلسون.

جزيرة روحية

في القاهرة جزيرة روحية غريبة، ينسى فيها المرء الهموم، ويضحك الأطفال، ويعود إلى الكبار صفاء الطفولة، ويبتسمون من الأعماق. في القاهرة شيء رائع ساحر اسمه العرائس، أقامته وزارة الثقافة وصرفت عليه بضعة آلاف من الجنيهات، ولكني أعتقد أن الرسالة التي يؤديها والتي يمكن أن يؤديها تساوي ملايين، ولا بد أن في الناس حاسة تجذبهم إلى حيث المتعة السامية الحقيقية؛ فلقد ذهبت ذات يوم إلى المسرح مع طفلي فوجدت المقاعد كلها مشغولة. ولم أتوقع حين دخلت لأبحث عن مقعدٍ خالٍ أن أجد المكان يحفل بهذا الازدحام، بمثل هذا العدد من الأطفال والأمهات والآباء. وجدت نفسي في مهرجان طفولة حقيقي، الأطفال فيه هم السادة، وعالمهم هو الكائن، وصرخاتهم الحلوة تصنع نبض الحياة. وجلست وثمَّة مشكلة تحيرني، فلي طفل في الثانية من عمره ينطق من الكلمات أنصافها وأرباعها وبالكاد يستطيع التعرف على أفراد العائلة، وكنت أتساءل: تُرَى هل سيدرك ما يراه؟ وما هو بالضبط شعوره إزاء ما يراه؟ وما كاد العرض يبدأ حتى وجدت الطفل المشكلة، مثله مثل أي مرتاد مسرح من مسارح الكبار ينسى نفسه كُلِّيَّةً، ومطالبه وبكاءه، وينسى وجودنا معه ويرتبط ارتباطًا كُلِّيًّا مع الساحرات الصغيرات، مع العرائس، ويضحك ويصرُّ على الجلوس فوق مسند الكرسي ليرى أكثر وأوضح، ويصفق، أَجَل يصفِّق استحسانًا، ويُصغي إلى الحوار ويبتسم، وكأنه يدرك بل لا بد كان يدرك، وإلا لما جعل همه كلما رآني خارجًا من البيت أن يطالبني بأن أستصحبه مرة أخرى إلى مسرح العرائس.

أجل، في القاهرة جزيرة روحية غريبة اسمها مسرح العرائس، لا أنصح الأطفال وأصحاب الأطفال فقط بالذهاب إليها، ولكني أنصح الكبار — الرجال والشبان والسيدات — كلما ركِبَتهم الهموم وضاقت بهم القاهرة وضاقوا بها أن يلجئوا للجزيرة الحافلة بالسحر، الكائنة في قلب قاهرتنا تنبض بحياةٍ حلوةٍ تعيد إلى الحياة طعم الحياة.

عبد الرسول

أنشر هذا الخطاب بلا تعليق، مع أن مرسِله قد طلب مني أن أعلِّق؛ فالخطاب ليس في حاجة إلى أي تعليق:

> اسمح لي أن أخبرك أنني أرى حقًّا لنا على الصحافة — المستنيرة — أن تحتضن قضايانا، وأن تحنو على آمالنا. ونحن لنا قضية وفي نفس الوقت متعلقون بأمل؛ هذه القضية هي الحرب الشعواء المُعْلَنَة من القوي على الضعيف، من الباطل على الحق، ومن مصلحة الآثار على شيخ عجوز يقطن القرنة اسمه عبد الرسول، وحتمًا سيادتك تعرفه أو على الأقل تذكر قصته؛ تعرف أن الرجل قد أعلن أنه يعرف مكان مومياء سيتي، وتعرف أيضًا أن مصلحة الآثار قد اضطرت تحت تأثيرٍ من رأيِنا العام القوي المستنير إلى السماح للرجل بالحفر في المقبرة الناقصة تحت إشرافها، وتعرف سيادتك أيضًا أن الرجل كان بينه وبين النصر العظيم ضربة فأس واحدة، وإذا بمصلحة الآثار وكبيرها تعلن وقف العمل، ورويدًا رويدًا نام الموضوع وبُحَّ صوت الرجل العظيم هنا وهناك، ولما يئس قبع في استراحته المتواضعة بالقرنة يحاول جاهدًا مخلصًا أن يؤدي خدماته إلى البلد عن طريق الظهور بأشرف مظهر أمام السياح من مرتادي استراحته، أو من عابري السبيل — مصريين وأجانب — الذين يرون أن زيارتهم للرجل والجلوس إليه متعة، لا تقل عن زيارة الهضبة المقدَّسة ومقابرها الخالدة غربي الأقصر، ولقد رأيت بنفسي مدى الحب والاحترام الذي يشعُّه هذ الرجل على ضيوفه ونزلاء استراحته، بل وعلى الجماد أيضًا من حوله. ومعذرةً لحماسي الشديد للرجل، ولست قريبًا له ولا أعرفه بل على العكس أنا لم أرَه في حياتي سوى هذه المرة؛ فأنا من

دمياط وأعمل حاليًّا في بناء مشروعنا العظيم: السد العالي؛ ولكني كنت متتبعًا لجهاد الرجل، ولطالما صلَّيت من أجله، متمنيًا أن أرى في بلدي أناسًا من صميم الشعب يكتشفون ويخترعون، ولقد دار بيني وبين بعض أصدقائي حديثٌ عن الرجل، وخرجنا بضرورة تكوين جمعية لأصدقاء عبد الرسول لتمكين الرجل من معاودة بحثه. ولست بحاجة لأن أشرح لسيادتكم مدى إيماني بقضية هذا الرجل، وصدق كلماته. ولقد كان نقاشنا أمام مثقفين من الدرجة الأولى وفناني المراسم المجاورة لاستراحته، وكنت أرى على وجوههم مدى حبهم وعطفهم على قضية الرجل، وفي نفس الوقت ثقتهم بنظافة مقصده وصدق كلماته.

عزيزي الأستاذ الدكتور

هل أطمع في كلمة من كلماتكم الخلَّاقة المضيئة لإعادة إيقاظ القضية من جديد، وشحن شعور الرأي العام للوقوف إلى جانب الرجل؟ ونحن على استعداد للمساهمة ماديًّا في مساعدة الرجل حتى يُتِم بحثه، هذا من ناحية؛ ومن ناحية أخرى فإنني أرجو مناشدة المسئولين عن مصلحة السياحة معاونة الرجل للنهوض باستراحته؛ فلقد رأيت بعينَي رأسي مدى إقبال السائحين عليها، لا لنظافتها أو فخامتها وإنما للجوِّ البلديِّ المصريِّ الأصيل الذي يوفِّره لهم هذا الرجل؛ من شهامة تبدو ناطقة في تصرفاته معهم وغيرته على خدمتهم وتوفير راحتهم، وللحفلات الشعبية الظريفة التي يعقدها لهم في الليالي القمرية، حيث يعرض لهم فنونه البلدية من تحطيب إلى رقص الخيول مع أنغام المزمار البلدي المصري الخالد مما يكاد يأخذ بلُبِّهم. وهو مع ذلك عفيف النفس، لا يستغل ولا يتغالى وإنما يكتفي بأقل القليل. وبالمناسبة هل تعرف ثمن ليلة المبيت في كل هذا الجو الساحر من ضيافة شيخ العرب عبد الرسول؟ لن تصدقني إن أخبرتك أنها خمسة عشر قرشًا فقط! نهايته.

محمد النحاس

المقاولون العرب للسد العالي

إدارة الهندسة الميكانيكية، أُسْوَان

معجزة من الهند

وهي ليست معجزة الآلة الحاسبة البشرية، ولكنها معجزة أخرى قابلتها صدفة مع الصديق محمد عودة مقابلة لم أدهش لها؛ فالصديق عودة هوايته الكبرى جمع التُّحَف البشرية، والعبقري منها بصفة خاصة، عيناه البراقتان هائمتان أبدًا، وكأنما يبحث وراء كائن كامل مفقود، وقد تختلجان أحيانًا وتتوهجان كجهاز كشف الإشعاع إذا خُيِّل إليه أنه عثر على بغيته، غير أن التوهج نادرًا ما يدوم، وغالبًا ما تعود عيناه وراء هذا الكائن الكامل المفقود. آلاف الناس عرفهم عودة، ودائمًا كان ينفض يده منهم ويعود يبحث. وإلى الآن وأنت كلما صادفته وجدت معه تُحْفَة بشرية نادرة، كاتب يوغسلافي موهوب، موسيقي ياباني نابغ، لاعب أكروبات صيني، وهذه المرة صحَّ ما توقعته؛ فقد كان مع عودة رجل وسيدة، الرجل قصير القامة بلحية سوداء قصيرة، هو الرسام الهندي جوجرال، والسيدة هندية أيضًا، بل خلاصة مجسمة لقدرة أرض غاندي والعاج على خلق الجمال. وكالعادة توقعت أن يكون للاثنين — ما داما مع عودة — قصة لا بد فريدة في بابها. وفعلًا وجدت قصة هذا الرسام فريدة في بابها أيضًا؛ فهو قد وُلِدَ أصمَّ أبكم. وتصوَّر نفسك — لا قدَّر الله — وُلِدت هكذا. بعض الناس يستسلمون لحكم القدر ويتخذون من عجزهم هذا مهنةً وحرفة، والبعض الآخر يستجمع إرادته لقهر هذا العجز. وقد ظل الطفل الأصمُّ الأبكم يقاوم ويكافح عشرات السنين ليقهر عاهته، ولم يهدأ إلا بعد أن وجد الوسيلة للتعبير عن نفسه، وجدها في الرسم. وبهذه اللغة الجديدة لم يستطع أن ينقل ذاته إلى الناس فقط، ولكنه نقل إليهم أروع ما في تلك الذات وأثمن؛ نقل إليهم فنه. وجاءت أحداث الهند بمذابحها الدينية وثورتها على المستعمر الذي أجَّج هذه المذابح، وشهد جوجرال كل هذا وهو صامت ممنوع من الكلام. عاش مأساة الهند وأمجادها وهو يكظم غيظه وفخاره. وحين عثر على الوسيلة انفجر

البركان. وليست هذه هي كل معجزة جوجرال؛ فبعد أن رسم لم يكفَّ عن مقاومة عجزه وصمَّم أن يتكلم، ويا للإرادة الإنسانية الحقة حين تصمِّم!

يا لهذا الإنسان المتوقف عن الحركة حين تظل الإرادة تدفعه وتحرِّكه وتهيب به أن ينطق، فلا يستطيع في النهاية إلا أن ينطق! ويتكلم جوجرال لغته الأُردية، ولا يكفيه هذا، بل بقوة الإرادة أيضًا يعبر لسانه حاجز اللغة ويتعلم الإنجليزية ويتكلمها، ويعبر لسانه المحيط ويتعلم الإسبانية والمكسيكية وحتى بلهجاتها المحلية، ويتعلم اللغتين بالذات لكي يستطيع السفر إلى إسبانيا والمكسيك حيث يحيا أعظم أساتذة الرسم في عالمنا الحاضر. وفي المكسيك وحدها يعيش أربع سنوات يرسم ويشاهد ويتعلم، واليوم هو مارٌّ بالقاهرة في طريقه إلى كندا لإقامة معرض للوحاته هناك، وكل هذا وسِنُّه لم تتجاوز الثالثة والثلاثين.

ظللنا جالسين فترةً نتحدَّث خلال زوجته؛ إذ هي التي كانت تقوم بترجمة حديثنا إلى مصطلحات صوتية وكتابية تفهمها عيناه اللتان أخذتا مكان الأذنين، وكان هو لا يتكلم، حتى خِلْت أن الصديق عودة يبالغ في قوله إنه تعلَّم الكلام، ولكنه أخيرًا بدأ يتكلم كلامًا لو لم تكن تعرف أن صاحبه قد وُلِدَ أصم وأبكم لما استطعت أن تفرقه عن الكلام العادي. تكلمنا في الفن والسياسة والهند، وسألته عن رأيه في فنوننا التعبيرية، وكان قد زار معرض الفن الحديث، وقال لي إنه وجد في متحف الآثار الفرعونية أصالة وقوة في التعبير افتقدهما في فننا المعاصر الحديث.

الحقيقة كنت إلى تلك اللحظة أوقِّر الرجل باعتباره معجزةً من معجزات الإرادة البشرية؛ لأني لم أكن بعدُ قد رأيت لوحاته، وفي مسائل الفن هذه لا يستطيع الإنسان إلا أن يصدق نفسه، كم من كاتب قالوا عنه: إنه عملاق، ولا أُحِس بالتجاوب معه. والرسم بالذات، نادرًا ما تشاهد لوحة ترتفع بهذا الفن في نظرك إلى مصافِّ الفنون الأخرى.

وهكذا ظلت كلماتي للرجل لا تخرج عن حدود المجاملة المعتادة إلى أن أخذنا ليفرجنا على بعض لوحاته. كان في طريقه إلى المطار يستعد للسفر، ومع هذا أبى إلا أن يفكَّها ويُطلِعنا عليها. ولم أكن أتوقع أبدًا أن أرى ما رأيت! إن البعض يتخذ من عجزه حُجَّة للقصور، وهذا الرجل وجدته قد اتخذ من عجزه حُجَّة للتفوق. بعض العجزة والمرضى لولا مرضهم ما عزفوا أو رسموا؛ لأنهم يعزفون أو يرسمون عن مرض، بحيث لو قُدِّر لهم أن يُشفَوا لكفُّوا عن الإنتاج، وهذا الرجل لا يرسم عن صحةٍ فقط، ولكنه يرسم رغم الصحة والمرض معًا، ويرسم بإعجاز، ولا تملك وأنت ترى لوحاته إلا أن تقف حائرًا مذهولًا، كما وقف سومرست موم في رواية القمر وستة بنسات وهو يشاهد لوحات الرسام بطل

الرواية. لا تستطيع أن تأتي بحركة أو تُخْرِج زفيرًا، هذه المساحات من الألوان التي لا تراها وإنما تحس بها تصبغ نفسك من الداخل وتلوِّنها، هذه الخطوط التي تحس أنها لا تُحدِّد وإنما تفتح؛ تفتح لك آفاقًا أوسع من الصورة ومن الحاضر، آفاقًا تمتد إلى التاريخ والحوادث والأغاني والرقصات، لوحات لا تحس أن ريشة رسمتها أو استُعْمِلَ في رسمها ألوان وأصباغ؛ لوحات تحس أنها تكشف لك عن سرٍّ خالدٍ مَنيع؛ عن الهند. صحيح، كنت أرى الهند، روحها وحقيقتها، ومسيحها الذي شهد أحداثها، وكأنما هو غاندي يعبِّر عن روح الهند برسمه وتعبِّر به الهند عن روحها، كم اشتقت ساعتها إلى لوحةٍ من رسمنا أرى فيها بلادنا الحبيبة؛ ترابنا البُنِّيِّ الخصب؛ إنساننا المارد الطيب! كم أوحشتني قريتنا وأنا أرى القرية في اللوحة! كم هفَتْ نفسي إلى ألوان أرى فيها شمسنا؛ نورنا الكبير؛ سماءنا؛ خضرتنا أروع وأصفى خضرة! إن لوحاتنا معظمها مظلم مُطفأ بطريقةٍ يحسُّ معها المشاهد بالقشعريرة والكآبة، وألواننا معظمها من خامات الزنك والرصاص الأوروبية. أين هذا من لون جيرنا الأبيض، وحتى من لون الحُمرة الناتجة عن حرق طوبنا الأحمر! يا إخواننا الرسامين، ارسموا بقلوبكم؛ بأرضنا في قلوبكم؛ فمعظم ما أراه في المعارض أجده من صنع العقل والريشة وما أخذناه عن سيزان وجوجان ورامبرانت. واعذروني إذا كنت قد أحسست أن في لوحات الفنان الهندي جوجرال تعبيرًا، لا عن الهند وحدها، وإنما عنا أيضًا. وكأن خطوطه بعض خطوط «مختار» وأعمال النحَّات المصري القديم، وكأن كُتلَهُ منتزعة من صخرنا الجرانبتي في إدفو وأبي سنبل وأُسْوَان.

المعجزة الثانية

المعجزة الثانية كانت زوجة هذا الفنان؛ لا لأنها فنانة هي الأخرى وإن كان فنها يقتصر على عملِ تحفٍ فنية من الشال الهندي والساري بتلوينها بطريقة فنية معقَّدة حاولت — بلا جدوى — أن تشرحها لي، لا لهذا وإنما لمعجزتها الحقيقية في موهبتها النسائية؛ تلك الموهبة التي نادرًا ما تعثر عليها في امرأة.

موهبة أن تساعد وتدفع وتخلق إنسانًا. هذه السيدة رغم أنها أجمل من نجوم السينما الهنديات، إلا أنها آثرت أن تصحب فنانًا كجوجرال — في رحلته المضنية خلال الحياة — مصاحَبةً تُكلِّفها أن تُضحِّي بنفسها وشخصيتها عن رضًى وعن حب لتصبح لسانه الثالث وأذنه المنصتة وطريقته السريعة في التعبير عن نفسه. وتقوم بهذا الدور قانعة به عن

إيمان، مؤمنة به عن اقتناع. وإذا كان جوجرال قد وهب نفسه للفن فهي قد وهبت نفسها لتخلق من جوجرال فنانًا.

ولا بد أن هذا كان إحساسها بالضبط وهي ترقبنا، وجوجرال يُرينا لوحاته، وترانا مَرُوعين بها، وتفعل هذا ونشوة الفخر تملأ ملامحها، وكأنها الأم الفخورة بابنها، وكأنها الفنان الأكبر يرينا لوحةً أخلد؛ لوحة صنعت فيها فنانًا يرسم اللوحات.

الضوء الأحمر

الفن المقروء كالفن المسموع، لا بد له من عملية تحضيرٍ تهيئ فيها نفسك وتنفض عنك مشاغلك وتجلس لتتطهر بهذا الإكسير السحري؛ الفن. إني أومن أن الجانب الخيِّر من الناس لا بد أنه الجانب الفنان، وأننا بالاستماع إلى الفن ومشاهدته وقراءته نغلب الخير، ونغلب الإنسان في أنفسنا على اللاإنسان. والليلة قضيت جانبًا منها مع كتاب: مجموعة قصص كتبها عبد الوهاب داود. وعبد الوهاب داود فنان لا يستطيع أن ينتزعك من مشاغلك وهمومك ليجعلك تحيا معه. لا بد أن تهيئ أنت نفسك للاستماع إليه؛ لا بد قبل أن تقرأه أن تكون على استعداد كامل للإحساس به وفهمه كي تظفر بالمتعة الفنية من خلال قصصه؛ إذ هو يتحدث في صوت منخفض، كالراديو حين «توطيه»، وربما هو يفعل هذا؛ لأنه لا يحس أنه يكتب قصصًا بقدر ما يحس أنه يعترف، اعترافات تؤرِّقه، يعترف بها لنفسه أولًا، اعترافات رفيقة خافتة لا يمكن أن تسمعها إلا إذا أصخت سمعك.

تُرَى، هل أطمع من خلال الضجة الهائلة الحادثة في أوساطنا الأدبية أن يستمع الناس إلى هذا الفنان الصادق الخافت الصوت؟!

دعوة إلى الرقص، دعوة إلى المسرح

يُخيَّل إليَّ أن النجاح الذي أحرزته فرقة رضا للفنون الشعبية سببه أن فكرة الفرقة وبرنامجها، مثله مثل إسكتش الناي السحري الذي تؤديه، دعوة ممتعة للرقص، دعوة تقوم بها فريدة فهمي للسيدات، وتتقدم بها المجموعة للرجال. الحقيقة الغريبة أننا كنا الشعب الوحيد تقريبًا الذي يخجل من رقصه، ويُسميه تارة هز البطن وتارة أخرى ترتفع الأصوات مطالِبة بإلغائه، وكأنما فرحتنا بفرقة رضا هي فرحة اكتشافنا أن رقصنا ليس عيبًا أو خطيئة.

وعلى ذكر الخطيئة فمسرحية «خطيئة وإله» التي ألَّفها الفنان أحمد عثمان هي دعوة أخرى للكتابة للمسرح؛ إذ رغم إعجابي الشديد بفكرة المسرحية وطريقة أدائها إلا أنك تخرج من قراءتها وأنت أكثر إعجابًا بالمؤلف نفسه. هاكُم كاتبًا مسرحيًّا أصيل الموهبة لا ينقصه إلا بعثة لدراسة المسرح ومدارسه في الخارج ليعود يمتعنا بمسرحياته ورواياته. منذ بضعة أيام قرأت أن ثلاثمائة من طلبة المعاهد الزراعية المتوسطة والعليا قد أُرْسِلوا في بعثات لمدة عام للتدرب على الآلات الزراعية الحديثة في ألمانيا والمجر ورومانيا؛ هل كثير أن نُرسل ثلاثة فقط أو أربعة لدراسة الكتابة للمسرح ومشاهدة المسرحيات الحديثة؟ هل كثير أن نُرسل مثلهم للتدرب على كتابة السيناريو للسينما والإذاعة والتليفزيون؟ نشكو لطوب الأرض من انخفاض مستوى التأليف، ولا نريد أن نفهم أبدًا أن الفهلوة لا تخلق مؤلِّفًا، وأن توفيق الحكيم لو لم يدرس المسرح في باريس لما ظفرنا بكاتب مثله. كنت أتمنى لأستاذنا الدكتور طه حسين — بدلًا من أن يكتفي بوصم جيل الناشئين بالجهل والسطحية — أن يتهم الهيئات المسئولة بالتقصير في حق هؤلاء الناشئين. أكثر من هذا كنت أتمنى أن يطالب بحقهم في الدراسة والتحصيل، كنت أتمنى هذا على الرغم من علمي أن أستاذنا الدكتور عضو عامل نافذ الكلمة في أكثر من هيئة من هذه الهيئات.

القتيلات والأعصاب التالفة

ألفُ شيء وشيء تحتاج كلها للتعليق وكتابة المجلدات، من عربة الإسعاف التي رأيتها واقفة في شارع رئيسي تذيع أغاني الحب لتستوقف المارة وتبيع لهم «اليانصيب» لتأخذ الجمعية من ربحه ما يكفيها لإسعاف المواطنين، إلى محاكمة باورز، ومقالة الدكتور طه حسين «من بعيد»، ولكن السمة الرئيسية للأيام العشرة الماضية هي الانفجارات المتتالية في الأعصاب، انفجارات في حاجة لإسعاف سريع، حبذا لو أخذنا به.

- جرائم القتل الثلاث التي وقعت خلال الأيام الماضية — وقتل الناس أبطالها بحثًا وتعليقًا وتفسيرًا — لها في الحقيقة وجه آخر. في الماضي — وقبل أن تظهر وسائل النشر الواسعة النطاق — كانت الجريمة إذا وقعت تُعْرَف عن طريق الانتشار المباشر في المجتمع الصغير الذي تحدث فيه؛ المجتمع الذي يعرف الجاني والمجني عليه معرفة شخصية، ويشاهد مقدمات الجريمة والجريمة نفسها ونتائجها، ويظل يتتبع — بحكم قربه — آثارها لعشرات السنين. وأي جريمة تُثير إذا شوهدت عن قرب من التقزز والاستبشاع ما يكفي لإحداث مناعة ضد تكرارها؛ بمعنى أننا إذا تصوَّرنا ذلك المجتمع الصغير وكأنه كائن حي ضخم؛ فالجريمة حين تقع فيه بما يصاحبها من ألم ومعاناة وحُمَّى، تصنع في هذا الجسد نفس ما يصنعه المرض العارض، فتمده بالمناعة ضده. بالاختصار: كان وقوع جريمة في مجتمعٍ ما في الماضي يمنع وقوع جرائم أخرى وينهى عن الجريمة.
- وسائل النشر الحديثة — مثل الصحف والإذاعة ووكالات الأنباء والتليفزيون — كما أحدثت في حياة الناس انقلابًا ضخمًا، أحدثت في أثر الجريمة انقلابًا أضخم؛ فهذه الوسائل عملُها أن تنقل ما يحدث داخل كل مجتمع محدود إلى غيره من المجتمعات؛ فإذا

حدثت جريمة في مجتمعٍ ما تولَّت هذه الوسائل نقل خبرها إلى أناس لا يعرفون الجاني من المجني عليه، ولا عرفوا الظروف التي يحيا فيها كلاهما، ولا شاهدوا ما حدث، ولا أحسوا بالفجيعة والألم. وقد تكون قرية صغيرة تعاني من حزنٍ شامل لجريمة ارتُكِبَت فيها، بينما الناس في بقية البلاد والأمصار يتندَّرون على الجريمة ويتخذونها مادةً للضحك إذا تصادف وكان في أسبابها الظاهرة ما يُضْحِك. وعلى هذا أصبحت أخبار الجرائم مادةً للتسلية والاستمتاع. وقطعًا كان لا بد أن تصبح كذلك؛ فلا يمكن للقراء أو المستمعين أن يحسوا بها إحساسًا يدفعهم للتألُّم والعِبرة إلا إذا تولَّت الصحف والإذاعات نقلها إليهم نقلًا كاملًا بحذافيرها وتفصيلاتها، ورسمت صورةً حية لحياة أبطالها وماضيهم وحاضرهم وما تواضعوا عليه من قيم؛ وهذا طبعًا أمر مستحيل. والنتيجة هي مانشيتات وسطور محمومة سريعة تروي الجريمة وكأنما لتُثبت أن الإنسان قادر على ارتكاب الجريمة.

والنتيجة أن تترسَّب أخبار هذه الجرائم في عقول المرهفين وغير الناضجين تسهِّل عليهم الأمر، والتقليدُ خاصية من خواصِّ الإنسان، وقبل انتشار الشوال والهولا هوب لو كنا قد شاهدنا سيدة ترتديه أو ترقص به لظننَّاها قد فقدت عقلها، ولكن شيوع الشيء يسهِّل عملية المعارضة في ارتكابه ويشجع الإقدام عليه.

- الانقلاب الخطير الذي أحدثته هذه الوسائل في مجال الجريمة إذن أنها جعلت من الجريمة التي كانت وسيلة مناعة ومنع في الماضي — وفي المجتمعات المحدودة التي تقع فيها في الحاضر — جعلت منها وسيلة تقليد وإغراء وانتشار، أصبحت تمامًا مثل الناموس حامل الملاريا، والفئران حاملة الطاعون حين تنقل العدوى من مكان الإصابة إلى جهات نائية وإلى أناس أصحَّاء أبرياء.
- عشرة أيام ولا حديثَ للناس إلا عن الأزواج الذين يقتلون زوجاتهم من فرط الحب والغيرة والشذوذ. أليس هذا شيئًا معديًا؟ ألم تغطِّ أنباء هذه الحوادث المَرضية على آلاف الأمثلة الموفورة الصحة وعشرات آلاف الأزواج الذين سعِدوا مع زوجاتهم ومارسوا الحب وقدَّموا الهدايا؟ ألم تجعل كل زوجة تتناسى العلاقة القائمة التي تربطها بزوجها وتتصور أنه قد يقطع جسدها بالسكين أو يفرغ فيه الرصاص؟ ألم يُخيَّل لكلٍّ منهن حين عاد الزوج مكشِّرًا يومًا أنه خلاص قد استقرَّ على قتلها، وإذا تصادف وغضب أو زعق أنه خلاص شرع في التنفيذ؟

وكم من علاقة سليمة لوَّثها هذا الشك! وكم من أفكارٍ سوداء قتلت أفكارًا جميلة كانت حية وموجودة وزرعت سوء الظن في القلوب!

ألست على حقٍّ حين أقول: إن ما فعلته صحفنا أنها نشرت عدوى ما حدث في كل بيت وفي قلب كل رجل وامرأة، وأننا جميعًا أُصِبْنَا بإصابات متفاوتة، بعضها أدى إلى سعار البعض، وإلى جريمة المنصورة وشارع خيرت؟

لماذا لم نعد نمرح؟

في الاحتفالات لاحظت ظاهرة تسترعي الانتباه، كانت الشوارع والميادين مكتظَّة على آخرها برجال وسيدات وشبان وأطفال ازدحامًا لم أرَه في حياتي؛ ملايين الناس خرجوا من بيوتهم لا يفعلون شيئًا أكثر من مجرد السير والبحلقة في الأضواء.

من بعيد تحسب ازدحامهم ازدحام جماعات ضخمة، وتَعجَب حين تُدرك إذا اقتربت أنه ازدحام أفرادٍ ليس إلا.

في الواقع كان ما ينقصهم ليصبحوا جماعة، ولتذوب الغربة، هو أن يبدءوا في عمل شيء معًا، يبدءوا يغنون مثلًا أو يرقصون أو ينتظمهم مهرجانٌ صاخب ضاحك. كان لنا في الماضي القريب احتفالات جماعية كثيرة في الأعياد والموالد والأفراح وحتى في «طهور» الأولاد، قضى عليها الراديو حين ظهر، وما أعقب ظهوره من صدمة، ومن استسلام كامل للتسلية والمرح التي تأتي عن طريقه بدل مزاولتها وقيام الناس أنفسهم بها. وإذا كان الإنسان اجتماعيًّا بطبعه فالمرح جماعي بطبعه، والشعوب لا تزاوله عبثًا أو لأن عقلها فارغ؛ إذ المرح هو الوسيلة المُثلى لالتقاء الناس في جماعة، وإزالة ما بينهم من غربة وجفوة، وكسر ما حولهم من قلاع واستحكامات، وجعلهم يأنسون لبعضهم البعض ويحبون بعضهم البعض، فتذوب همومهم الفردية مهما ثقلت في وسط بحر الجماعة الصاخب الزاخر بالحياة. لكي نعيش لا بد أن نأكل ونتنفس ونتناسل، أما لكي نحب المعيشة والحياة ونتفاءل ونكسر حدة طبائعنا وغرائزنا فلا بد أن نمرح كلنا؛ العجوز في حاجة للمرح مثل الشاب وربما أكثر، والمرأة مثلها مثل الرجل، ولا يكفي أبدًا أن نستقبل المرح والموسيقى والطرب، ولكن لا بد لنا أن نزاوله نحن ونخلق نحن المرح ونغني، وربما أعصابنا المشدودة والوجوه الكثيرة التي نقابلها عابسة وكأنما هي في طريقها لارتكاب جريمة؛ ربما سببها أننا لا نمرح ونعتمد اعتمادًا كليًّا على أجهزة صماء لتُشيع في حياتنا حاجتنا الماسَّة إلى

المرح، ربما لو شاهد المحامي القاتل وشاهده زميلاه التاجر والعامل، لو شاهدوا آلاف الزوجات وهن يغنين مع آلاف الأزواج واشتركوا بزوجاتهم وحبيباتهم في الغناء؛ لعادوا إلى بيوتهم بأفكار مختلفة تمامًا عن تلك التي دفعتهم لقتل زوجاتهم.

الدعوة الأولى

الدعوة الأولى للمرح أحتفظ بها لأوجِّهها لزميل المشرط والقلم (المشرط بمعناه العلمي) الدكتور مصطفى محمود. لقد كتب مقالًا أخيرًا يقطر مرارة، خذوا منه هذه الفقرة التي يتحدث فيها عن الإنسان:

> إن النفاق يمزِّقه إرْبًا إرْبًا ويُلقي به بين براثن القلق ويجعل حياته مزيجًا من الغموض والكآبة والحيرة والسخرية، وبقدر ما يُلهمه القلق الشعر والموسيقى والتدُّين، بقدر ما يهوي به في مهاوي الرذيلة واليأس والجريمة. إنه يفر هاربًا من أزمته ليختبئ في عالم المخدرات، ويحرق أعصابه بالإغراق في اللذة الحسية، ويُخفي ضعفه بقناع مزيَّف، ويُخفي شكَّه بالتعصب والتطرف والجمود والادعاء، يخدع به نفسه ويخدع به الناس، ويتخذ من الشرف عذرًا يبرِّر به كل هذه الخطايا. إن الخط الأحمر الذي يقسم الناس إلى أخيار وأشرار خط خرافي.
>
> إنه اللوثة في الطين كله.

ما هذا يا درش؟! وعن أي إنسان تتحدث؟ وفي فقرة واحدة من كلامك أحصي عشرات من الألفاظ البغيضة، النفاق، التمزق، البراثن، القلق، الكآبة، الحيرة، مهاوي الرذيلة، اليأس، الجريمة، الفرار، الهرب، الأزمة، عالم المخدرات، حرق الأعصاب، اللذة الحسية، الضعف، الزيف.

عن أي متحف حافل بكل نفايات النفس البشرية تتحدث؟ وماذا تقصد بأن تصفع القارئ الإنسان بهذه الخزعبلات وكأنها حقائق؟! صفعات حتمًا تدفعه إلى قتل أول إنسان يصادفه قبل أن يقتله الإنسان الآخر.

إني أَلَمح يا صديقي بوادر الحموضة في تفكيرك؛ فقد أحسست بطعم البطيخ الحامض في فمي بعد قراءتي لمقالك، والحموضة شيء طبيعي لإنسان ينطوي على نفسه وهواجسه ووحدته، ويظل يعيد نفس الكلام طوال اثنى عشر عامًا وكأن رسالته في الحياة تلخَّصت

في دفع الناس لكره الحياة والأحياء. ولأني أعلم أنك تكاد تكون أكثر مواطنينا استمساكًا بحياتك وخوفًا على نفسك وتشبثًا بكل ثانية من عمرك، فلي الحق أن أعتبر أنك لا تؤمن حقيقةً بكلامك هذا، وأنك فقط تكتبه. أما الذي لا بد أن تعلمه فهو أن أناسًا يثقون في قلمك يقرءون هذا الكلام وتمتلئ حياتهم بالحموضة والمرارة نتيجته، بينما تُخْرِج لهم أنت لسانك آخر الليل وتستعد لمقالٍ آخر.

لماذا لا تأخذ إجازة يا صديقي تمرح فيها، وتتذوق طعم الحياة الحقيقي، وتقابل الناس كبشر؟ هؤلاء الذين أخذت معلوماتك عنهم من الكتب، وتحاول أن تتعلم منهم حقيقة بسيطة فاتك أن تُعلِّمها لهم، تتعلم منهم هذا السر الإنساني الكبير الذي يجعل الإنسان برغم احتمال احتوائه على كل ما ذكرت من دوافع وخلجات، فإنه دائمًا يسمو فوق هذه الدوافع والخلجات ويحقق انتصارات. لو كان الإنسان هو فقط ما ذكرت لذبح الناس بعضهم بعضًا من زمن بعيد؛ هم لا يزالون أحياء، وسيبقون أحياء منتصرين لاحتوائهم على حقائق أخرى؛ حقائق لا يمكن أن نستمدَّها من الكتب، ولن تحسَّها أبدًا إلا إذا مارستها فعلًا، وعشت بين الناس وأخذت حمام حياة دافئ يغسل عنك تصوراتك النظرية المحضة عن الإنسان.

لا بد من وضع حدٍّ لهذا

القراء قد «زهقوا» من الكلام العام العائم عن النقد وأزمته وعن ضرورته الحتمية … إلخ إلخ. إنهم — بلا شك — يريدون وقائع ثابتة محددة وأحداثًا نستطيع فيها أن نطبق العلم على العمل كما يقولون، ونكون واضحين ومفهومين وصرحاء، وهاكم واقعة ممتعة تصلح نموذجًا جميلًا لتوضيح كل ما نريد قوله.

على هذه الصفحة من الأسبوع الماضي نشرت كلمة نقد لواقعة شراء رئيس مجلس إدارة شركة القاهرة للأفلام لقصة الشارع الخلفي التي أنتجتها هوليود فيلمًا عُرِضَ في القاهرة منذ وقت غير بعيد؛ شراء القصة من منتِج سينمائي مصري في حين أن القصة موجودة بالسوق. وقد كان بالاستطاعة تعريبها دون شرائها من ناحية، ومن ناحية انتقدت هذا الاتجاه؛ اتجاه تعريب الأفلام الناجحة في هوليود باعتباره وسيلة من الوسائل التي كان يلجأ إليها القطاع العام لإنقاذ فننا السينمائي العربي من وسائل وانحرافات وأخطاء القطاع الخاص، وخلق اتجاه فني سينمائي جديد يكون صدًى لواقعنا الجديد وحياتنا الجديدة. كتبت هذه الكلمة ولم يكن في ذهني أو يعنيني أن يكون الشاري فلان أو البائع فلان أو رئيس مجلس الإدارة جمال الليثي أو غيره، وأنا لم أكتب لأنقد أشخاصًا أو تصرفات شخصية ولكني كتبت لأنقد هذا «الاتجاه»، فماذا حدث؟

توجَّه جمال الليثي «رئيس مجلس الإدارة» — الذي لا أعرفه ولم أرَه في حياتي إلا مرة أو مرتين، ولم تكن لي به أدنى صلة — إلى مسئول كبير غداة نشر النقد، وأخبره أنني «أهاجمه» هو وصلاح ذو الفقار «المنتج الذي باع القصة للشركة، وسيتولى إنتاجها مقابل ألفَي جنيه غير ثمن القصة والفكرة، وبشرط أن يقوم بالبطولة لقاء أجر آخر»، أخبر المسئول الكبير أنني أهاجمهما لأسباب شخصية محضة؛ فلقد رفض مرة إنتاج قصة

لي «كذا»، وأن هناك خلافًا بيني وبين صلاح ذو الفقار حول حوار فيلم قام بإنتاجه، وأنني قابلته من أسبوع وسألته عن الطريقة التي يمكن أن يأخذ بها مني قصة للسينما.

والله أعلم ماذا قال للمسئول الكبير أيضًا؛ إذ هذا الجزء من كلامه الذي تطوَّع بإشاعته في الأوساط السينمائية والصحفية. ولم يكتفِ سيادته بهذا بل أحضر إلى الجريدة ردًّا مكتوبًا قرأته فوجدت أنه بعد مقدمة يؤنبني فيها على أني اعتمدت في نقدي على خبرٍ نُشِر في مجلة صباح الخير، يعود ويعترف أن الخبر صحيح، وأنه فعلًا قد اشترى القصة على نحو ما ذكرته المجلة بالضبط؛ وذلك لأسباب فنية، منها أن الشارع الخلفي رواية عالمية خالدة ﻛ «هاملت» و«عطيل»، وليس هناك ما يمنع إطلاقًا أن ننتجها نحن كما فعلت روسيا بهاملت، وهوليود بروميو وجولييت، وختم رده بقوله:

«إنني لا أقبل التهديد ولا التشهير كأسلوب للتعامل أو شراء القصص والسيناريوهات بأموال الشعب حتى ولا من يوسف إدريس.»

بمعنى آخر سيادته يعود يؤكد للناس نفس ما قاله للمسئول الكبير على حِدَة، وهو أني لم أكتب ما كتبت إلا لأني أحقد عليه حقدًا شخصيًّا في رواية، وفي رواية أخرى لأني أريد أن أهدِّد سيادته ليشتري مني قصة للسينما.

واتهامات كهذه سواء قيلت عني أم عن غيري لم أعُد أغضب لها غضبًا شخصيًّا؛ ذلك لأن مَن وهبَ نفسه للكشف عن الحقائق الناصعة في حياتنا — وأيضًا كشْف ما فيها من خداع وزيف — لا بد أن يوطِّن نفسه على تحمُّل الأذى حين يوجَّه إليه أو إلى زملائه؛ إذ تلك هي ضريبة البحث عن الحق والحقيقة؛ غير أن بعض المشتغلين بالفنون انتابهم في الفترة الأخيرة «بارانويا» الكمال — مع أن الكمال لله تعالى وحده — بحيث لم يعُد أمام الصحافة أو مجلس الأمة أو غيرهما من المنابر إلا أن تسبِّح بحمد هؤلاء الكاملين، وتُشيد بما يفعلون وتتعاون معهم على إخفاء العيوب.

إن حياتنا وحياة أي شعب وفي كل عصر لا يمكن أن تخلو من العيوب، وإحدى وظائف النقد الأساسية أن يتولى الكشف عن هذه العيوب. ومفروض أن يكون الرد الاشتراكي على هذا النقد إما اعترافًا بالخطأ إن كان هناك خطأ ما، وتبيان الطريقة التي سيتلافى بها هذا الخطأ، وإما إلقاء أضواء على المشكلة، بحيث يتضح أن ما خُيِّل للكاتب أو الناقد أو أي مواطن أنه عيب ليس عيبًا بالمرة. هكذا تتم عملية النقد أو هكذا يجب أن تتم بافتراض حسن النية والموضوعية لدى الناقد والرد عليه بموضوعية قد تبلغ حد الاعتراف بالخطأ. ولكن الظاهرة الغريبة الطارئة على حياتنا هي أن شيئًا كهذا لم يعد يحدث، كل مسئول أصبح

ينظر إلى أي نقد على أن مبعثه شخصي محض، ولا بد أن وراء الأكَمَة ما وراءها؛ لأن مفهوم المسئول نفسه للمسئولية أصبح مفهومًا مختلًّا غير اشتراكي بالمرة؛ فكثيرون من صغار المسئولين أصبحوا يأخذون وظائفهم أو الأعمال المسندة إليهم وكأنها «لعبتهم» الخاصة، وكأنها إقطاعيتهم الخاصة التي باستطاعتهم أن يفعلوا بها كما يشاءون. ويعتبرون حينئذٍ أن أي نقد للمؤسسة أو للشركة إنما هو نقدٌ موجَّه لأشخاصهم هم. ولماذا نذهب بعيدًا؟ هذا السيد رئيس مجلس إدارة شركة القاهرة المذكورة، جمال الليثي هذا، يقول بالنص في رده: «إن الذي أُحبُّ أن أؤكده لك هو أن طريقتي في العمل كمنتج سينمائي يحب عمله ويقدِّره ويحرص على أن يكون هذا العمل متفوقًا — سواء كنت أعمل في القطاع الخاص أو العام — وأن تكون أفلامي (لاحظوا كلمة أفلامي) نظيفة مشرِّفة تفوز بثماني عشرة جائزة من جوائز الدولة التي تصل إلى ٣٤ كما حدث هذا العام؛ هو أنني لا أقبل التهديد ولا التشهير كأسلوبٍ للتعامل أو شراء القصص … إلخ إلخ.»

بمعنى أن الأمر ليس «شركة» أو مؤسسة أو هيئة وُجِدَت لتقوم بوظيفة معينة، ومن المحتمل أن تخطئ أو تنحرف، ومن الواجب قول الحق في خطئها أو انحرافها. لا، المسألة أنا، أنا جمال الليثي الحاصل على كذا جائزة، أنا الشركة، أنا المؤسسة، أنا الدولة! لا يا سيد جمال الليثي، لست أنت الشركة ولا المؤسسة ولا الدولة. وليس مهمًّا أسلوبك الخاص في التعامل، بحيث تمنح المجد والأموال لمن يتبع أسلوبك وتعاقب وتحرم وربما تسجن من لا يتبعه؛ أنت أو غيرك بأسلوبك وبجوائزك لست القطاع العام، وإنما أنت مجرد مواطن مجنَّد لخدمة هذا القطاع، فإذا أحسنت كان بها، وإن أسأت لا بد أن يُجنَّد غيرك. وليس بإمكانك أن تُغدِق على أحدٍ أو تَحرِم أحدًا؛ لأن المسألة ليست بمزاجك الخاص. إن الذي يُقرِّر أي شيء في دولتنا الاشتراكية هو المصلحة العليا للدولة كلها، وأنت تتصرف بعيون وآذان هذه المصلحة العليا وحدها.

المهم، كنت أقول: إن هذا الإحساس بالذات لدى بعض مَنْ في أيديهم المسئوليات قد ازداد إلى درجة مروِّعة تكاد تطمس معها الحقيقة الأساسية، وهي أن الوظيفة مسئولية وليست إقطاعية أو تكريمية، وأن أي نقد لأي وظيفة في الدولة مباح، وأحد واجبات الموظف أو المسئول أن يرد على أي نقد قد يوجَّه من أبسط مواطن، ولو نظر كل مسئول إلى مسئوليته هذه النظرة لاختفت الحساسية من النقد تمامًا، ولأصبحنا جميعًا مسئولين وسائلين وناقدين ومنقودين ليس لنا إلا هدف واحد هو معرفة وجه الحق والحقيقة لنفعله. ولكن النظرة عند كثير من المسئولين ليست هكذا أبدًا، اختلطت الذات بالوظيفة،

والمؤسسة بالشخص، والشخص بالغرور والرغبة في التألُّه؛ بحيث لم يعُد يريد أن يفتح أذنه إلا لسماع المدح وحده، أو يرى الأكُفَّ ترتفع إلا لتصفِّق له، أو يرى الألسنة تتحرك إلا لتشيد بكماله وكمال أعماله ومؤسسته وأسلوبه في التعامل.

ماذا يحدث إذن في مثل هذا الجو لو جرؤ كاتب أو ناقد أو مواطن وقال كلمة نقد مسَّت واحدًا من صغار المسئولين هؤلاء؟

منذ عهد قريب كان الرأي يأتي على هيئة بيانٍ مليء بالمغالطات أحيانًا، وأحيانًا يصاغ بطريقة ملساء لا تستطيع معها أن تجد الإجابة على نقد. أما المودات، هو أن حضراتهم ما داموا يأخذون المسئولية مأخذًا شخصيًّا ذاتيًّا بحتًا، والنقد الموجَّه إلى أعمالهم باعتباره نقدًا لأشخاصهم مباشرةً، فلا بد أن الدافع لهذا النقد هو دافع شخصي أيضًا، أجل لا بد أن كل نقد يوجَّه مبعثُه حقدٌ شخصي أو مطلب شخصي أو مصلحة يريد الناقد قضاءها.

وهذا هو الخطير في الموضوع؛ وهو ما يدفعني اليوم أن أخصص هذه المساحة كلها وأنا مستريح الضمير لهذا الوباء الخطير الذي ليس أخطر منه على حياتنا ووجودنا. إنهم يتصورون أنهم يدافعون عن أنفسهم وذواتهم، وخير وسيلة للدفاع في نظرهم هي الهجوم، وخير وسيلة وأبسط وسيلة للتخلص من أي نقد هو أن يقال: إن الهدف من ورائه شخصي وهاكم الوقائع، وليُفبرِكوا ما شاءوا من أدلة وبراهين.

وبالضبط هذا ما فعله السيد رئيس مجلس الإدارة المنقود، فهو من ناحية أسرع إلى المسئول الكبير يكذب عليه ويدَّعي أنني كتبت ما كتبت لحقدٍ شخصي، وبهذا يغمض عين المسئول الكبير عن الواقعة نفسها وخطئه فيها حتى لا يكون محل تحقيق أو سؤال، ومن ناحية أخرى أسرع بنشر رد يحضُّ به الرأي العام والقراء ضد ما قلت وما يمكن أن يقوله غيري بحجة معقولة من وجهة نظره الخاصة وتتفق تمامًا مع طريقة سيادته في التعامل؛ إذ هو يقول ما معناه: إن كل ما نشرته كان محاولة مني لتهديده كي يشتري مني قصة.

وهكذا بدلًا من أن يدور النقاش حول سلامة تصرُّفه هو، توضع علامة الاستفهام حول موقفي أنا، وإلى أن أنجح في إثبات براءتي (هذا إذا تمكنت من النجاح) يكون الموضوع قد طواه النسيان، ويكون سيادته قد خرج منه خروج الشعرة من العجين، بينما خرجت أنا مصابًا بالرشاش.

وكأنها معركة بين شخصه وشخصي.

وكأن لا شيء هناك اسمه الشعب ومصلحته العليا، ولا شيء اسمه الرقابة الشعبية، ولا شيء اسمه الحقيقة، ولا باطل هناك أو حق، وإنما هي معركة بدأتها أنا و«شتمت»

جمال الليثي فيها لأسباب شخصية، ورد هو على الشتيمة بأحسن منها، وكان الله يحب المحسنين.

وهي طريقة لم تُتَّبع في حالتي فقط؛ إنها المودَة السائدة هذه الأيام كما قلت؛ أي نقد في أية مجلة أو صحيفة إنْ هو إلا شتائم من المحرر فلان؛ لأنه يريد كذا، أو فعلها بتحريض من فلان الذي يقف وراءه علان وتلتان. النتيجة، لعبة جديدة من أحدث الألعاب يحاول بها صغار المسئولين أن يُخرسوا الأقلام التي تنقد، ويُسْكِتوا الألسنة من الحلوق؛ فلا أحد يريد أن يوجَّه إليه نقد، وكل مسئول يوجَّه إليه نقد يحتمي خلف الدولة، ويعتبر أنه نقدٌ موجَّه إلى القطاع العام أو سياسة الدولة واشتراكيتها.

فما هو الحل؟

إن الحل في رأي هؤلاء السادة هو تجريح أي نقد أو ناقد يتصدى لمناقشة أعمالهم قائلين: إنه نقد مُغرض. وباعتبار أننا جميعًا ضد النقد المُغرض، فإنَّا نسلِّم معهم بأن بعض النقد قد يكون مُغرضًا، حينئذٍ بذكاء يتركون الباب مفتوحًا قائلين: صحيح ليس كل النقد مُغرضًا؛ ولهذا نحن على استعداد لمناقشة أي نقد حقيقي بنَّاء صادر عن ضميرٍ مخلص ونفسٍ غير أمَّارة بالسوء.

يقولون هذا للتخلص ليس إلا؛ فأي نقد يواجَهون به هو دائمًا النقد المُغرض، أما البنَّاء فهو الذي لم يواجَهوا به بعدُ والذين هم على استعداد دائم لمناقشته لو وُجِدَ.

إنهم بهذا يريدون إدخال رءوسنا في متاهة التشكك في كُنْه النقد الصادر، ومحاولة بحثه وتمحيصه لمعرفة ما إذا كان مغرضًا أم لا، وهي مهمة صعبة تكاد تكون مستحيلة التحقيق.

إن كل مسئول فينا مطالَب بأن يواجه النقد حتى لو كان مغرضًا. إن توجيه النقد حقٌّ اجتماعي اشتراكي وثوري نُزاوله كلنا، مغرضين وغير مغرضين، ملائكة أو شياطين، ومواجهة النقد وتفنيده أو التسليم به واجبٌ لا بد أن يقوم به المسئول تجاه أي نقد ومهما كان مصدره. لنكفَّ إذن عن مودَة النقد المُغرض والنقض لقضاء المصالح، لنكفَّ عن محاولة تشويه الناس لأنهم يجرءون على نقدنا. إن الأخلاق الاشتراكية غير هذا بالمرة؛ إنها تجعل المسئول في موقف ما يرحب دائمًا بالنقد، ويشجع المواطنين على مزاولته.

فكل مسئول لا يحكم هذا الشعب وهدفه التحكم فيه وتكميم أفواهه، إنما الهدف أن نساعد هذا الشعب ونأخذ بيده ونربِّيه ونتعلم منه ومن نقده أن نتعاون، وليس أن نتعارك ونمسك لبعضنا السكاكين ونتهم الآخرين جزافًا وننال من ذِمَمهم لأنهم تجرَّءوا ووجَّهوا بعض النقد لتصرُّف صغير قمنا به. إن السيد جمال الليثي الذي يفخر بأسلوبه في التعامل و«نظافة» الأفلام التي ينتجها لم يتردد في استعمال أقذر الأسلحة للرد على النقد الموجَّه إليه. وبدلًا من أن يذهب للمسئول الكبير، ويقدِّم كشف حساب عن الواقعة التي ذكرتها المجلة والتي علقتُ عليها، ذهب إليه لكي يشوِّه سمعتي ويتهمني في ذمَّتي لأصبح أنا وضميري المشكلة وليس ما قام هو به وأخطأ فيه. هذا السيد الذي هو على استعداد لاتهام غيره بخراب الذمة وانعدام الضمير ليغطي خطأ ارتكبه بحسن نية أو عن عمد؛ إنه يُعْتَبَر — في رأيي — إنسانًا غير أمين؛ لأنه إذا كانت الجرأة قد وصلت به حد ألا يتردد في اتهام كاتب مثلي بفساد الضمير ليغطي موقفه أمام المسئولين والرأي العام، يجرح إنسانًا معروفًا ذا تاريخ وتصرفاته معروفة؛ إنسانًا أتحدى أن يُثبت أحد أنه كتب كلمة واحدة بتأثير مصلحته الخاصة؛ إنسانًا يعتبر — مثل غيره من كُتَّاب بلادنا — الكتابة أمانة وشرفًا. تُراه ماذا يفعل أمام أي نقد يوجَّه إليه من مواطن غير معروف ومن الممكن الشك في سلامة موقفه لجهلنا به. إن السينما هي التي تطلب قصصي دائمًا، وخطاب الشركة العامة للإنتاج السينمائي الذي تطلب فيه كتبي لتُنتج منها ما يصلح أفلامًا لا يزال بغير رد، وليس في نيتي أن أردَّ عليه، بل ولا زلت غير مؤمن بالطريقة التي تُنْتَج بها أعمالنا الأدبية.

وبعدُ؛

إن محاولة تلطيخ كاتب بالوحل إنما هو محاولة للاعتداء على قيمة كبرى أصيلة من قيم شعبنا نفسه الذي بحماسه وحبه ومن ضميره صنع هؤلاء الكُتَّاب وأحلَّهم مكانتهم من حياته، أم قانون حياتنا وقيمنا قد هانت إلى هذا الحد؟

إنها ظاهرة مؤسفة وخطيرة. وإذا كان ميثاقنا الوطني قد نص على أهمية وضرورة النقد والنقد الذاتي كمقوِّم أساسي من مقومات حياتنا، فلا بد لهذا الميثاق والكلمات الواردة فيه من حماية، ولا بد أن يكون لحياتنا وقيمنا حراسٌ عليها يعيدون الأمور إلى وضعها الطبيعي، ويحتفظون لهذا الشعب بمقدساته وحرماته سليمة غير مخدوشة، بعيدة عن عبث الصغار والذاتيين والكذابين والمدلِّسين.

رد من وزارة الثقافة

بسم الله الرحمن الرحيم

أخي الفاضل الدكتور يوسف إدريس

تحية طيبة، وبعد؛

قرأت مقالكم الذي نُشِرَ بالجمهورية الغرَّاء في عددها الصادر بتاريخ ١٧ / ٩ / ١٩٦٤ وتحدثتم فيه عن الذين يبنون حياتنا الفكرية والفنية، وكيف أنهم يأخذون أقل الأوضاع، وأن هذه الفئة القليلة لا تحظى بتكريم أحد، وأن مجتمعنا أوشك أن يُهملها إهمالًا تامًّا.

ولقد يكون في الوسع إذا نظرنا إلى قولكم عبر الأمل ومن خلال ما تعمل له الدولة باستمرار من مزيد التكريم والرعاية لهؤلاء الذين يعملون بإخلاصٍ لتزكية الفكر وإثرائه، خدمةً للثقافة وتوسيعًا لقاعدتها وتعميقًا لها؛ قد يكون في الوسع أن نقول: إن الدولة — مع ما حققته من تكريم ورعاية للفنانين والأدباء — لا تعتبر ما قدمت غاية المنتهى.

ولكننا مع ذلك لا يمكننا أن نقوِّم ما لقيه الذين يبنون حياتنا الفكرية والفنية دون الالتفات إلى الماضي القريب؛ فقد يفيد في إدراك ما تحقق للأدباء والفنانين من تكريم وتقدير ورعاية لا يمكن جحدها من ناحية، ومن ناحية أخرى لا تعتبرها الدولة منةً أو تفضلًا بقدر ما تعتبر هذا التقدير والتكريم انطلاقًا من إيمانها بقدرة الأدباء والفنانين على المساهمة الإيجابية الخلَّاقة في صنع الإنسان العربي، صانع الحضارة العربية والإنسانية.

فلا يخفى عليكم — مثلًا — أن جوائز الدولة قبل الثورة للعلوم والآداب والعلوم الاجتماعية لم تكن تتعدى ثلاث جوائز قيمتها مجتمعة تزيد قليلًا عن قيمة جائزة تقديرية واحدة من الجوائز الأربع، وهي «جوائز الدولة للإنتاج الفكري» والتي قيمة كلٍّ منها ٢٥٠٠ جنيه تُمْنَح للممتازين في الإنتاج الفكري تكريمًا لهم وتقديرًا لجهودهم في العلوم والعلوم الاجتماعية والآداب، فضلًا عن «الفنون» التي لم يكن لها نصيب من قبلُ.

كذلك تقدم الدولة ثماني وعشرين جائزة تحمل اسم «جوائز الدولة لتشجيع العلوم والفنون والآداب والعلوم الاجتماعية»، قيمة كلٍّ منها ٥٠٠ جنيه عن أحسن إنتاج في العلوم والعلوم الاجتماعية والعلوم القانونية والاقتصادية والآداب والفنون الجميلة.

ولقد كان قصور الوسيلة في الماضي عائقًا بين المعطي والمتلقي، وعقبة بين الأدباء والمواهب الفكرية والأدبية والفنية وبين جمهور كبير من أبناء الشعب، ولكن الثورة الثقافية في وسائل الثقافة، والتي تفضلتم بالإشارة إليها في قولكم: إن عدد الكتب والمسرحيات والمؤلفات والفرق التمثيلية ومنابر النشر قد تضاعف عشرات المرات، هذه الثورة قد أوجدت مجالًا منفسحًا ومُيسَّرًا للأديب وللفنان من جهة، وللشعب من جهة أخرى، وخلقت سوقًا أدبية كبيرة تساعد الأديب على الإنتاج، ولا يضطر معها إلى اختيار أيسر الطرق لتحقيق النفع المادي على حساب الجودة والإتقان.

كذلك فإن البدء في تنفيذ مشروع المكتبة العربية التي يشترك في إصدارها خمسمائة من كبار رواد الفكر والأدب في البلاد وإشراف الدولة على إخراج سلاسل الكتب القومية والثقافية والعالمية والمجلات الأدبية وغيرها، فضلًا عن مشروع المكتبة العالمية الذي يترجم كل الثقافات العالمية إلى الثقافة العربية، كل ذلك — حين يُعتبر— إضافة رائدة إلى رعاية الدولة للثقافة وصانعيها والمسهمين فيها، كما أدى إلى خلق جيل جديد من المؤلفين والأدباء والمترجمين.

وإيمانًا من الدولة بأن هناك من الطاقات الفكرية والفنية ما قد تُشتِّته زحمة الارتباطات والالتزامات العلمية أو المعيشية؛ فقد توسعت في نظام مِنَح التفرغ للأدباء والفنانين وتضاعف عددها هذا العام بالنسبة للعام السابق، ولا أحسب أنه يغيب عن بالِكم ما تنطوي عليه جوائز السينما من تكريم وتشجيع للإنتاج القَيِّم حين ينال التقدير كل جانب من جوانب هذه الصناعة، بما فيها ١٤ جائزة للقصة والحوار والسيناريو والنقد إلى جانب الإنتاج والتصوير والتمثيل والإخراج ... إلخ.

كما لقيَ الفنانون التشكيليون جانبًا من تكريم الثورة الفنية بالمعارض والمِنح، وبلغت جملة المقتنيات من إنتاج الفنانين ٢٥٤ قطعة من الصور والتماثيل، واستفاد من ذلك ١٢٥ فنانًا.

وكان من تقدير الدولة وتكريمها للأدباء والفنانين صدور القانون الذي يقضي بإعفاء ٢٥٪ من إيراداتهم من الضرائب.

وكان من تقدير الدولة وتكريمها للأدباء والفنانين تلك الخطوة الكبيرة حين صدر القانون رقم ١٢٦ لسنة ١٩٦٤ بشأن إنشاء صندوق التأمينات والإعانات

للفنانين والأدباء، وقرار السيد نائب رئيس الوزراء للثقافة والإرشاد القومي بلائحة هذا الصندوق التي تنص على التأمين الصحي لهم وتأمينهم ضد البطالة وفي حالات الوفاة والعجز الكلي والجزئي، وترتيب معاش تقاعد للفنانين والأدباء على تفصيل لا يعسر عليكم الرجوع إليه، وإن كانت هناك صور كثيرة تشهد بأن الدولة لم تبخل عنهم بالرعاية حتى قبل صدور هذا القانون.

إننا نعتز كثيرًا بأنه لا يوجد فنان متعجل في بلادنا، فأجهزة وزارة الثقافة والإرشاد القومي تعطي الفرصة في مجالات الانطلاق والنبوغ، كما نعتز كثيرًا بأن كل مؤلف أو أديب يجد دور النشر الحكومية وأجهزة وزارة الثقافة جميعًا تحشد إمكانياتها مهيأةً لنشر مؤلفاته وأعماله على الجمهور وعلى أوسع نطاق.

إن الدولة التي تعمل بإيمان وعزم من أجل التنمية الاقتصادية، لا تقلُّ إيمانًا وعزمًا في عملها من أجل التنمية الثقافية وتكريم صناعها. وإذا كانت «الفرصة» في الماضي تستنفد أكثر طاقة الأدب والفنان ليبلغها وسط القلق، فإن الفرص العديدة المتاحة اليوم من الأمن ورعاية الدولة وتشجيعها، كل أولئك يستوجب أن تكرَّس الطاقات للإسهام البَنَّاء بالفكر والفن في رُقيِّ المجتمع وتحقيق الثقافة للشعب.

ختامًا، لي كبير الأمل أن تتفضلوا بنشر هذا التعقيب، شاكرًا لكم سلفًا.

مع أطيب التمنيات.

أحمد فراج

مدير العلاقات العامة

بوزارة الثقافة والإرشاد القومي

خطاب من فتاة صهيونية

في الأسبوع الماضي تلقيت خطابًا من «نورا زونشتين»، وكان خطابًا مضحكًا؛ فالمظروف كان مكتوبًا عليه اسمي وكلمة القاهرة فقط، ولا أعرف بأي ذكاء خارق استطاعت إدارة البريد أن تعرف عنواني وتوصله؟ ولكن ما أعلمه هو أني فوجئت حقيقةً بالخطاب، وفوجئت أكثر بمحتوياته؛ إذ لم يكن فيه كلام كثير؛ خلاصة ما فيه أن «نورا زونشتين» هذه تقول: يبدو أنني قد أصبحت من رأيك وأنك كنت على حق.

والخطاب أوقعني في حيرة شديدة: فقطعًا صاحبته تعرفني ولكن أين ومتى وكيف عرفتها أو عرفتني؟ فتلك هي المشكلة. وأخيرًا جدًّا استطعت أن أتذكَّر؛ فلا بد أن نورا هذه هي الفتاة الصهيونية التي قابلتها في العام الماضي وأنا في طريقي إلى بروكسل. وطبعًا لم أكن أعرف حين قابلتها أنها صهيونية أو خطر لي شيء من هذا القبيل. كل ما حدث أن الطائرة كانت تستعد للإقلاع من مطار أثينا بعد ثلاثة أرباع الساعة التي قضيناها في المطار، وقبل أن تتحرك الطائرة بقليل فوجئنا نحن الركاب بفتاة تدخل من الباب متأخرة، تدخل في ضجيجٍ وحقيبةٌ في يدها، وحقيبة تحت إبطها، وحقيبة بين هذه وتلك، وابتسامات لا عدد لها توزعها على المضيفة، حين رمقت الأحمال الكثيرة من الحقائب باشمئناط؛ إذ المفروض ألَّا يحمل الراكب معه إلا حقيبة يد خفيفة واحدة. ابتسامات توزعها على المضيفة والمضيف الرجل وعلى الركاب جميعًا وبنوع خاص على أي راكب يحدث أن تدوس على أقدامه وهي مارَّة مُهروِلة بموكبها الصاخب في طريقها إلى مؤخرة الطائرة حيث المقاعد الخالية.

ولا أعرف لماذا اختارت أن تجلس بجواري أنا بالذات. وحين كانت تضع حقائبها الكثيرة فوق الرف سقطت منها حقيبة ثقيلة على ساقي، آلَمَني سقوطها حقيقة، وبين عشرات اعتذاراتها وابتساماتها عاونتها في إعادة الحقيبة إلى الرف، وقبِلَت المعونة شاكرة

مبتسمة؛ ابتسامات أكثر من اللازم. كانت قصيرة القامة عصبية كثيرة الحركة حمراء اللون، وكأن وجهها قد قُشر عنه جِلده، وشعرها كان خشنًا أصفر أبيض، حتى رموشها كانت صفراء بيضاء، ولا أعرف لماذا لم يعجبني شعرها الأصفر فوق بشرتها الحمراء المسلوخة هذه. وكانت غلطةً، ما في ذلك شك، إني ساعدتها في وضع حقائبها؛ إذ ما كدنا نعود إلى أماكننا وتذهب الضجة التي أَحدَثها قدومها ويعود الهدوء، حتى ابتسمت لي قائلة: هل يمكنني أن أجلس بجوار النافذة؟

طلب غريب من إنسانة غريبة، فلم يتعود الناس في الطائرات أن يطلبوا من جيرانهم أن يتنازلوا لهم عن مقاعدهم المفضلة بجوار النوافذ بسهولة، حتى لو كان التنازل لسيدات أو آنسات. ويبدو أنها أحسَّت مني ترددًا، فقالت: سامحني ولكن دُوَار الطائرة يصيبني إذا لم أجلس بجوار النافذة. ومع أني كنت أعرف أن الدوار يصيب الجالسين قرب النوافذ أكثر، إلا أن طلبها هذا وبطريقة مباشرة أخجلني، فقبلت وتبادلت معها مكانها. والحقيقة أنَّ أمر الفتاة كان قد بدأ يحيرني؛ فقد كانت تخاطبني بالإنجليزية وباللكنة الأمريكية المعهودة، وكان واضحًا أنها أمريكية، ولكن إحدى حقائبها كان يبدو أنها هدية من شركة طيران، وكان اسم الشركة مكتوبًا على أحد جوانب الحقيبة بحروف غريبة لم تكن لاتينية أو صينية أو حتى أردية أو أرمنية. وحين عاونتها في وضع الحقيبة في مكانها أتيح لي أن أرى الناحية الأخرى. وإذا بي أجد مكتوبًا عليها بحروف لاتينية: «إيلال»، وحاولت أن أجد للكلمة معنى أو أحدد لها جنسية فلم أستطع.

ولكن ربما من اسم الشركة، ربما من شكل الفتاة التي كانت ملامحها تكاد تنطق وتقول: إنها يهودية، وربما من أشياء أخرى بدأت أشك أن الفتاة قد تكون أمريكية صحيح ولكن لا بد أن تكون لها علاقة بإسرائيل. ولعل هذا الشك هو الذي دفعني لأن أتنازل لها عن مقعدي المفضَّل؛ فعلى الأقل هذه الخطوة مني ستفتح باب الحديث؛ وإذا تحدثنا فقد أستطيع أن أعرف منها كُنْه تلك العلاقة. أما باب الحديث فقد فُتِحَ فعلًا، حين ارتفعت الطائرة واستقامت وفككنا الأحزمة وأبيح لنا التدخين؛ قدمت لها سيجارة، وقبل أن أحاول إشعالها لها كانت قد فتحت حقيبة يد مكتظة بعشرات الأشياء وأخرجت منها علبة ثقاب غريبة وأشعلت السيجارة بنفسها، ونفثت دخانها برَوِيَّة من فمها وأنفها كما يفعل كبار المدخنين، وحركت رموشها البيضاء قبل أن تسألني: إيطالي؟

وطبعًا لم أكن إيطاليًّا، ولكني لم أشأ أن أجيبها إجابة محددة؛ إذ كنت في شغف لأن أعرف عنها أشياء كثيرة؛ أهمها علاقة فتاة مثلها بإسرائيل؛ وعلى هذا تجاهلت سؤالها

وبدأت أنا أسألها. قالت: إنها أمريكية فعلًا، وإنها طالبة في السنوات النهائية لإحدى كليات الطب في ولاية ماسوشيتش، وإن أباها أستاذ جراحة الأعصاب في تلك الكلية، وإنها عائدة إلى أمريكا بعد رحلة صيفية قضتها في الشرق.

قالت: في الشرق، وسكتت؛ إذ في ذلك الوقت كانت المضيفة قد عادت بكروت البوستال التي طلبتها، وكانت هي قد انهمكت في كتابة العناوين عليها.

وكدت أُعيد النظر في رأيي في الفتاة وأكاد أُعجب بها، فتاة لم تتجاوز العشرين تدرس الطب وتسافر في الإجازات وتجوب العالم وحدها مستكشفةً دارسة؛ ليس هذا فقط بل تتصرف أثناء سفرها وغربتها بطريقة أكثر جرأة وتحرُّرًا من الرجال الكبار، وتحمل أضعاف ما يحملون من متاع، وتستفيد بكل ما تقع عليه عيناها أو يداها، حتى حبوب النعناع التي تُوَزَّع قبل قيام الطائرة تأخذ منها أكثر من واحدة وتحتفظ بها؛ وتحاول دائمًا أن تحظى بأحسن الأوضاع والفرص «فتستكرد» شابًّا مثلي وتجلس مكانه وتأخذ سجائره أيضًا؛ ثم بكل جراءة تطلب من المضيفة كروت بوستال وتكتب العناوين على عشرة منها؛ ثم بكل جرأة أيضًا تناولها المضيفة طالبة منها أن تلقيها في صندوق الخطابات الخاص بالطائرة لتُرسَل على حساب شركة الطيران، والمضيفة تقول: إن الراكب الواحد غير مسموح له إلا بثلاث بطاقات فقط فتدَّعي أنها سَهَت، ثم ترجو وتُلِحُّ وترضى المضيفة.

ولأول مرة أعرف أنا الرجل أن من الممكن إرسال كروت بوستال على حساب شركة الطيران، وأول مرة أعرف أن في الطائرات صناديق خطابات.

أقول: كدت أُعْجَب بالفتاة لولا أنني سألتها بعدما انتهت: ما معنى كلمة إيلال المكتوبة على حقيبتك؟

قالت باندهاش: ألا تعرفها؟ إنها شركة الطيران الإسرائيلية.

قلت: هل كنتِ في إسرائيل؟

قالت بكل بساطة: كنت أعمل هناك في الإجازة.

– تعملين؟

– أجل متطوعة في أحد مستشفيات حيفا.

وتملَّكني في الحال عاملان؛ العامل الأول هو إحساسي الغريزي بوجوب الامتناع عن محادثتها والمبادرة بالانتقال من جوارها، والعامل الثاني كان أن أتصرف بطريقة أكثر نضجًا، وأحاول أن أعرف منها كل ما يمكنني معرفته على الأقل طبقًا للحكمة القائلة: اعرف عدوك.

والشيء الذي كنت أريد أن أعرفه هو: ماذا يدفع فتاة أمريكية مثل تلك حتى لو كانت يهودية إلى أن تتحمس لإسرائيل لدرجة أن تذهب في الإجازة قاطعةً آلاف الأميال لتعمل متطوعة في مستشفياتها؟ وحماس ترومان أو أيزنهاور أو تشرشل لإسرائيل حماس من الممكن أن نعرف أسبابه؛ أما أن تتحمس فتاة عادية، أما أن يتحمس أناس عاديون لإسرائيل؛ فالأمر لا بد وراءه دعوة ضخمة منظمة؛ فأنا أعلم أن الإنسان لا يمكن أن يتحمس لشيء إلا حين يؤمن إيمانًا كاملًا مطلقًا بأنه حق وصدق. فما هي النظرية أو الشعار الذي استطاعت الصهيونية والاستعمار العالمي أن يُقنِعا به أناسًا عاديين — كهذه الفتاة — أن يهبُّوا لمساعدة إسرائيل؟ ذلك كان هدفي من مواصلة الحديث مع الفتاة.

وكانت الطريقة الطبيعية لكي أعرف هذا أن أستفزَّها، قلت: ولماذا تعملين متطوعة في أحد المستشفيات الإسرائيلية؟

– لكي أساعدها.

– ولماذا تحتاج دولة كإسرائيل لمساعدة فتاة مثلك؟

هنا اندفعت الفتاة تحدِّثني وكأنها تريد أن تقنعني. وبدأت أَلمَح من حديثها معالم العقيدة الجديدة التي تبشِّر بها الصهيونية العالمية وتحاول تجنيد أكبر عدد ممكن من الناس في الشرق والغرب للإيمان بها. اندفعت الفتاة تقول: إن قضية إسرائيل هي قضية الحق والعدالة والحرية في هذا العصر، وإن العرب يريدون ذبح سكان إسرائيل المساكين المُسالمين الوادعين الذين كل جريمتهم أنهم أقاموا دولة لهم في محيط يعجُّ بالعرب من جميع الجهات. وإن العداء تقليدي بين بني إسرائيل والمصريين؛ فرعون أَسَرَهم وجعلهم يبنون أهراماته وتماثيله وقتَلهم، ضحَّى بهم؛ عرفت بعد ذلك أن هناك كتبًا صهيونية أُلِّفَت لتُثبِت هذا.

وكظمت غيظي وأنا أستمع، ولكني كنت أريد أن أعرف منها كل ما تريد الصهيونية أن تملأ به عقول السُّذَّج البُسَطاء. كظمت غيظي ومضيت أستمع. وقالت الفتاة إنها زارت معظم البلاد العربية ورأت الاستعدادات الهستيرية لذبح اليهود. وكردٍّ على اعتراضي كيف سُمِحَ لها بدخول البلاد العربية وفي جواز سفرها تأشيرة إسرائيل؛ ابتسمت بخبث وقالت: إن إسرائيل لا تعطي تأشيرة الدخول إليها في الباسبور، بل تعطيها لمن يشاء على ورقة منفصلة حتى يمكنه دخول البلاد العربية ورؤية أعداء إسرائيل عن قرب. ومن كلامها المنصبِّ في حماسٍ وحقدٍ غريبَين بدأت المسألة تتجسد أمامي. الصهيونية كانت مجرد فكرة قليلة الأنصار بين جماهير اليهود في العالم، وكان هدفها حين أتت ألَّا تجند لأهدافها

كل يهود العالم فقط، ولكن أن تجعل من قضيتهم قضية بالغة العدالة، جديرة بأن يعطف عليها ملايين الناس من غير اليهود؛ وعلى هذا فهي بالنسبة إلى اليهود تحاول أن تربط بين أطماعها وبين اليهودية كدِينٍ له تاريخ وكأفراد. تحاول أن تُراجع الدِّين اليهودي وتُعيد صياغته من وجهة نظرها الخبيثة، وتحاول أن تُظهر موسى نبي الله وكأنه حين خاصم فرعوه وعاداه وخرج من مصر ووجهته فلسطين كان الداعي الأول من دعاة الصهيونية. باختصار: تحاول أن تُقنِع كلَّ يهودي أن الصهيونية هي اليهودية، في أتم صورِها هي اليهودية الحقيقية ذات الجذور التاريخية التي بدأت حتى قبل أن يُبْعَثَ موسى نبيًّا، وبهذا لا يبقى أمام اليهودي الذي يريد لدينه البقاء إلا أن يصبح صهيونيًّا أو على الأقل يؤيد الصهيونية بكل قواه. أما بالنسبة لغير اليهودي فالصهيونية تقترب من الموضوع بطريقة أخرى، إنها تحاول أن تستغل العطف البشري على أي مضطهد، فتصوِّر سكان إسرائيل على أنهم قوم مظلومون مضطهَدون محاطون من كل الجهات بالعرب الوحوش؛ تحاول أن تُجنِّد النزعة الإنسانية في كل إنسان شريف لكي تستغلها لمناصرة إسرائيل وحماية إسرائيل وتقوية إسرائيل. تلك هي خطة الصهيونية الاستعمارية، تطالب أولًا بإنشاء وطنٍ قومي لليهود، وتسلك في سبيل هذا الغرض كل ما تستطيعه من وسائل حتى إذا تمَّ يصبح الشعار هو تقوية تلك الدولة لكي تستطيع الدفاع عن نفسها، وتحت هذا الشعار البرَّاق تقوى إسرائيل لا لكي تدافع عن نفسها ولكن لكي تصبح إصبع الاستعمار المرابط في البلاد العربية الذي كل عمله هو لعب دور البلطجي بالنسبة لأي قُطْرٍ عربي يفكر في معاداة الاستعمار العالمي أو الوقوف في وجه طغيانه.

ويبدو أن الدعايات الصهيونية الخبيثة قد أثمرت — إلى حدٍّ ما — على الأقل إلى حد أن فتاة كهذه تردِّد كلامًا كهذا لغريبٍ مثلي بالكاد لا تعرفه.

وقلت لها: وما رأيك في اللاجئين العرب، أولئك الذين اغتصبت إسرائيل ديارهم وأرضهم ورفعت رايتها فوق بيوتهم وقالت: هنا إسرائيل؟ هل جاء في التوراة هذا أيضًا؟

قالت: إسرائيل لم يكن لها خِيار في هذا، كان لا بد أن تقوم إسرائيل.

قلت: وبعد أن قامت ماذا يكون الحل؟

قالت: لماذا لا تتقاسم البلاد العربية التي تدَّعي الحماس للاجئين وقضيتهم، لماذا لا تتقاسمهم البلاد العربية وتحلُّ مشكلتهم؟

قلت: أصحاب الأرض يشتَّتون وتتقاسمهم البلاد العربية، والذين كانوا مشتَّتين في البلاد يغتصبون الأرض ويقيمون عليها دولة! ما رأيك في هذا؟

قالت: ما رأيك أنت؟ ماذا يكون الحل؟

قلت: الحل الوحيد أن تعود الأرض إلى أصحابها.

قالت بعصبية: معنى هذا أن تتقوَّض إسرائيل.

قلت: ولكن هذه أرضهم، وهم أصحابها، والحق يقضي أن يعودوا إليها.

قالت: وإذا رفضت إسرائيل هذا؟

قلت: لا بد أن تقبله.

قالت: بالقوة؟

قلت: وبالنار والحديد أيضًا.

قالت: آه، فهمت، أنت عربي، أنت عربي، اسمك أيضًا عربي.

قلت: أجل، أنا عربي من القاهرة، ولكني لا أدعو إلا إلى الحق.

قالت: أنت لا تدعو إلا لذبح الإسرائيليين.

قلت: إننا لا ندعو لذبح أحد. إننا فقط ندعو لعودة الحق المغتصَب.

قالت: ولكنها أرض إسرائيل!

قلت: منذ الأزل وهذه الأرض أرض العرب، ألأن إسرائيل اغتصبتها لبضع سنوات تصبح حقها؟

ولم أجد فائدة في مناقشتها؛ فأنا لم أحادثها لأناقشها، ثم إنها قد أفرغت كل ما عندها ولم يعد فيما تقوله شيء جديد، ولكني كنت مغفَّلًا، ولا شيء يجعلني أنفعل أكثر من رؤيتي لإنسان غبي متعصب يؤمن أنه على حق والحقائق كلها تشير إلى أنه على باطل. إنسان كهذا لا يصلح معه سوى منطق واحد، وهو المنطق الذي كنت قد قررت أن أتَّبِعه.

فبعد أن كفَّ كلانا عن الكلام غادرت مكانها ذاهبة إلى التواليت، وحين عادت وجدتني أحتل المقعد الذي كانت تجلس فيه، وبدا عليها أنها دُهشت، وقالت: لا بد أن خطأً ما قد حدث، أعتقد أنك جلست في مكاني.

قلت لها: أبدًا، لم يحدث أي خطأ، بالعكس لقد صححت الخطأ الذي ارتكبته.

قالت: ولكن هذا مقعدي، كيف تسمح لنفسك بالجلوس عليه؟!

قلت: كيف تسمحين لنفسك أنتِ أولًا بتسميته مقعدك؟! اسمعي أيتها الصهيونية المتنكِّرة كأمريكية أو الأمريكية المتنكِّرة كصهيونية. لقد جلستِ في هذا المقعد منذ أن بدأت الطائرة رحلتها من القاهرة، وظللت جالسًا فيه عدة ساعات، ثم جئتِ أنت في أثينا واختلقتِ كذبة لتجلسي فيه، وسمحت أنا لكِ بهذا على اعتبار أنك صادقة، ولكن اتَّضح لي أنك لست

صادقة، بل أكثر من هذا اتضح لي أنك عدوة فعُدت لاحتلال مقعدي، عليكِ الآن أن تبحثي لنفسك عن مقعدٍ آخر.

واحمرَّ وجهها غضبًا، وقالت: كيف تعاملني بهذه الطريقة؟! هذا توحُّش. نحن لسنا في غابة. قم من مكاني.

قلت: أرأيت؟ اغتصاب الحق ولو بالكذب والتضليل عدل وتمدين، واستعادة الحق المغتصَب وحشية وتأخر؟! إسرائيل حين تسرق أرض العرب وتشرِّدهم على حق، وحين يحاول العرب استرداد أرضهم يصبحون وحوشًا وجزارين؟! ابحثي لنفسك عن مقعد آخر.

وتشنَّجت وصرخت ودقَّت الأرض بقدمها واستدعت المضيفة، وتجمَّع نفرٌ من الرُّكَّاب وحكت لهم ما حدث، وأخذ معظمهم جانبها على اعتبار أنهم وهي يكوِّنون ذلك المجتمع المتحضِّر الراقي الذي لا يصح فيه أن تعتدي على حقهم في اغتصاب حقك. ولكني لم أُلْقِ لهم أو للفتاة انتباهًا كثيرًا، جلست في المقعد حتى جاء قائد الطائرة بنفسه ليحاول أن يُجلِيني عنه، وحكيت له ما حدث بالضبط، واستمع الرجل بانتباه، وحين انتهيت التفتُّ للفتاة قائلًا: السيد على حق ولا أستطيع إرغامه على ترك مقعده.

– ولكنه مقعدي.

قالتها الفتاة وقد بدأت تبكي وتستعمل سلاح الدموع، ولكني كنت قد صمَّمت أن أعطيها درسًا لا تنساه، وصممت أن أدافع عن حقي في الجلوس على المقعد حتى لو اضطُررت للدخول في معركة مع الرُّكَّاب جميعًا، ومع قائدة الطائرة حتى، لو حوَّلته دموع الفتاة عن رأيه.

ولكن يبدو أن الرجل لم تؤثِّر فيه الدموع فلم يُبالِ بصراخ الفتاة أنها ستشكوه حين تصل إلى فيينا، وأنها ضحية ولأنها ضعيفة فهو يعاملها بتلك الطريقة، وأنها حتمًا ستُنشِب أظافرها فيَّ وترفعني عن المقعد بالقوة، كل ما قاله ردًّا على هذا هو: ابحثي لك عن مقعد آخر.

وكل ما فعلته الفتاة أنها بعد وقفة غيظٍ طويلة ما لبثت أن تهالكت على آخر مقعدٍ في الطائرة.

وانتظرت أنا بضع دقائق ثم قمت وقلت لها: الآن وبعد أن ثبت لك مقعد مَنْ هذا، وأن الخداع والكذب والأمر الواقع لا تُضيع حقًّا أبدًا. الآن تستطيعين أن تذهبي وتجلسي على المقعد؛ فنحن لسنا وحوشًا. نحن لنا تقاليد أرسخ أقدامًا من كل تقاليدكم الأوروبية والأمريكية والصهيونية، ومن تقاليدنا أن نعامل أعداءنا بشهامة.

وطبعًا أشاحت بوجهها عني، وكنت أظنها لا يمكن أن تعود للجلوس على المقعد أبدًا، ولكني فوجئت حين وجدتها تتسلل بعد قليل وتجلس عليه.

وقلت لها: هذا حسن. كل ما أرجوه أن تعاودي التفكير في تلك الخزعبلات التي ملئوا بها رأسك، وتُعيدي التفكير فيها وأنتِ جالسة على هذا المقعد بالذات، وإن كنت ضعيف الأمل في هذا.

وحاولتْ أن تردَّ على النقاش، ولكني لم أردَّ عليها بكلمة واحدة. ظللت صامتًا حتى وصلنا فيينا. لم أرَها بعد هذا أبدًا.

والظاهر أني كنت مخطئًا في ظني؛ فها هو ذا خطاب غريب يصلني بعد شهور من الفتاة، وتقول فيه أنها لم تنسَ ما حدث أبدًا، وأن التفكير فيه ظل يعاودها لفترة طويلة، وأنه انتهى بها إلى أن ترى بوضوح في أي جانب يقع الحق.

الحرب في المؤسسة

الأسابيع القليلة الماضية قضيتها أتابع تجربةً خطيرةً تدور في إحدى مؤسساتنا الكبرى. والتجربة خطيرة لأنها شاملة؛ إذ أعتقد أنها تتكرر بشكل أو بآخر في جميع مؤسساتنا على حد سواء. والتجربة لا تمسُّ الاشتراكية أو الثورية ككلمة أو كشعار؛ فالاشتراكية كشعارٍ شيء جميل حبيب إلى القلوب. والتجربة حية؛ لأنها تمسُّ الرجعية في حياتنا بعد الثورة وبعد تطبيق القوانين الاشتراكية، ويخطئ الذين يعتقدون أن الرجعية كأشخاص أو كتيار تختفي من تلقاء نفسها وبمجرد رواج الاشتراكية وازدهارها. إن الرجعية تجد لها دائمًا مكانًا حتى في قلب الاشتراكية وبين صفوف الاشتراكيين أنفسهم.

والتجربة التي أتتبعها تدور حول مديرٍ ثوريٍّ عُيِّن حديثًا في هذه المؤسسة الكبرى، وما كاد اسمه يُعْلَن حتى كانت وفود المستقبِلين والمهنِّئين والمبارِكين تتسابق إلى بابه وتعقد حوله الأمل، وقد كان المدير رجلًا ثوريًّا كما قلت، ولكنه كان أيضًا حسن النية. ومن المظاهرات التي صاحبت تعيينه اعتقد أن كل شيء سيمضي على ما يرام، وأن القلوب صافية وخالية ولا ينقصها سوى إتاحة الفرصة للجميع كي يعملوا ويُنتجوا؛ وعلى هذا لم يشأ المدير الجديد أن يغيِّر أو يبدِّل شيئًا من أحوال المؤسسة أو مناصبها، أبقى كل شيء كما كان واعتقد أنْ ليس في الإمكان أبدعَ مما هو موجود ومن هذه الابتسامات والترحيبات التي يحظى بها في كل مكان من أنحاء المؤسسة الكبرى.

غير أن الحال لم يدُم هكذا طويلًا؛ إذ سرعان ما أدرَك المدير وأدرَك كلُّ مَن يعملون بالمؤسسة أن هناك خللًا خطيرًا لا بد يعيق من حركة الإنتاج، وبعد دراسة سريعة أدرك المدير الموقف على حقيقته، أدرك أن قلةً قليلة هي التي تُنتج في مؤسسته وأنها محاطة بكثرة ضارية من المتطفلين على عملية الإنتاج، ويخطئ من يظن أن جميع العاملين بمؤسساتنا

هدفهم الإنتاج أو الحرص عليه؛ إذ لو كان هذا هو الحال لأصبحت كل مؤسساتنا تقدُّمية وكل العاملين بمؤسساتنا تقدميين. الحقيقة أن قلَّةً نادرة هي التي تقوم بعملية الإنتاج والخلق في مجتمعنا وتحرص عليه، وأغلبيةً عظمى تُنتج للمحافظة على مصدر أكل العيش ليس إلا، بينما هناك فئة بأكملها تحيا عالةً على عملية الإنتاج، متطفلةً، تبذل كل ما في وسعها لعرقلته وللسيطرة — مجرد السيطرة — على أقدار المنتجين والتحكم فيهم. هذه الفئة هي الشكل الجديد الذي تتخذه الرجعية في عهود الاشتراكية؛ فالرجعية في العصر الاشتراكي هي الفئة التي لا تُنتج أو التي تقوم — عن حُسن قصد أو سوئه — بعرقلة عملية الإنتاج، إن الرجعية هنا ليست باشوات على صدورهم نياشين وتَعْقُب أسماءَهم ألقاب كبار العائلات. وليست مكوَّنة من رجال الملك السابق، ولا تحمل على رءوسها لافتات مكتوبًا عليها الرجعية. أبدًا لا شيء من هذا. الرجعية في العصر الاشتراكي تجدها تلبس ملابس العصر بأزهى ما يكون، وتحمل شعاراته بكل قوة وحماس. الرجعية هنا تجلس على مكاتب، وتضع نظارات المثقفين، وتحمل في جيوبها الميثاق الوطني تستشهد به كلما أتيحت الفرصة، وحتى دون أن تتاح. الرجعية هنا تُبالغ في التنكُّر وإلا لاكتشفها الناس جميعًا وعزلوها. وهي لا تزال حيةً وقائمةً إلى يومنا هذا؛ لأن تنكُّرها مُتقَن ودورها لم يُكتشف بعدُ.

ولكن مهما بلغت درجة الإتقان فباستطاعتك أن تُميزها دائمًا بسؤال واحد؛ باستطاعتك للتعرُّف على كُنْهِ الشخص أن تسأل: ما دور هذا الشخص في عملية الإنتاج؟ هل هو يطوِّرها ويدفعها إلى الأمام؟ أم هو يحيا عالةً عليها ويقف حجر عثرة أمام المنتجين؟

وقد سأل مدير المؤسسة الثوري نفسه هذا السؤال، وعلى ضوء الإجابة عليه بنى خطَّته للقيام بثورة في مؤسسته؛ ثورة يقضي فيها على الرجعية ويتيح الفرصة للمنتجين؛ وهو بالضبط هدف الثورة في كل زمان ومكان. إن الثورة لا تقوم إلا للقضاء على القوى التي تعرقل وتخنق إنتاج الناس أو الطبقات. وأي إجراء من شأنه أن يرفع عقبة أو يزيل أخطبوطًا هو إجراء ثوري، بل هو المقياس الوحيد لأي إجراء ثوري.

أعلن المدير إذن الحرب على الرجعية والمتعاونين معها ومن يدورون في فلكها، ويخطئ من يظن أن هؤلاء قليلون. إن الضمان الوحيد لأي منتج حقيقي هو أن يُحسِّن ويُطوِّر ويُكثر من إنتاجه، والضمان الوحيد لأيِّ رجعيٍّ هو أن يُنشئ لنفسه شبكة من العلاقات والاتصالات والمعارف، وأن يربط بقاءه ببقاء عدد كبير جدًّا من الناس، بحيث يستطيع في وقت الحاجة أن يستغل هذه العلاقات والاتصالات، وهي علاقات واتصالات ليست في

مؤسسته فقط ولكنها تمتد إلى غيره من المؤسسات والدوائر. إنها الجذور الرجعية في كل مكان حين تلتقي وتتعانق وتتكاتف لتضرب حين تتاح لها الفرصة، أو على الأقل لتحمي نفسها من الضربات؛ شبكة تجد بينها أناسًا كثيرين موجودين بحُسن نية وبحكم المعرفة الشخصية، بل أحيانًا تجد بينها منتجين حقيقيين دفعهم الخوف أو الانتهازية إلى تقوية علاقتهم بتلك الشبكة الأخطبوطية الضخمة، بل في أحيان تجد بين مخالبها بعض الاشتراكيين الثوريين الحقيقيين.

وقد جرفهم تيار العمى أو خدعهم إتقان التنكر، أو في أعماقهم فقدوا الثقة في الثورة والشعب وآثروا الإيمان بالحقائق أو الأشخاص والمناصب الملموسة.

وهكذا وجَّه المدير نفسه في دوامة رهيبة منذ أعلن الحرب على الرجعية في مؤسسته. وجد نفسه يقابَل بمعارضة ليس من غُلاة الرجعيين فقط، فهؤلاء أمرهم معروف، ولكن من الناس العاديين؛ من العاملين وأكَلة العيش الذين لم يعد باستطاعتهم أن يفرقوا بين مدير ومدير، ولا بين رجعي أو تقدُّمي ما دام شخصًا «طيبًا» و«ابن حلال» ورجلًا مؤدَّبًا لا يخطئ في حق الآخرين.

والناس بطبعهم يقفون دائمًا ضد أن يُوقَف شخص أو تُنزع عنه بعض اختصاصاته، وقد تعوَّدت هذا الموقف بحكم أن الضربات كانت دائمًا تحيق بالمنتجين العاملين، ولا تستطيع بسهولة أن تغيِّر من نظرتها تلك، وتؤمن أن الضربات لا بد أن توجَّه إلى أعداء الإنتاج البيروقراطيين والرجعيين وأعداء الشعب.

ومع هذا كله، ومع الحرب الضارية العنيفة التي وجد المدير نفسه يواجهها؛ فقد كان ثوريًّا أصيلًا وآثر أن يمضي في عملية الإصلاح الجذرية وأن يواجه التحدي بالتحدي. فهل سكتت الرجعية؟ لقد بدأت تستعين بذخيرة الاتصالات التي كوَّنتها، وتكتُّل الحلفاء والمؤيدين داخل المؤسسة وخارجها، بل استطاعت أن تصل إلى لجان العمل والعمال، وبدأت تمد أيديها القذرة في الظلام لتحرِّك القوى العاملة بالمؤسسة لتكتلها وتوقفها في وجه المدير وتحتمي بجبنٍ شديد خلفها، هذه القوى العاملة التي ستكون أول من يستفيد من الإجراءات الثورية التي يقوم بها المدير، والتي لا يقوم المدير بها إلا لمصلحتها ودفاعًا عنها وعن المنتجين جميعًا، استطاعت العناصر الرجعية أن تُحرِّك هذه القوى وأن تفعل هذا بذكاء شديد، عن طريق مطالب العمال في هذه المؤسسة، ولكلِّ عمال في أي مؤسسةٍ مَطالب، ولكن تحريك هذه المطالب في الوقت المناسب وجعْلها هدفًا عاجلًا لا بد من تحقيقه فورًا، مهمَّةٌ تُجيد الرجعية العصرية القيام بها؛ إذ هي — كما قلت — تجيد التنكُّر، حتى لو كان التنكر هنا في ثياب العمال ومطالبهم واستحقاقاتهم.

إن القيام بثورة ضد الرجعية القديمة المكشوفة عمل أسهل ألف مرة من الثورة على الرجعية الجديدة المقنَّعة بأقنعة سبعة والتي لم يتسرب الشك بعدُ في طبيعتها أو نواياها، ولكنه العمل الثوري الحقيقي؛ لأنه الثورة المتصلة، والاشتراكيون دائمًا ينادون بالثورة المستمرة المتصلة، لا لجعل الثورة في حد ذاتها هدفًا ولكن لاستعمال القوى الثورية والدفع الثوري لضرب أفواج الرجعية المتعاقبة؛ لاجتثاث جذورها كلما نبتت لها جذور؛ لأن تركها أو إهمالها يؤدي في النهاية إلى استشراء المتطفلين على الإنتاج لدرجة تحقق قوى الإنتاج، ويتحتم معها أن تنشب في المجتمع كله ثورة شاملة وهزة عنيفة تقضي على هذه الرجعية الخانقة المتطفلة.

وقد أصبح المدير الآن في موقف لا يُحْسَد كثيرًا عليه؛ فهو يحارب بكل قوته في أكثر من جبهة، والمعركة على أشُدِّها، والعجيب أن هذا كله يدور في صمت؛ إنك لا تجد إذا دخلت المؤسسة مَدافع أو مسدسات، إنك تجد ابتسامات وقهقهات وقهاوي رائحة وغادية، ولكن الحرب مستعرة وشاملة، والرجعية فيها تستعين بكل ما في استطاعتها أن تُحرِّكه أو تُسدِّده، والسكون يُخيِّم على كل شيء وكأنْ ليس هناك شيء بالمرة.

كل أملي من نشر هذه الكلمة أن يعيَ العاملون بتلك المؤسسة وبكل مؤسسة بحقيقة ما يحدث، وأن تنتهي حالة السكون واللامبالاة، وأن يتدخل العاملون كطرف ثالث في هذه الحرب الخَفِيَّة؛ طرفٍ ينهي المعركة ويكشف الرجعية؛ فالرجعية لا تريد أكثر من أن تمضي المعركة في صمت ومن وراء ستار وفي غيبة العاملين من جماهير المؤسسة وعمالها، أو في حضورٍ كالغيبة؛ الغيبة عن الوعي؛ إذ أمضى سلاح ضد الرجعية هو الوعي، واليوم وقد انكشف المخبوء لم يعُد أمام العاملين بالمؤسسة والمنتجين فيها أي عذر لوقوفهم موقف المتفرج من حرب تحدد مصائرهم ومصائر زملائهم؛ فالثورة لا يحققها مدير أو بضعة مديرين؛ الثورة تتحقق فقط وتنجح بتكاتف الناس جميعًا لتحقيقها وإنجاحها.

الفرقة والأزمة

لا شيء يُثلج القلب أكثر من رؤيته لكائنٍ يوجَد أو لحلمٍ يتحقَّق. هكذا كان شعوري وأنا أشهد فرقة الإسكندرية المسرحية. إن وراء إنشاء هذه الفرقة لا بد آمالًا عريضة جاشت بها الصدور، وكفاحًا وجهدًا شاقًّا لمواصلة الهواية. وأخيرًا ها هي ذي كلها تتجسد وتتحقق ويصبح لفناني الإسكندرية من مؤلِّفين وممثِّلين ومُخرِجين فرقةٌ ترعاها المحافظة ماديًّا وأدبيًّا، وتُشرف عليها مؤسسة المسرح فنيًّا وتوجيهيًّا. لا أُنكِر أن شغفي كان شديدًا لرؤية هذه الفرقة الوليدة، نفس الشغف الذي لا زلت أُحِس به تجاه التجربة الرائدة الأخرى التي تقوم بها وزارة الثقافة بنقل المسرح إلى المواطنين في الأحياء الشعبية بواسطة دور السينما في تلك الأحياء.

حضرت الفرقة وهي تقدِّم رواية الأزمة لأحمد حمروش. وفوجئت أول ما فوجئت بمسرح إسماعيل يس الذي تقدِّم الفرقة عليه رواياتها، فوجئت به — وهو الكائن على البحر المُعرَّض في ليالي الشتاء الإسكندرانية للبرد وتيارات الهواء — ممتلئًا بالجمهور. كان واضحًا أنه يلتهم المسرحية وحوارها وفصولها التهامًا وكأنه مدعوٌّ إلى مأدبة إفطار بعد يوم صوم طويل.

ولوجه الحقيقة أيضًا لم أكن أتوقع الكثير من فرقة مثلها وليدة، وبروح الإشفاق هذه ونية الصفح مضيت أتفرج على مقدمة الفصل الأول، الطويلة بعض الشيء، إلى أن دخل «عباس» إلى المسرح، هنا وجدت الحياة تدب في المسرحية وتنبض، وجو المسرح يتكهرب بهذه الشحنة العاطفية الفنية التي تحدث حين يتم التجاوب بين الممثل فوق الخشبة والجمهور في الصالة. هذا ممثل موهوب حقًّا، ناضج الموهبة، عرفت فيما بعد أن اسمه وحيد سيف، وكان دوره كوميديًّا، ولقد أداه بموهبة كوميدية راقية وعميقة

أكاد لا أجد لها نظيرًا بين كافة ممثلي العاصمة المشهورين السينمائيين والمسرحيين، وحين دخلت البطلة سميرة «عايدة إسماعيل» ظننتها إحدى السيدات أو الفتيات الكثيرات هاويات التمثيل حين تسمح لهن ظروف مجتمعنا المتحفظ أن يجدن لهوايتهن متنفَّسًا في فرقة كفرقة الإسكندرية. ولكنها لم تكن كذلك؛ من طريقة أدائها لأول جملة حوار أحسست أنها متمكنة ومسيطرة وموهبتها في مستوى دورها إن لم تكن تفوقه. أما البطل فقد شعرت به في محنة، شعرت أنه يؤدي الدور بطريقة غريبة على طبيعته، لا بد رسمها له المُخرِج وحدد طاقته التمثيلية داخلها.

والأزمة هي درامة الجيل العامل الجديد في مجتمعنا، ذلك الذي يريد أن يعمل ويُنتج ويحافظ في نفس الوقت على قيمه ومبادئه، الأزمة تنشأ حين يصبح عليه — لكي يمضي في عمله وينجح — أن يتخلى عن هذه المبادئ أو بعضها. فهل يفعل؟ ذلك هو الموضوع المسرحي الذي اختاره أحمد حمروش لروايته الأولى، وهو موضوعٌ مسرحيٌّ من الدرجة الأولى — كما نرى — يكفي اختياره علامة على قدرة المؤلف المسرحية. ولكن العلاج جاء سريعًا لا يهز ولا يتوقف ليُعمق المواقف إلى نهايتها لنصل إلى الجذور وحتى إلى مناطق لم تُسْتَكْشَف بعدُ من مناطق الشخصية الإنسانية والسلوك البشري. لقد جاءت «الأزمة» مباشرة وواضحة كمسائل الحساب البسيطة لا يحتاج حلها إلا لإجراء عملية ضرب أو طرح أو قسمة. وقد أجرى المؤلف العملية في النهاية وخرج البطل بإرادته وقِيَمه سليمة لم تُمَسَّ. يُخيَّل إليَّ أن الأزمة الحقيقية كانت تنشأ كصراع طويل رهيب متقلب بين الإنسان حين يريد ويكافح ليستجمع إرادته وليتخذ موقفًا وقرارًا، وبين الظروف المحيطة وطبيعة تكوينه وضعفه الإنساني حين تتكاتف وتقف حائلةً بينه وبين ما يريد. وليس مهمًّا أن تنتهي الأزمة بانتصار الإرادة أو انتصار الضعف، المهم أن نرى الإنسان أمامنا وهو يعيش مراحل الصراع ويقاوم وينهار ويرفع رأسه ويثور ليعود يساوم ويخفضها. ليست النهاية مهمة؛ لأن الأزمة الإنسانية لها أبدًا نهاية وإلا لحُلَّت جميع مشاكل البشر. إن كل ما يستطيع المسرح أن يجسده ويوضحه هو موقف الإنسان وهو يصارع الأزمة وهل خاض الصراع ببطولة أم خاف ونكص؟

وهذا العيب ليس عيب الأزمة وحدها. إنه عيب مسرحنا الحديث كله.

الصراع البسيط غير المركَّب والمواقف الخاطفة و«الحديث» عن الصراع وليس تجسيد الصراع، الأزمة ابنة هذا المسرح وقد كان طبيعيًّا أن ترث عنه كل مزاياه وكل عيوبه، الحوار الجيد الممتاز وضحالة المواقف الدرامية وتعدُّدها وعدم القدرة على بناء الحدث المسرحي

الكامل عن طريق تعميق الموقف والغوص به. إن الشخصية الدرامية كالسفينة التي في طريقها إلى الغرق، كلما أحست أنها تغوص إلى أسفل انتزعت محتوياتها الدفينة بعنف وقذفتها بعيدًا عنها على أمل أن تتخفف وتنجو. وقد تحدث النجاة أو لا تحدث ولكن المهم دائمًا وأبدًا هو ذلك الكنز من «محتويات» الشخصية الذي نحصل عليه من الشخصية قسرًا ورغم إرادتها ونتيجة للمأزق الذي وُضِعَت فيه والأزمة التي تخوضها.

ولكن كل هذا لا يمكن أن يُغفَر لُمخرِج مسرحية الأزمة ما فعله.

إنها مسرحيةً تُحِس أن وراءها تأليفًا وتمثيلًا ولكنك لا تحس أبدًا أن وراءها مُخرِجًا، وإذا شعرت به يتدخل فتحس أنه يتدخل لإفساد العمل أو لقطع المتعة؛ مثل أن يطفئ النور في نصف المسرح ليبقى البطل في الظلام ويمنعك من تتبُّع انفعالاته، ويُبْقي الآخرين في النور. إن المسرح ليس لوحةً تؤثِّر بتوزيع الأضواء والظلال. إن المسرح يؤثِّر بما يستطيع المتفرج تجميعه من محتوًى ومعلومات عن الموقف الذي يدور أمامه، فإذا كان عمل الإخراج هو أن يحول بين المتفرج وبين إدراك ما يدور أمامه فهو إخراج قِلَّته أَحسنُ.

ورغم هذا كله — رغم محاولات المُخرِج لإفساد السهرة والرواية — فقد نجحت الأزمة؛ نجحت الفرقة، اجتازت أزمة البداية ووقفت على أقدامها، وكذلك اجتاز أحمد حمروش كمؤلف أزمةٍ الأزمةَ، عنق الزجاجة والرواية الأولى، ووضع قدمه على أول الطريق، أروع وأرحب وأضيق وأبشع وأمجد طريق؛ طريق ذلك النُّصب الخرافي المقام لتمجيد عظمة الإنسان وخطيئته وبطولته وتفاهته؛ طريق المسرح.

حكاية تمليك الشقق

لا أعرف سرَّ حملة التكبير والتهليل لمشروع تمليك الشقق إلا أن يكون هدفها تفتيت الملكية العامة أو القطاع العام إلى ملكيات خاصة متعددة؛ إلا أن يكون هدفها التهام جسد الاشتراكية الضخم ممثلًا في الملكية العامة لوسائل الإنتاج. إن الطريق الاشتراكي لحل أزمة المساكن لا يكون بتمليك العمارات للسكان، ولكن بالمطالبة مثلًا ببناء عمارات جديدة أو التوسع في سياسة المساكن الشعبية والمساكن لمحدودي الدخل، أو المطالبة بتخفيض الإيجارات. أما أن نهلِّل ونهتف لمشروع يُقْصَد به أن تتسرب ملكيات الدولة والمؤسسات وشركات التأمين إلى أفراد الطبقة القادرة على الدفع وعلى امتلاك مسكن خاص، فمعناه أننا نهلل وندعو لسياسةٍ هي ضد سياسة مجتمعنا، ضد الاشتراكية، ضد الملكية العامة. ندعو للملكية الخاصة للأرض والمساكن تمهيدًا ربما للدعوة للملكية الخاصة للمتاجر الكبرى والشركات والمؤسسات؛ أي عودة الرأسمالية المستغلة من النافذة بعد أن طردناها من الباب.

بين الهِرْ «فاف» والسيد راجح!

لا أذكر أني استعملت المفتاح أبدًا لفتح صندوق البوستة؛ ربما لأنه ضاع، وربما لأني نادرًا ما أحمله، كلما وجدت الخطابات بدأت تتراكم وتُطل من الفتحة استعنت بعُمَر لإخراجها، وعمر هو نجم البيت بلا نزاع، كل شيء تعال يا عمر، روح يا عمر، السجاير يا عمر، حتى الدعوات إذا انهالت لا تنهال إلا على عمر. وعمر صبي أسمر في الرابعة عشرة من عمره قصيرٌ تخين له محفظة بكتينة وساعة يد مشوَّهة الميناء، ومنصبه الرسمي عامل أسانسير، ولكن مناصبه غير الرسمية أكثر من أن تُعَدَّ أو تُحْصَى، واستخراج الخطابات من صناديق البوستة التي ضاعت مفاتيحها، أو بالأحرى «اصطيادها» من الصناديق أحد مهامِّه الرئيسية؛ فلديه سلك رفيع ينتهي بعقفة، أو — إن شئتم الفصاحة — التواء؛ سلك يمدُّه في الفتحة التي تُلْقَى منها الخطابات، ويظل يحاورها وتحاوره حتى يستخرج السلك بهدوء وبمهارة خبير وقد ظفر بخطاب أو بخطابين، وأحيانًا يقضي الساعات دون أن يظفر بشيء، هو وبخته. واليوم ناولني عمر مجموعة لا بأس بها من خطاباتي المتراكمة وأسنانه الناصعة البياض تبرق وعيونه تلهث. والواقع فرحت لكثرتها؛ فأي خطاب لنا فرحة مغلقة نستمتع بتأمُّله وتأمُّل أسمائنا المكتوبة عليه والخط الذي كُتِبَ به ونُخمِّن، ونتنشي كأننا في انتظار الأخبار حين يظل الراديو يردد: بعد قليل نذيع عليكم أخبارًا هامة.

ومتعة أخرى أن تتمدد أو تجلس، وتضع الخطابات أمامك وتفضُّها مرة واحدة لتطمئن على محتوياتها، ثم تبدأ تقرأ كلًّا منها بتمعُّن وعلى حدة.

الخطاب الأحمر

واحدٌ منها لم أكن في حاجة لفضِّه لأعرف محتوياته؛ وخطابات إدارة الكهرباء والغاز الحمراء معروفة وأشهر من فأر السبتية. وحتى قبل أن أعرف المبلغ الذي ينذرونني بدفعه تضايقت؛ فنحن في أواخر الشهر، ومن أين تنتظر الإدارة مني أو من غيري أن يدفع لها؟ وأي ذكاء خارق أملى على المسئولين فيها ألا يطالبوا بثمن النور إلا في آخر كل شهر، وكأنهم لا يحلو لهم المطالبة بحقهم إلا والمشتركون في أزمة وفي حالة إفلاس. والغريب أن أحدًا من هؤلاء السادة المسئولين لم يفطن إلى هذا الوضع الشاذ ولا حاول تغييره، وكأنهم مجرد آلات صمَّاء تطبِّق النظام الذي ورثوه عن الشركة السابقة تطبيقًا أعمى، بل من المؤكد أن أحدًا منهم لم يلاحظ تكرار قطع التيار وازدحام الإدارة بآلاف المشتركين طوال النصف الأول من كل شهر، وتحمُّل الشد والجذب وضياع الوقت في الطوابير الطويلة وشخط الموظفين؛ لم يلاحظ شيئًا من هذا، ولم يدرسه كظاهرة، ولا شغل باله بالمشكلة إطلاقًا، ولو كان فعَل لأدرك أن النقود والجهد والوقت التي تضيع هباءً ممكن توفيرها بإجراء بسيط جدًّا يجعل التحصيل يتمُّ في أول كل شهر، أم أن إجراءً كهذا سيريح المواطنين، وهذا أمر فيه إهانة للروتين!

أصحاب الملابس القاتمة

الخطاب الثاني أزال قليلًا من مرارة الإنذار الأمرِّ، كان من دار بول فاف النمساوية للنشر وكانت قد عهدت إلى المستشرق الدكتور جورج يروتكوف بمجموعة من القصص العربية، وطلبت منه أن يقرأها ويختار منها قصة لتنشرها في مجموعة تحوي أحسن قصص كتبها مؤلفون معاصرون في عدة مواضيع حددتها الدار. واختار الرجل «أبو الهول»، وقرر أن يترجمها بنفسه إلى الألمانية. وللآن لا أعرف كيف وصلني هذا الخطاب؛ فقد كان مُرْسَلًا لي باعتباري أعمل في المجلس الأعلى للفنون والآداب. والظاهر أنهم في النمسا يعتقدون أن مجلسًا كهذا لا بد أن يعمل فيه الكُتَّاب. حُسن نية لا شك! وبمناسبة المجلس فقد سألت زميلي نعمان عاشور إن كان ينوي أن يتقدَّم بمسرحياته للمسابقات التي أعلنت عنها لجنة المسرح. وأخبرني نعمان والأسى — الذي يبعث على الضحك — يكسو ملامحه، أنه غير مصرَّح لمسرحياته بدخول المسابقة؛ لأنها مكتوبة باللغة العامية. وأن الشرط الأساسي هو أن تكون المسرحيات المقدمة مكتوبة باللغة العربية الفصحى. بذمتكم ودينكم أيها السادة أعضاء اللجنة، كم مسرحية كُتِبَت في الخمسة أعوام الماضية باللغة العربية الفصحى؟

وكم منها مُثِّل على المسرح؟ وكم منها صمد للتجربة؟ وماذا تبغون بهذا الشرط الشكلي السخيف؟ وهل الهدف خدمة اللغة الفصحى؟ أم خدمة المسرح؟ أم استبعاد مؤلِّفين معيَّنين من المسابقة؟ وكيف يوافق الأستاذ يوسف السباعي على هذا ومسرحياته — على ما أظن — كلها بالعامية؟ لا تحزن أيها الصديق نعمان فلا بد أن يأتيك الإنصاف يومًا، ولندع المجلس بلجانه الموقَّرة يجتمع وينفضُّ ويقرِّر أن الحركة الأدبية في ركودٍ ومَوَات، وأن الجيل الحاضر جيل فاسد، وأن لا خير إلا فيمن جاوز السبعين، ليظلوا واقفين عن العامية والفصحى ونوع الوزن والقافية، ليظلوا هم وحدهم أصحاب الأدب والناطقين باسمه، ليظلوا يرتدُون ملابسهم القاتمة ويضعون على وجوههم التعبيرات الحادة الموقرة والاحتفالات والجوائز؛ وحتى اللغة، ليظلوا منصِّبين أنفسهم أوصياء عليها؛ ليظلوا كذلك، ولتظل أنت تُنتِج وتكتب وتؤلف؛ فالبقاء لعملك.

الأخ الأصغر

ونحن نقرأ كل يوم ونسمع أخبار البترول الذي يُكْتَشف في صحرائنا الشرقية وسيناء وتصريحات المسئولين عن كمياته وأنواعه، وقد قُدِّر لي أن أحيا مشكلة البترول هذه عن قرب، لا بحكم اتصالي بمصادر الأخبار، ولكن بحكم أخي الأصغر — أحمد — ولا أعرف إن كنتم قد جرَّبتم شعور الأخ الأكبر هذا، ولكني ظللت أُعامِل أحمد وكأنه لا يزال ذلك الطفل الصغير الذي كان يبكي كلما رفضت أن آخذه معي حين أذهب للعب مع الأولاد الكبار. والأخ الأكبر يُشفِق بطبيعة سنِّه على إخوته الصغار ولا يعتقد أبدًا أن بوسع أحدهم أن يُنجز عملًا دون مساعدة منه أو على الأقل دون إشراف. وهكذا حتى بعد أن تخرَّج أحمد وأصبح مهندسًا وأصبحت أناديه كما يناديه الناس: يا باشمهندس! كنت لا أزال — بيني وبين نفسي — لا أرى فيه سوى أخي الأصغر الذي نما بطريقة لا أعلمها وأصبح ضخمًا طويلًا يكاد يصبح أطول مني. ومنذ شهر وأحمد يعمل في رأس غارب حيث حقول الشركة العامة للبترول. ومنذ أشهر ونحن لا نلقاه إلا في إجازات قصيرة جدًّا لا نكاد نراه فيها حتى يختفي. وإذا تحدَّث معنا لا يتكلم إلا عن البترول والتانكات واللحام بالكهرباء وبالأكسجين وخط الأنابيب الذي لا بد من إقامته بين الآبار والميناء لكي يتدفق البترول؛ بترول اكتشفه مهندسون عرب واستخرجته أيدٍ عربية، ومستودعات أقامها العرب أيضًا؛ وحتى الصُّلب المقامة منه جاء من مصانع الحديد والصُّلب العربية.

الخطاب الثالث كان منه، وظللت أقرؤه إلى أن وصلت إلى الفقرة التي يقول فيها:

> أخي، أعتقد أني قريبًا سأصاب بالوَشِّ، لماذا تبتسم؟ صحيح أصبح عندي وَش، مخي مشتت يفكر في ألف فكرة وفكرة وفي ألف شغلانة في اليوم الواحد. أنام وأنا أفكر، وآكُل وأنا أفكر، وأفكر وأنا أفكر؛ وسبب ذلك أني أصبحت بؤرةً تجمَّعت فيها جميع أنظار موظَّفي الشركة؛ كلهم يقولون: عاوزين نطلع زيت — أقصد بترول — يا أبو حميد في يناير، والشركة أخذت على نفسها عهدًا أمام الوزارة والمؤسسة أنها ستُنتج الزيت في يناير سنة ١٩٦٠. وحتى يتحقق هذا الوعد الضخم لا بد لـ «أبو حميد» أن يعمل ليلًا ونهارًا في محطة التجميع وخط المواسير المرعب لكي تفي الشركة بوعدها؛ وحتى يحس أنه لأول مرة قام بعمل جديد له علاقة بالسياسة العامة للدولة وللشعب، أخي، قل إني مغرور، قل أي شيء، ولكن أرجو أن تقول لي أيضًا أن أشد حيلي، فأنا تعبان جدًّا ومتحمل مسئولية أكبر من أحمد الذي لم يبلغ من العمر ٢٤ سنة، ولكني سأكون دائمًا عند حسن ظنك بي، سأنتهي من هذا العمل الضخم في بحر أيام، ويومها سأقف مرفوع الرأس وأنظر إلى الصهاريج الضخمة وهي مملوءة بالذهب الأسود، ثم يدق قلبي وأنا أفتح البلف ليندفع الدم القاني ويتدفق في خط الأنابيب، عندئذٍ سأميل على جاري وأقول له في تواضع: «يا أخي الواحد برضه تعب في الشغلانة دي.» الظاهر أني سأضطر لنبذ فكرة الأخ الأكبر هذه عما قريب.

وخطابات أخرى خاصة بما كتبته عن المظاهرة النسائية، بعضها يحبِّذ وبعضها يهاجم، وكلها — بلا استثناء — قد حمَّلت الموضوع أكثر مما يحتمل، كل ما أردت قوله: إن الرجال ليسوا هم الذين اغتصبوا حقوق النساء ولكنها الأوضاع الاجتماعية التي اغتصبت حقوق الاثنين.

بعدما انتهيت من قراءة الخطابات ووضعتها جانبًا وجدت ثمة فكرة قد بدأت تأخذ طريقها إلى عقلي؛ أية علاقة يا ترى بين الهِر بول فاف والسيد محمد راجح الذي وقَّع إنذار إدارة الكهرباء؟ وهل يعلم السيد محمد محمود هاشم مهندس محطة فايد الذي يطالبني بإنصاف الرجال من النساء مثلًا بهذا الخطاب القادم من رأس غارب؟ أوَليس الإنسان منا مجرد نقطة تلتقي عندها خطوط قادمة من أشخاص وجهات لا يمكن أن تتقاطع

إلا عنده؟ أليست نقطة التقاطع هذه وعدد الخطوط المشتركة في تكوينها هي التي تحدد كيان الشخص وذاته؟

بل أكثر من هذا ألا نرتكب خطأً جسيمًا حين يدَّعي أيٌّ منا أنه يعرف الآخر تمام المعرفة مع أن كلًّا منا لا يرى إلا جزءًا واحدًا أو أجزاء معدودة من الآخر ويعامله على أساسها؟ ألا نكون حينئذٍ كمن ينظر إلى البقعة التي يقف عليها من الكرة الأرضية ويعتقد أنها مسطحة وأنها تنتهي عند الأفق؟ بل حتى الكرة الأرضية أمكن اكتشافها والإحاطة بكل حجمها الهائل، أما الإنسان — أي إنسان — دلوني على إنسان واحد نستطيع أن نحيط به وبكل أجزائه ووجوهه وندرك ملايين الخطوط الملتقية عنده والداخلة في تكوينه!

حددوا لنا مكان الطب من مجتمعنا

إن شكوى الجمهور من معاملة بعض الأطباء يجب أن تخرج عن نطاق اتهام طبيب بعينه؛ إن المشكلة أضخم من أن يردَّ عليها نقيب الأطباء بقوله: إن النقابة مستعدة لتحقيق أي شكوى، إنها مأساة عامة مرتبطة بوضع اجتماعي خطير، وهي أول أمانة في عنق مجلس نقابة الأطباء الذي يخاطبه زميلنا الطبيب الدكتور يوسف إدريس في هذا التحقيق.

إن «الجمهورية» تفتح الباب أمام كل المهتمين بهذا الموضوع الخطير، لطرح اقتراحاتهم بما ينصف الأطباء، ويحقق حاجات المرضى.

موسى صبري

أكثر من مرة منعت نفسي أن أخوض في الجدل الدائر حول موقف بعض كبار أطبائنا من حادثة مرض المرحوم إسماعيل الحبروك. كنت أمنع نفسي عن عمد؛ فكثيرًا ما وقفت موقف المدافع من حملات الهجوم التي كانت تُشَن على الأطباء وتكيل لهم التُّهم؛ لأنه مع علمي أن بعضها قد يكون صحيحًا إلا أني أفضِّل أن يظل أطباؤنا محوطين بجوٍّ من الثقة يكفل لدورهم العلاجي فاعلية أكثر؛ فإيمان المريض بطبيبه جزء لا يتجزأ من عملية علاجه، ولن نكسب شيئًا إذا نحن في الصحف جرَّدنا حملةً تُزعزع ثقة الناس عامةً في الأطباء عامةً؛ لمجرد أن تصرُّفًا بعينه قد صدر عن شخص بعينه أو عدة أشخاص.

ولكني لا أستطيع السكوت وأنا أرى أنه برغم كل ما أثير لم نخرج بنتيجة مُرضية أو غير مُرضية؛ فلقد أخذ بعضهم النقاش على صعيدٍ شخصيٍّ محض، وكأن معركة قد قامت بين موسى صبري من ناحية وبين هذا الطبيب أو ذاك من ناحية أخرى؛ معركة وجد بعض أصدقاء الطبيب أن النخوة والشهامة تقتضيهم أن يُؤازروه ويُدافعوا عنه ويُبرروا مقصده،

وبذلك وجد بعض إخواننا من الكُتَّاب والصحفيين أنها الفرصة المناسبة لتعداد مساوئ الأطباء وأفعالهم الصغيرة. ولم نخرج بأي نتيجة رغم أن نقابة الأطباء أبدت استعدادها لمعاقبة أيٍّ مسيء من أعضائها فقط لو تقدَّم لها أحد بشكوى مكتوبة، «والحمد لله أنها لم تقل على ورقة تمغة».

ولا أعتقد أن أحدًا من القُرَّاء أو الأطباء أو المرضى أو الصحفيين قد رضي عن هذه النهاية؛ إذ كيف يُثار موضوعٌ نشغل به الصفحات المطوَّلة ووقت الناس ولا نخرج منه بعبرةٍ أو بدرسٍ أو بنهاية نتلافى معها أية أخطاء مماثلة في المستقبل إن كانت قد وقعت أخطاء؟

الطب كتجارة، والطب كرسالة

رغم ما قيل فالمسألة لها جانبٌ آخر مهم لا بد من الوقوف عنده طويلًا والخروج منه بنتيجة؛ ذلك الجانب يدعونا للتساؤل: هل نُعامِل الطبيب على أنه مجرد صاحب مهنة ومزاول لحرفة اسمها الطب، أم نعامله وكأن مهنة الطب التي يزاولها تُلقي عليه — دون سائر المهن الأخرى — واجبًا أسمى وتجعله صاحب رسالة؟ هل الطب تجارة أم رسالة؟ وهل الطبيب مجرد صاحب عيادة يهمه أن يزيد دخْلها ويكثر زبائنها، ومقياس نجاحه هو تزايد عدد المترددين عليه وذيوع اسمه؟ أم الطبيب إنسان ارتضى مختارًا مهنةً، عمله فيها أن ينقذ حياة الآخرين ويعالجهم ويخفف آلامهم، ومقياس نجاحه ليس هو رواج تجارته ولكن مقدار تفانيه في أداء هذه المهمة، وعدد الأرواح التي أنقذها وعالجها وخفف آلامها، مثله في هذا مثل عامل الإنقاذ على الشواطئ؟

أسئلة للأسف لا تُدْرَس الإجابة عليها في كليات الطب؛ فهم هناك يدرسون الأمراض ولا يدرسون مفهوم الطب، ويتركون لكل خريج أن يحدد لنفسه مفهومًا يبني عليه حياته ومستقبله، وللأسف أيضًا، ولأننا ننبع من مجتمعٍ الاحترامُ فيه والمركز أساسه الربح ومقدار ما لدى الشخص من نقودٍ يختار معظم أطبائنا أن يزاولوا الطب كمهنة ويُتاجروا فيما حصَّلوه من علوم. وهم معذورون؛ فجميع من حولهم يتاجرون؛ المهندسون يتاجرون في الهندسة، والسينمائيون يتاجرون بالخيال، والمحامون بمعرفتهم للقانون. وحتى التجارة في أقوات الناس والكسب من لقمة العيش مباحة، فلماذا يصبح الأطباء وحدهم الملائكة في عالمٍ من التجار؟

المثل الأعلى، خدمة القادرين

الإغراء قويٌّ، وله أسبابه الوجيهة، وهو لا يُغري صغار الأطباء فقط أو حديثي التخرج، ولكنه يغري الكبار منهم والعلماء وأساتذة الكليات، بطريقةٍ يصبح معها المثل الأعلى أمام الطبيب لا أن يصبح عالمًا في الطب، ولكن مثله الأعلى أن يصبح عالمًا في الطب ليخدم بعلمه هذا أغنى طبقة، يحصل على أعلى المؤهلات لكي يصبح حكيم أعلى الطبقات؛ أستاذ الولادة همه لا أن يقوم بأبحاث في الولادة أو يكرس نفسه لحل مشاكلها المعقَّدة التي لا يستطيع سوى مَنْ في علمه وخبرته أن يبحث فيها ويحلَّها، ولكن همه أن يصبح مولِّد سيدات القادرين والأغنياء. طبيب الأمراض الباطنية لا يصبح هدفه أن يكون العالم الأول للأمراض الباطنية، ولكن يصبح هدفه أن يكون المعالج الأول للمليونيرات وأكبر الطبقات ثراءً ولو حتى من الإنفلونزا أو الإمساك. وهكذا الحال في كل فروع الجراحة والطب. هدف الطبيب هنا لا العلم من أجل العلم ولا العلم من أجل الشعب وجماهير المواطنين، ولكن العلم من أجل الفلوس وأصحاب الفلوس والقادرين على الدفع، من أجل أن يصبح ممرض الطبقة الغنية وطبيبها. ولكي تثق فيه طبقة الأثرياء والعظماء والقادرين وتُفِيض عليه من كرمها ونفوذها وتَعْهَد إليه بالإشراف على صحتها عليه أن يكون له «اسم» في السوق كأي تاجر ذكي، عليه أن يحوز الشهادات فقط ليضعها على قمة الروشتة واللافتة؛ عليه أن يمثل في عيادته الخاصة وأمام الزبائن، عليه أن يجيد فنون التحدث والترفيه ويجري وراء المشاهير ليحظى بعلاجهم ليقترن اسمه بشفائهم، عليه أن يجعل الناس يعتقدون أنه ما إن يمسَّ العليل حتى يُشْفَى، وما إن يدخل بيت المريض حتى يذهب المرض، عليه أن يبتعد عن الحالات الخطرة والميئوس منها حتى لا يحدث مرة أن يموت إنسان كان يعالَج بإشرافه فيخدش اسمه ويتشاءم منه الأغنياء، عليه أن ينسى مركزه العلمي تمامًا وينتبه جيدًا إلى مركزه في السوق فيُشنع على المنافسين مثله مثل أي حانوتي أو بقال.

النتيجة الحتمية

والنتيجة الحتمية لذلك الاتجاه أن يصبح أشهر الأطباء ليس بالتالي أعلمهم وإنما أكثرهم فهلوة — مثلًا — وقدرة على إرضاء الزبائن والبروز بكل السبل وبأي الطرق على المسرح. وحين تحل الشهرة، عليه أيضًا أن يبدأ يعالج لا على أساس المرض وإنما على أساس المريض؛ مَن يكون المريض؟ ما ثروته أو مركزه؟ وماذا سيظفر به من علاجه؟

والنتيجة الحتمية المؤكَّدة أيضًا — والتي باستطاعتك أن تراها وتلمسها — أن تجد معظم أساتذة الطب والجراحة الكبار عندنا مشغولين بمعالجة رشح الأغنياء، ووضع قوائم الريجيم لإنقاص الوزن للسيدات، وعلاج جروحهم السطحية وخدوشهم وبواسيرهم، والأمراض التي ليس باستطاعة أي طبيب امتياز أن يعالجها فقط، وإنما باستطاعة أي طالب طب أو حتى قارئ لمجلة الدكتور أن يعالجها. وطبعًا مشغوليتهم الكبيرة في معالجة هذه الأمراض الصغيرة تبتلع وقتهم وجهدهم كله، ولا تترك لهم ذرَّة نشاط فائضة يستخدمونها في علاج الحالات الصعبة التي تحتاج إلى علمهم وخبرتهم، الحالات التي يعجز عن علاجها سواهم، الحالات التي خُلِقَ من أجلها الأساتذة الكبار.

الشهرة من الخارج إلى الداخل

الوضع إذن أدى إلى الآتي: تحول هدف الأطباء من خدمة العلم إلى خدمة الأغنياء، وتبعًا لتغيُّر الهدف تغيرت القيم كلية؛ فالحالة المستعجلة هي الحالة الغنية، والمرض المفضل هو المرض السهل المضمون شفاؤه، والشهرة لا تُبْنَى من الداخل إلى الخارج — من حجرات العمليات والكشف والفحص والمجهود العلمي الخالص إلى الخارج والناس — ولكن تُبْنَى من شهرة طبيب لدى أصحاب الجاه والغنى، تلك الشهرة التي لا يمكن أن يوجد لها أي أساس علمي، وإنما أساسها حقيقةً نوعٌ من الدجل الراقي، شهرة وسمعة ومركزًا في الخارج يبدأ ينفذ إلى أمكنة العلم المغلقة ومحافله ومحرابه، ويتدخل تدخلًا يكفل رفع هذا الطبيب فوق أكتاف زملائه، وتزويده بأسلحة يصارع بها أولئك السُّذج الذين وهبوا أنفسهم للعلم، وضربوا عرض الحائط بكل ما هو خارج قاعاته.

النتيجة أن الدجال الراقي الذي يصير إليه الطبيب يظفر بكل شيء؛ بالسمعة والشهرة والمركز واللقب والثروة، أما العالم المتصوف في فرعه الذي لا يعرف من دنياه غير كتبه ومعمله وحالاته فهو الخاسر على طول الخط، المهمَل الذي يزورُّ عنه الجميع ويعيش ويموت دون أن يسمع به أحد. إذا كان الوضع هكذا كيف يلومون إذن الأجيال الحديثة من الأطباء والعمال حين يرون بأعينهم المصير، ويتخرجون ليجدوا الأساتذة — مُثُلهم العُليا — يعملون ممرضي أغنياء، وينالون من عملهم هذا كل ما تصبو إليه النفس؟ كيف تلومونهم إذا هم الآخرون انحرفوا وأصبحوا يتقاتلون من أجل الشهرة والسمعة وسكب كرامتهم الإنسانية والمهنية تحت الأقدام الثرية؟

وليس الأطباء فقط

إن كل المشاكل التي تسمعها عن تقصير البعض وتشدُّد البعض ومقاولات البعض ليس سببها فساد ذمة هذا البعض، ولكن سببها فساد الوضع عامةً. إن نفس هذا الوضع موجود لدى المحامين والمهندسين؛ فليس باستطاعة أي متهم أن يلجأ إلى أي محامٍ، فلماذا لا يشكو الناس من ارتفاع أسعار المحامين الذين قد يأخذ الواحد منهم في القضية الواحدة خمسة آلاف وعشرة آلاف جنيه؟ نفس الوضع موجود، وكبار المحامين لا يختارون قضاياهم على حسب صعوبة القضية أو أهميتها، وإنما على حسب مركز المتقاضي ومبلغ ما في استطاعته دفعه من نقود. الوضع عامٌّ وحلُّه لا يكون بإدانة فرد أو فئة بعينها؛ الحل بتغيير المجتمع نفسه وقيمه وكل أوضاعه تغييرًا جذريًّا؛ الحل أن نغير القيمة في المجتمع لتصبح أهمية المواطن ليست بمقدار ما معه من نقود أو ما يستطيع إتقانه، ولكن بقيمته هو، بقيمة عمله من أجل ذلك المجتمع، بقيمة جهده من أجل زملائه ومواطنيه.

وإلى أن يحدث هذا لا يمكن أن نطلب المستحيل، ونطلب من الطبيب ألا يستغل عمله استغلالًا تجاريًّا في الوقت الذي لا نجد عيبًا أن يستغل المحامي أو المهندس أو الممثل عمله استغلالًا تجاريًّا. ما دمنا نستحل أن يكسب مواطن من تجارته في قوت المواطن، طعامه ودوائه، فلماذا في مسألة علاجه نطمع أن يتولى أمره ملائكة وقدِّيسون؟! إن الأطباء بشر مثلهم مثل غيرهم، وما داموا بشرًا فهم قابلون للإغراء وللاستجابة للإغراء، وما دمنا نسمح لبعض المواطنين — للأغنياء — بامتلاك وسيلة الإغراء التي لا تقاوَم: النقود بكميات باهظة، فكيف نوجد البنزين بجوار اللهب والنفس البشرية أمام المال، والطبيب الذي كافح أهله واقترضوا لتعليمه أمام المريض الواسع الغنى؟! كيف نوجِد هذا كله ونطلب المستحيل؛ ألَّا تشتعل النار، وألَّا تضعُف النفس، وأن يركل الطبيب نقود الثري بقدمه ويذهب ليعالج الفقراء؟!

إننا نطلب في هذه الحالة أمثلةً شاذة خروجًا على القاعدة، ولحسن الحظ نجدها. كنت مرة في زيارة الأستاذ الدكتور أنور المفتي وإذا به يحدثني عن مشروع غريب، أغرب ما فيه أن يصدر عن أنور المفتي، وأغرب ما في غرابته هو تلك المقدمة التي ساقها قبل الدخول في الموضوع. قال الدكتور أنور:

خلال الأشهر الأخيرة بدأت أتأمل حياتي، وأسأل نفسي: تُرى ماذا فعلت بكل السنوات الطويلة التي قضيتها أدرس وأنال الشهادات وأجرب وأتعلم؟ ماذا فعلت أكثر من أني عالجت مائة أو بضع مئات من بعض أمراض كان من الممكن أن يعالجها أي طبيب غيري،

وحالات منها كان ممكنًا أن تُشْفَى من تلقاء نفسها؟ الحقيقة أحسست بالخجل؛ إذ أدركت أني بكل ما فعلت لم أفعل شيئًا يؤثِّر في مجرى حياة جماهير شعبنا العريضة أو يخفف عنها.

ماذا وجدت؟

وجدت نفسي هنا مجرد طبيب في القاهرة مع أكثر من ثلاثة آلاف زميل نعالج مليونين من سكان القاهرة من أمراض عارضة، من أمراض هي في أغلبها نتيجة التُّخْمَة والإسراف، بينما هناك أكثر من عشرين مليونًا من أبناء شعبنا يعانون من أمراض حقيقية، أمراض نتيجة الجوع والفقر، أمراض تشل وتجنن وتقتل ولا أحد يعالجهم منها. حتى أطباء الأرياف مشغولون بمعالجة العُمَد والمشايخ والأعيان والقادرين، بينما الفلاحون المعدمون تُبيدهم الأمراض جيلًا بعد جيل وتهد كيانهم وتجعل متوسط أعمارهم خمسًا وعشرين سنة أو أقل، ولا يصلهم من نور العلاج شعاع ولا يذكرهم ذاكر. كلنا نعتمد على الحكومة في حل مشاكلهم وتولِّي شئونهم حتى شئون صحتهم، ونجلس هنا في القاهرة أبرياء الذمة نظيفين. أدركت من خلال مراجعتي لحياتي وتاريخي مع الطب أني وكل زملائي مقصِّرون — أكثر من مقصرين — في حق جماهير شعبنا العريضة. لا بد أن نفعل من أجلهم شيئًا. لا بد أني في أزمة شخصية؛ إني أرزح تحت عبءٍ يومي من تأنيب الضمير. هكذا تحدث الدكتور أنور المفتي. ومع أنه انتهى من حديثه إليَّ بأنه قرر هو وبعض زملائه الكبار تكوين قيادة جيش طبي وشعبي لمقاومة البلهارسيا — أعدى أعداء شعبنا — إلا أني في الحقيقة كان ما راعني هو حديثه عن نفسه، عن مراجعته لنفسه، عن تأنيب ضميره؛ إنها صحوة العالم، صحوة المؤمن. إن العلم والطب رسالة وأمانة ليست ملك حاملها بقدر ما هي ملك للناس. إن كلًّا منا لا يمتلك علمه أو موهبته. إن مالكها الحقيقي هو شعبنا كله مجتمعًا، وأن يستغل علمه وموهبته لفائدته الشخصية المحضة جريمة ليست بأقل من احتكار مواد التموين أو إخفائها. وإذا كانت قشعريرة تأنيب الضمير تتملكنا إذا جلسنا نلتهم الطعام وحولنا الناس جوعى فلا أن تتملكنا قشعريرة مماثلة ونحن نرى الناس من حولنا مرضى ونحن أصحاء، ونحن نرى الناس — أناسنا، شعبنا، بني جلدتنا — من حولنا جهلةً ونحن مُتْخَمون بالعلم، ولسنا فقط مُتْخَمين به ولكن نستغله؛ العلم الذي استأمننا مجتمعنا عليه وتعلَّمناه في مدارس شعبنا وكلياته ومستشفياته، نُغلق عليه صدورنا ونُخفيه ونستغله لأخذ نقود الجهلة، نستغل جهد الناس لا لإفاضة علمنا عليهم

ورفع مستواهم، ولكن لإبقائهم أكثر جهلًا وإبقاء أنفسنا أكثر علمًا حتى يستمروا في حاجة إلينا ونستمر نربح. أمانة حمَّلنا إياها المجتمع لنخدم بها المجتمع كله لا لكي نقصرها على مَنْ باستطاعته أن يدفع، ونحرم منها الملايين الذين لا يستطيعون.

لو أردنا إصلاح الوضع حقيقة

من يدري؟ ربما لو نشأت في نفس كل عالم وطبيب الثورة التي رأيت بوادرها لدى الدكتور أنور المفتي، ربما لو أمكننا أن نبدأ بأطبائنا ليضربوا للناس المثل الأول والأحق، ربما لو دعونا لثورة طبيبة يقودها الأطباء أنفسهم يتولون هم ما نريد من الدولة أن تتولاه، ربما لو أخذوا هم على عاتقهم — كنقابة وكفئة — تنظيم أمر العلاج وعدالة توزيع الأطباء، ومنع الأخصائيين من مزاولة ما يستطيع الطبيب العام مزاولته وقصر عملهم على الحالات التي تليق بعلمهم ومكانتهم، ربما لو أردنا أن نتقدم حقيقةً وبدأنا بأنفسنا لحلَلْنَا لشعبنا مشكلة مزمنة مستعصية، ولَضَرَبْنَا في التاريخ مثلًا فريدًا لم يقم به الأطباء في أي زمان ومكان.

وإلا فبربِّكم كيف نظل نتحدث عن التقدم وتحسُّن الأحوال، وننتظر أن تتقدم وتتحسن الأحوال دون أن نصنع نحن — ومن لحظتنا تلك — شيئًا للتقدم ولتحسُّن الأحوال؟ أية معجزة نعتمد عليها لتحسين الأحوال؟ وإذا تنصَّل كلٌّ منا عن مسئوليته في هذا التحسين فمن الذي سوف يقوم به ولا ملائكة تهبط على الأرض ولا شعب آخر باستطاعته أن يترك مشاكله ويتطوع لحل مشاكلنا؟ مَنْ سيفهم في علاجنا أكثر من أطبائنا؟ ومَنْ غير أطبائنا باستطاعته أن يحل مشاكل العلاج؟ وكيف نتصور الحل إذا لم يكن هكذا؟ أتريدونه بقوانين وبعقوبات؟ أنريد أن ننتظر الدولة أن تصنع كل كبيرة وصغيرة؟ لماذا لا نستيقظ وندرك الحقيقة البسيطة؛ حقيقة أننا نحن الدولة؛ نحن الشعب والدولة، والمشاكل مشاكلنا، والحلول لا بد أن تكون من صنعنا نحن ولا بد أن تنبع من إرادتنا؟ إذ هكذا يتمُّ الإصلاح، فلم يحدث أن ذكر لنا التاريخ أبدًا أن إصلاحًا تم بقانون، أو أنه حدث بناءً على مرسوم يهبط من أعلى. الإصلاح مثله مثل غيره يبدأ من أسفل، من الناس، من أصحاب المشكلة.

أُسْوَان الجديدة

ذهبت إلى أُسْوَان وفي ظني أني ذاهب إلى بلادٍ في أقصى الجنوب حارَّة جرداء يسير في شوارعها أناس سُمر الوجوه طيبون يناضلون الحَرَّ في كسلٍ وضِيق. ذهبت وفي ظني أني في طريقي إلى رؤية القدم البعيدة لبلادنا المغروسة في صحراء النوبة، المليئة بالخشونة والشقوق؛ أُسْوَان المقرونة في ذهني دائمًا بالحجر الأُسْوَاني الرمادي البني الثقيل الصلب القاحل الذي يصنعون منه أحجار الطاحونة. وكنا نعتقد ونحن أطفال أنه أثقل شيء في الدنيا، وأن القطعة منه لو سقطت على الرجل لهشمته. ذهبت وفي ظني أن أُسْوَان كلها ليست سوى أكوام هائلة ضخمة من هذا الحجر.

والعجيب أني حين وصلت وجدت هذا كله؛ وجدت الحر والجنوب الأقصى والناس الطيبين المنفيين بالوراثة الذين لا يدري الإنسان كيف يستطيعون الحياة على البُعْد الشاهق من العاصمة والتحضر، ووجدت صور الجرانيت أيضًا وصحراء النوبة، النيل ضيقًا مليئًا بالجُزر والأساطير، غامضًا ماردًا محيرًا.

ولكني وجدت قبل هذا كله وفوق هذا كله أنني كنت على خطأ في اعتقادي أني في طريقي إلى رؤية قدمنا الجنوبية. لقد وجدت القدم رأسًا آخر أكثر حيوية وتفاعلًا من العاصمة؛ وجدت أُسْوَان القدم في السنين الأخيرة قد نبَتَ لها رأسٌ ضخم يحتوي على أكبر عقل في بلادنا، وأن الآية انقلبت وبلادنا قد تحوَّر وضعها وأصبح رأسها في الجنوب وأقدامها في الشمال.

يكفي أن تذهب إلى محطة توليد الكهرباء من خزان أُسْوَان، يكفي أن ترى عنبرًا واحدًا من عنابر شركة كيما، وليكن عنبر إنتاج الأيدروجين الذي يُعتبر أكبر مصنع من نوعه في العالم لإنتاج الأيدروجين من الماء والذي يستهلك طاقة كهربائية تعادل الطاقة التي

تستخدمها مدينة القاهرة كلها ببيوتها وشوارعها ومصانعها، يكفي أن تزور موقع السد العالي، يكفي أن ترى الصعايدة المصريين وقد شقُّوا الجبل وحوَّلوا مجرى النيل وعدَّلوا في نظام الكرة الأرضية؛ لكي تدرك أن رأس مصر هنا، في هذه القطعة. وأنه بالعمل الدائر فيها، بالإنسان الجديد الذي تصنعه، بشهدائها شهداء أشرف وأنبل معركة: معركة البناء، بالاشتراكية التي تحققها إنتاجًا وتشييدًا وواقعًا حيًّا ملموسًا يبهر العين مرآه؛ يكفي أن ترى هذا لتدرك أن التاريخ أيضًا يغير مجراه، وأنه إذا كانت التطورات في حياة مصر كانت تحدث دائمًا وعبر الأجيال من الشمال إلى الجنوب؛ فالتطور هذه المرة يعكس اتجاهه ويبدأ من جنوبنا صاعدًا مع الماء المتدفق إلى الشمال.

إن أروع ما في السد العالي هو الإنسان الذي بنى السد العالي. هم الصعايدة الذين لا يزالون يرتدون نفس الجلاليب الممزَّقة، الحُفاة النِّحاف الذين يبدون كالأقزام الأسطورية الصغيرة وهم يسيرون بجوار الحوائط الضخمة الهائلة التي أقاموها. هم هؤلاء الناس الذين لا يكلُّون عن البناء، الذين أقاموا السد الأكبر وبالأمس انتهوا من السد الأصغر وحوَّلوا مجرى النيل مرةً عند خزان أُسْوَان، وها هم أولاء يغلقون النيل بسور ارتفاعه ١١٠ أمتار وبعرض كيلو من القاعدة، ويفتحون في بطن الجبل نيلًا آخر يتدفق من مياهه الكهرباء بالمجَّان وبحركة الماء، بحركة التاريخ؛ فمنذ الآن فصاعدًا سنجعل ماء نيلنا يحرِّك التاريخ، نجعل الماء الذي كان مستسلمًا لقدره ذاهبًا مضيَّعًا رغم أنفه إلى البحر مثلما كنا نحيا ذاهبين مضيَّعين رغم أنوفنا، سنجعل هذا الماء يملك زمام مصيره مثلما ملكنا أزمَّة مصيرنا، ومن هذه القدرة نفجر الكهرباء، وبالكهرباء نعيش ونصنع المستقبل.

إن أخطر ما يحدث في أُسْوَان الآن هو تلك العملية الإنسانية الكبرى، هو هذا الالتقاء الضخم الذي يحدث على مرأى ومسمع ومشاركة من الإنسان المصري الجديد، بحرِّية الالتقاء بين صناعة ألمانيا الغربية محاكيًا، وقدرة الاتحاد السوفيتي الهندسية في هذا السد، والإنسان المصري يشهد التفاعل والفضاء وتنضجه التجربة بسرعة مذهلة ويُثبت وجوده إثباتًا معجِزًا، ويستفيد من احتكاكه بالغرب والشرق معًا ومن تناقضات الغرب مع الشرق، هذه العملية الإنسانية السياسية العبقرية الكبرى تدور اليوم في موقع السد العالي، وتدفع بنيكسون ذات مرة إلى أن يخجل من نفسه ويعترف بهذا الخجل؛ لأنه وقف ذات يوم ضد هذا المشروع العظيم.

أجل، إن ما يحدث في أُسْوَان ليس هو مجرد عمليات هندسية ومشاريع تقام. إن ما يحدث في أُسْوَان ثورة حقيقية، ثورتنا الحقيقية، مبادئنا التي تتحقق، إصرارنا الذي

يؤتي ثماره، إنساننا الذي يغير ويتغير، حضارتنا الجديدة التي ننتزعها من قلب الصخر وبالعرق والأظافر والدم والضحايا. عملية كان لا يمكن أن تتم إلا بثورة، إلا بأن نثور لنحقق إرادتنا، لنُملي إرادتنا، لنفتت صخور أُسْوَان، لنحطم الجبل، لنكسر أنف دالاس، لنهزم إنجلترا ونشرد إيدن، لنُحيل إسرائيل الغادرة من كلبٍ مخادعٍ إلى فأر مذعور، لنقول للتاريخ: كن فيكون.

إن أروع ما تحسُّه وأنت في أُسْوَان هو إحساسك أننا قادرون، إذا أردنا قادرون. إن أهم ما تحسه هو استعادتك لثقتك بنفسك كمواطن، وثقتنا بأنفسنا كشعب، وثقتنا بالعالم كمكان من الممكن أن يوجد فيه أصدقاء، ومن الممكن أن يُبْنَى على تعاونٍ وإخاء وأن يتحول من غابة مليئة بالأحراش والوحوش إلى حديقة مليئة بالزهور والأشجار المستأنسة والأطفال الأصحَّاء والأمهات السعيدات.

لقد تغيَّر العالم لتُولَد أُسْوَان الجديدة، وسوف تغيِّر أُسْوَان الجديدة من العالم ونرجو أن تصنع منه عالمًا — مثلها — جديدًا بنَّاءً، مسالمًا، رحبًا، سعيدًا.

توضيح

كنت — ولا زلت — أعتقد أن من واجب الكاتب أن يلزم الصمت إزاء المناقشات التي تدور حول عمله؛ باعتبار أنه لا يملك أن يضيف من عنده ما ينقص أو يزيد من مفهوم العمل نفسه. ولكن المناقشات حول مسرحية «الفرافير» بدأ بعضها يأخذ اتجاهًا غريبًا لا أعرف كيف أسميه وإنما أعرف تمامًا أنه خارج نطاق الفن والثقافة عامةً. والكاتب ليس مسئولًا — في رأيي — عن أي مفهوم خاطئ يخرج به الناقد أو المشاهد أو القارئ، وهو أيضًا ليس مسئولًا عن الآراء التي يتبرع بها بعضهم. ولقد تبرع هذا البعض بآراء كثيرة يهمني — بصفة خاصة — أن أدحضها هنا:

أولًا: نسب لي البعض أنني كتبت هذه المسرحية لأثبت أن العلاقة بين الفرفور والسيد علاقة أبدية لا سبيل إلى الفكاك منها، وهو رأي لا أدري من أين استقاه أصحابه. إن المسرحية كلها صرخة احتجاج غاضب على هذا الوضع، واستغاثة عاجلة لتغييره، وإصرار على أن كل الحلول التي جربتها البشرية لم تحلَّ بصفة قاطعة هذا الوضع المعين لكرامة الإنسان، فهل يُعَد نقد هذه الحلول والمطالبة بحلٍّ جديد تشاؤمًا بمستقبل البشرية؟

ثانيًا: وزعم آخرون أني ربطت قضية السيد والفرفور بقضية نواة الذرة والإلكترونات التي تدور حولها، ومعنى هذا أني أقول: إن العلاقات بين السيد والفرفور يجب أن يكون لها خلود هذا القانون الطبيعي.

والذين زعموا هذا لم يفهموا النكتة الدرامية في الموضوع؛ أحالوا «الدراما» إلى تشريع سياسي. ولست أدري ماذا أستطيع أن أضع إزاء هذا الفهم إلا أن يتصدى ناقد مسرحي ليتولى إفهامهم الفرق بين الرؤية المسرحية التي تُبْتَكَر لتجسيد حيوية مشكلة ما وأهمية وجود حل لها، وبين أخذ هذه الرؤية على محمل التشريع والتقنين؟

مثلهم في هذا مثل من يكتب في قصة تعبيرًا يقول فيه: إن فلانًا هذا كان أطول من النخلة، فيتصدى له من يقول: كيف تزعم أن الإنسان ممكن أن يكون أطول من النخلة، في حين أن النخلة طولها عشرة أمتار أو عشرون، وأطول إنسان لا يتجاوز المترين؟! إن الذي أوجد هذا الفهم الخاطئ — في رأيي — هو أني لجات إلى هذا «التشبيه» «الذري» كتعبير «فني» فأخذه البعض على أنه «قانون» «علمي» يعبِّر عن «حقيقة». وفارق المفهومين هنا كالفارق بين الأرض والسماء، بين طول النخلة وطول الإنسان، بين العلم والفن، بين الحقيقة والدراما.

ثالثًا: ووصل الأمر ببعض الزملاء إلى أن اتهموا المسرحية بأنها تتعارض مع الاشتراكية باعتبار أنها لم تجد حلًّا لمشكلة السيد والفرفور في الاشتراكية، ومعنى هذا أن ميثاقنا الوطني يتعارض مع الاشتراكية؛ لأنه رفض الحلول الجاهزة وراح يبحث لنا عن طريق ثالث. ومعناه أيضًا أن على الاشتراكيين أن يغلقوا عقولهم عن ابتكار حلول للمشاكل التي تتمخض عن التطبيق، بل عن الاشتراكية نفسها للوصول بها إلى مرحلة الكمال. لقد كتبت هذه المسرحية كاشتراكي ثوري يؤمن أن الاشتراكية هي عملية تطوير مستمر للفكر الاشتراكي وللمفاهيم الاشتراكية. وأي محاولة لغلق باب الاجتهاد في الاشتراكية هي محاولة ضد الاشتراكية نفسها؛ لأنها محاولة لإلغاء قدرة الكائن البشري على الخلق والتطور والارتقاء.

رابعًا: ذكر الأستاذ إحسان عبد القدوس أنني أقصد أن المؤلف هو الله، وردَّ عليه الأستاذ سامي داود ذاكرًا أن المؤلف الذي في المسرحية لا يمكن أن يكون الله وإن كان يمكن أن يُفْهَم على أنه الإله الذي خلقه المشعوذون وتجار الدين. والمؤلف في المسرحية في رأيي ليس هو الله الذي قصده إحسان، وليس هو الله الذي قصده سامي داود، وليس إلهًا أبدًا.

ولكنه مؤلف المسرحية الذي يحاول السيد والفرفور الاتفاق أو الاختلاف على تمثيلها وتوزيع الأدوار بينهما فيها. إنه مؤلف يكتب حلقات في الإذاعة ويرتدي بنطلونًا قصيرًا ويصفر كلما عنَّ لأبطاله أن يناقشوه في توزيع الأدوار؛ لأنهم حينئذٍ إنما يبدءون يفكرون ويتساءلون: لماذا وكيف؟ ونحن بدأنا نتساءل تجاه أي مؤلف أو عمل فني، إذا بدأنا نتساءل: لماذا لم يجعل شكسبير روميو وجولييت يعيشان ويسعدان بالحياة معًا، ولماذا آثر أن ينتحرا؟ إذا نحن بدأنا نتساءل عن هذا فمعناه أننا بدأنا نرفض التسليم بتأليف شكسبير، معناه أنه بدأ يصغر في أذهاننا ويتضاءل؛ لأننا نحن بدأنا نؤلف له ونكبر

ونناقشه ونقترح عليه الحلول؛ معناه أنه أصبح مثلنا أو أقل، أصبح قزمًا، وهذا هو ما يشير إليه.

تضاؤل حجم المؤلف في المسرحية

خامسًا: ذكر بعض السادة النقاد أنني أخذت شكل المسرحية من بريخت وبيرانديللو ويونسكو والمسرح الإغريقي الروماني والسامر الشعبي المصري. وفي رأيي أنه إذا استطاع كاتبٌ مسرحيٌّ ما أن يأخذ من هذه المصادر جميعها ويتأثر بها ويقدِّم عملًا فيها لا يمكن نسبته إلى أيٍّ منها فهو عبقريٌّ من الدرجة الأولى؛ ولكني لست هذا العبقري؛ لسببٍ بسيط هو أن مصدر تأثري الوحيد في هذه المسرحية كان بالسامر الشعبي المصري الذي طالما أحببته وأنا طفل وطالما فكرت في تطويره إلى مستوى علمي معاصر. حقيقةٌ أذكرها لا لسبب إلا لأنها الحقيقة، فإذا ما آثرَ البعض أن يتجاهلها فالذنب في هذا ليس ذنبي.

سادسًا: المشهد الأخير في المسرحية فهِمه البعض على أنه انتقال إلى العالم الآخر، ولكنه ببساطة ليس سوى تجربة من التجارب التي أقام بها الفرفور والسيد لإيجاد حل للمشكلة. فكما حاولا أن يصنعا الدولة كحلٍّ، يحاولان تجربة حل الموت وليس الموت نفسه، ووضع نهاية لحياتهما ككائنين حيَّين.

سابعًا: أخطأ بعض الذين كتبوا عن المسرحية ونسبوا — بحسن نية — فكرة إدماج المتفرجين في الممثلين والجمهور بخشبة المسرح ودخول بعض الممثلين من أبواب الصالة إلى أنه من عمل المُخرِج، والحقيقة أن هذا كله وارد بالنص في المسرحية.

فالمسرحية كتبتها على أساس نظرة جديدة مستمَدة من فكرة السامر، وكان مفروضًا أن تقدَّم على مسرحٍ دائري يحيط به الجمهور من كل جانب، ولكني ذكرت أنه بالنظر إلى صعوبة تحقيق هذا في مسارحنا الحالية فلا بد من اتخاذ وسائل ميكانيكية في الديكور تصل خشبة المسرح بالصالة وتسمح بامتزاج الممثلين بالجمهور.

كذلك ذكر الدكتور مندور أن النص المُقدَّم على خشبة المسرح غير النص الذي كنت قد قدمته للجنة القراءة. والحقيقة أني بعد تقديم النص المذكور إلى لجنة القراءة قررت من تلقاء نفسي أنه من المستحسَن أن يُدْمَج الفصلان الثاني والثالث معًا بحيث ترِد المحاكمة على ألسنة زوجة فرفور وزوجة السيد والميت وفرفور والسيد نفسه. وإذا كان

المشهد الأخير في المسرحية قد شابَهُ بعض الكآبة بفضل الإضاءة؛ فالسبب في هذا أن رأي الصديق كرم مطاوع والمُخرِج أنه بعملية الموت لا بد أن توضع نهاية للتجارب التي يقوم بها فرفور وسيد، في حين أن عملية الموت في النص المسرحي ليست إلا، كما ذكرت، واحدة من سلسلة التجارب التي يقومان بها والتي لا يمكن أبدًا أن تنمَّ عن التشاؤم أو اليأس.

وعلى العموم فنص المسرحية سيكون بعد أيام في متناول القراء وباستطاعة من فاته استيعاب أجزاء المسرحية أن يرجع إليها في النص. وإني متأكد أنه لو حدث هذا لزال الكثير من اللبس. وما أسرعنا أحيانًا في إزجاء التهم دون تمحيص أو محاولة من جانبنا لفهم أعمال ربما بذل أصحابها أعمارًا لإنجازها، ونستكثر نحن بضع ساعات نقف فيها أمامها وقفة المتأمل المحايد، وليس وقوفَ الباحث عن احتمال الخطأ، المسارع إلى إطلاق الأحكام وكلها أحكام متشائمة نزعم بها أننا ندين التشاؤم ونندد به! يجب أن نتعلم جميعًا كيف نثق أكثر في أنفسنا وفي بعضنا البعض، وكيف ننبذ سوء النية والترصد. إني كاتب ملتزم، وأَهْوَن عندي ألف مرة ألا أكتب بالمرة، من أن أكتب عملًا أشعر من بعيدٍ أو قريبٍ أن الرؤية المسرحية التي تُبْتَكَر لتجسيد هذا العمل، هي ضد ما أومن به وأعتقد.

كأنهم سيموتون غدًا

كأنك تموت غدًا، يبدو أنه الشعار الذي أصبح يطارد جماهير الطبقة المتوسطة عندنا، طبقة الزبائن والقادرين على الشراء بأفرعها في المدن، وبين العمال والفلاحين، الشعار: اشترِ اشترِ، اشترِ أي شيء وكل شيء، البقاء للبضائع والهلاك للنقود، والضمان الأكيد هو أن تحوِّل كل قرش لديك إلى سلعة. موجة بدأت تيارًا لكنها سرعان ما استحالت إلى حمَّى وجنون مُطبِق. بالأمانة وبكل صدق لا أستطيع أن أسميها إلا أنها حالة جنون جماعي — كجنون الكرة — اجتاحت الناس القادرين على الشراء وحتى سرَت العدوى إلى غير القادرين. سمنٌ يهبط السوق يسبِّب سعارًا وطوابير، وتكسيرًا للمحلات، وتدخل البوليس لمنع الناس؛ وأخيرًا التوقف عن البيع. أي شيء: جبنة، حلاوة، قماش، مسامير، خشب، أرض، آلات، في جنونٍ أحمق وبلا أي ثانية تفكير، ودون حاجة مُلِحَّة يشتري الرجال وتشتري السيدات، وتكون النتيجة التهاب الأسعار وارتفاعها، ارتفاع ليته يصيب هذه الطبقة القادرة، ولكنه للأسف يأخذ في طريقه المساكين غير القادرين.

كنت معظم اليوم في ورشة «فولكس واجن» شركة مصر للسيارات، كانت عربتي رفيقة الطريق قد أخناها الكدح والكد بعدما قطعت بها أكثر من مائة وخمسين ألف كيلومتر في خمسة أعوام. وبهذه المناسبة لا زلت أذكر كيف كنت أخجل من الحديث عن عربتي أو حتى مجرَّد ذكر أن لي عربة وإن كانت صغيرة باعتبار أن العربات كان يُظَن أنها تُسْتَعْمَل للزينة والوجاهة.

ولكن العربة اليوم — كما قرأت لأحمد بهاء الدين وعن حقٍّ — يستعملها الكادحون من مهندسين وأطباء ومحامين ومحاسبين وحتى بعض العمال. العربة اليوم آلة أكل عيش، بل هي فيما أعتقد «زمن» تشتريه بأرخص الأسعار. إني في اليوم الذي تتعطل عربتي فيه أصرف على المواصلات أضعاف ما تكلفه العربة، وأفقد أربعة أو خمسة أضعاف الوقت

الذي أربحه منها. المهم ذهبت إلى الورشة كي أغيِّر ما أبلاه الزمن من الفولكس، فوجدت — ويا للهول! — أن السعار قد وصل إلى هناك، استوردت الدولة قطع غيار بمئات الآلاف من الجنيهات لإنقاذ ذلك الجزء من ثروتنا القومية المتمثل في العربات، ولكن النتيجة شيء يصاب له المرء بخيبة أمل. أصحاب العربات اندفعوا في حمَّى مجنونة لاقتناء ليس فقط ما يحتاجونه من قطع الغيار، وإنما أضعاف أضعاف ما يحتاجونه، بل تاجر البعض منهم بقطع الغيار في السوق السوداء فكانوا يأخذونها بالسعر المحدد لها من ورشة القطاع العام ليبيعوها في الخارج بأضعاف سعرها.

ولقد أراني المهندس عبد المنعم مدير الورشة «قائمة عمل» لإحدى العربات، ثابتٌ فيها أن الورشة قد رُكِّبَت لها فوانيس أمامية وخلفية ثلاث مرات في شهر واحد. وإذا عرفت أن الورشة قررت — منعًا للتلاعب — أن يُسلِّم كل زبون «فانوسه» القديم ليحصل على فانوس جديد، إلا في حالة سرقته وإثبات هذه السرقة بمحضر بوليس؛ لأدركت المهزلة الكائنة وراء هذه العربة؛ فملحق «بقائمة العمل» ثلاثة محاضر بوليس يبلغ فيها صاحبها أن فوانيسه قد سُرِقَت ثلاث مرات في شهر واحد. بربكم ماذا سيفعل صاحب العربة بهذه الفوانيس إلا أن يبيعها ويتاجر فيها؟ فإذا عرفنا أنه موظف عام، بل موظف عام مفروض أن يشغل وظيفة يطبق فيها القانون ويحمي مصالح الوطن؛ لأمكننا أن ندرك مدى الهوَّة التي بدأ بعض مواطنينا يتردَّون فيها، فتحوِّلهم حمَّى الاقتناء من مواطنين شرفاء إلى تجار صغار حقيرين في سوق سوداء هم خالقوها وهم زبائنها. نقتطع من لحمنا الحي — كما يقولون — عملات صعبة نشتري بها قطع غيار لننقذ عربات المواطنين من العطب، فلا يتورَّع مواطن — كصاحب العربة المذكورة — من أن يحيل نفسه إلى لص صغير طمعًا في كسب بضعة جنيهات، أو يحيل نفسه إلى جشع مجنون من فرط خوفه ألَّا تَرِدَ قطع غيار بعد هذا؛ يسمح لنفسه بامتلاك ثلاثة أو أربعة أو ربما عشرة بديلات لقطعة الغيار.

ارتداد لأحط الغرائز

لقد ظللت أفكر طويلًا في تلك الظاهرة، وهداني تفكيري إلى أنها ظاهرة ذعر جماعي أصاب الطبقة المتوسطة المذعورة بالسليقة، ذعر من الغد، خوف حيواني دنيء يدفعها لتأكيد ذاتها عن طريق التملك الأكثر، التملك بلا حدود، السرقة إن أمكن، النهب، وطء مصالح غيرهم بالأقدام في سبيل أن يفوزوا بما هو أكثر من حقهم بكثير، بحقوق غيرهم، ظاهرة أخلاقية اجتماعية مهما قيل في وصفها فإنها لا تخرج عن كونها ارتدادًا إلى أحطِّ غرائز

الحيوان في لحظة الذعر. ونحن لو تأملنا حياتنا قليلًا لوجدنا أن لا مكان للذعر، بالعكس كل العلامات تؤكد وتدل على الاطمئنان، بل حتى إن كانت هناك أزمات في بعض مواد التموين أو الحياة اليوم فهي أزمات في طريقها إلى الحل، وأننا نغادر عنق الزجاجة ولا نُقْبِل عليه، ولكن هذه الطبقات لا وقت لديها للتأمل والتدبر. لقد لاحظت بجانبٍ من عيني سيدةً في أحد محلات الأقمشة تشتري القطع المتتالية من القماش حتى دون أن تتوقف لحظة لتتأمل اللون أو نوع القماش؛ ذعر حقيقي مروع هو ما كان يدفعها لهذا؛ فحتى لو كانت القيامة ستقوم غدًا، ما أسرفت في الإنفاق إلى هذا الحد.

وأعتقد أني، وأننا جميعًا، نؤذن في مالطة لو حاولنا النصح والإرشاد، لو أخذناها كمشكلة أخلاقية يحلها الوعظ وتحلها التوعية، إني أعتقد أن الحال قد وصلت إلى الدرجة التي لا بد معها من اتخاذ إجراءات قانونية وتشريعية فعَّالة تسكب الماء البارد على تلك العقول المذعورة المحمومة. نحن في حاجة إلى تشريعات أكثر صرامة بكثير لمقاومة تجار السوق السوداء وزبائن السوق السوداء على حد سواء. وفي نفس الوقت لا بد من تعميم نظام البطاقات، إنها مهمة ليست يسيرة ستستغرق وقتًا ومجهودًا ولكنها أمر حتمي لا بد منه؛ ليس من أجل إيقاف هذه الحمَّى فقط، وإنما أولًا وأساسًا من أجل حماية المواطن المحدود الدخل والفقير، من أجل أن يجد نصيبه وحقه في يوم الحشر هذا، البطاقات لكل شيء، للأقمشة — إن أمكن — للأحذية، للجوارب، للسمن، للحم، للطيور، ولكل مادة حيوية.

إن هذا القطيع من الحيوانات المذعورة لا يمكن أن يوقفه إلا عصا، عصا لا بد من استخدامها لحماية الآدميين الذين كل ذنبهم أنهم محتاجون ولكنهم غير قادرين.

معرض عبد السميع

لا أعرف سر حبي لأعمال الفنان عبد السميع عبد الله في التصوير الزيتي. ربما لأني أستطيع قراءته، ربما لأنه — وهو الكاتب — بإمكانه أن يوصل لي انفعاله من خلال الفرشاة بمثل ما يستطيع حين يمسك بالقلم. ولكني أتابع أعماله باهتمام كبير، ومنذ بضعة أيام ذهبت إلى معرضه الثاني في زيارة سريعة، وأنا أحب أن أستوعب الأعمال الفنية على دفعات، والانفعالة الأولى لها دائمًا عندي طعم خاص كالقطعة الموسيقية حين تسمعها لأول مرة، كالقصيدة حين يداعب أذنيك وَقْعها لأول وهلة، كوقع مشهد جميل تراه أول رؤية. لا شك أن التعمُّق في العمل واستيعابه على مهلٍ له هو الآخر جماله ومذاقه، ولكنه جمال ومذاق لا يُلغي أبدًا أثر الطعم الأول. وهكذا، في تلك الزيارة السريعة عشت تلك اللحظة مع المتعة الأولى لأعمال عبد السميع. في معرضه الأول كان عبد السميع يبحث عن طريق، كان كثير النظريات والآراء، تكاد كل لوحة أن تتحول إلى تجربة لونية تشكيلية منفصلة. ولقد عرفت أن عبد السميع قد وضع قدمه على أول الطريق حين لمحت «المصرية» تكاد تنطق من آخر لوحاته وتجاريبه في تلك الآونة؛ المصرية في الموضوع واختياره. إن الشاي وشربه وصينيته وفناجينه ورشفاته عند الفلاحين متعة اكتشفها عبد السميع وسجَّلها، والإغراب في التعبير طبيعة مصرية نطق بها الفنان المصري حين اخترع يا طالع الشجرة، وكان عبد السميع قد لمس أوائل مفاتيح الإغراب في استعماله للتربيعات وتوزيعات اللون. في هذا المعرض الثاني لم يعدم عبد السميع البحث عن طريق، كان قد وجده وضمَّ عليه صدره ثم انطلق، عرف الطريق وأصبح همه بعد هذا، البحث عن أهداف ونتائج، وما أروع الأهداف والنتائج التي وصل إليها عبد السميع في معرضه الثاني، إني لا أتحدث عن كل اللوحات؛ فالغريب أنه بينما بعض اللوحات قمم كبرى توجد كثيرات غيرها تبدو كما لو كان صاحبها يتهجى، أو كما لو كان غير صاحبها. والغريب أننا بينما نجد عبد السميع في رسومه الكارتونية لاذعًا

يكاد يُدمي وفي قصصه القصيرة صارخًا يكاد يضع لأبطاله عملية «إستربتيز» نفسي، صور عبد السميع الزيتية تُرينا جانبًا ثالثًا من تكوينه وشخصيته، جانبًا حالمًا رءومًا شاعريًّا رقيقًا وكأنه يرسم بمشاعر أم وبأناملها، جانبًا نبيلًا حزين الإشراق واهن التفاؤل واسع الصدر وكأنه يرسم بفرشاة مسيح؛ ألوانها هادئة ولكنها ليست باهتة؛ لا يلون بها وإنما يستعملها في إضفاء موسيقى ضوئية راقصة أحيانًا، هائمة في أحيان أخرى بلا هدف. خرجت من المعرض وأنا — يقظٌ في الأول — أحس أني أَخَفُّ كثيرًا مما دخلته، في نفسي إحساس منعش وكأني أَلُوك في فمي حبات نعناع.

شكرًا يا عبد السميع.

لنجرب منح الاتحاد الاشتراكي السلطة

كثيرًا ما أجلس إلى نفسي طويلًا أفكر في مشكلة الاتحاد الاشتراكي، ولا أقول هذا تفاخرًا وإظهارًا؛ لأني بيني وبين نفسي أفكر في مشاكلنا العامة، إنما أقولها لوجه الحقيقة، ولوجه آخر أعتقد أن الإنسان لا بد أن يصل إليه حين يفكر بعمق في مشاكله الخاصة فيجد أنها نابعة بجذورها العميقة من مشاكلنا العامة ومرتدة منعكسة إليها. إني أرقب تجربة الاتحاد الاشتراكي منذ عامين عن كثب شديد، أرقبها في وحدة قريتي، وفي وحدة عملي بجريدة الجمهورية. والغريب أنه مع الفارق الشاسع بين قريتي وبين الجريدة في المشاكل والظروف والمستوى الاقتصادي والثقافي والسياسي للأعضاء المنتخبين أو العاملين هنا وهناك، إلا أن المدهش أن مشاكل الاتحاد الاشتراكي واحدة في الحالتين، وأبرز هذه المشاكل جميعها وأهمها هو انعدام فاعلية لجنة الاتحاد في المجالين، بمعنى أدق عدم إمكانها قيادة المواطنين في المجالين.

فالمفروض أن الاتحاد هو القيادة الحقيقية لشعبنا، من أجل القيادة قام. وإذا حدث وفقد القدرة عليها فمعناه أنه فقد المبرر الأول لوجوده. في قريتنا مثلًا فشل الاتحاد الاشتراكي في جمع النقود اللازمة لإدارة ماكينة النور إلى درجة أنها بقيت شهرين معطَّلة في انتظار بضعة قروش لإصلاحها وتشغيلها، قروش لا تتعدى الجنيهات الثلاثة في الشهر، وأن تفشل قيادة قرية في جمع ثلاثة جنيهات من سبعة آلاف مواطن وثلاثة آلاف صوت انتخابي معناه ببساطة أنها ليست قيادة بالمرة، في حين أنها لجنة جاءت نتيجة انتخابات ومعركة حامية واكتساح. وهنا في الجريدة ورغم احترامي لكل الزملاء أعضاء اللجنة إلا أني شخصيًّا لم أحس للجنة بأي نشاط إلا إذا كانت هناك مطالب خاصة للعمال أو للعاملين بالدار، حينئذٍ تمتلئ الاجتماعات التي تدعو إليها اللجنة بالحاضرين. واجتماعات كهذه يُعْتَد بها؛ لأن الحركة فيها حركة إلى مكاسب وليست حركة إلى واجبات. والحقيقة

أنها ليست لجنة قريتنا أو جريدتنا فقط، إنها ظاهرة عامة في كل لجان الاتحاد، فما هو السبب؟

السبب ليس هو الانتخاب كما يعتقد البعض؛ فلا توجد طريقة أخرى تستطيع أن تختار بها الأعضاء في الوقت الحالي أصلح من هذه الطريقة. والسبب ليس تقاعس الأعضاء وضعف الهمم؛ فهؤلاء الأعضاء كأفراد كلهم من ذوي النشاط ومعروفون بغيرتهم وقدرتهم كأفراد.

السبب في رأيي أن عدم فاعلية الاتحاد الاشتراكي ككل هو السبب في عدم فاعليته كلجان. والعكس صحيح أيضًا؛ فعدم فاعليته كلجان هو السبب في عدم فاعليته ككل.

بمعنى أوضح: ما هو دور الاتحاد الاشتراكي في حياتنا؟ إن ميثاقنا وقانون الاتحاد الاشتراكي حافل بالعبارات التي تنص على أن الاتحاد الاشتراكي هو التنظيم الأم لكافة تنظيماتنا السياسية والبرلمانية والحكومية، بمعنى آخر هو المصدر الأعلى للسلطات جميعها.

ولو كان الاتحاد الاشتراكي قد قام على هذا الأساس فعلًا لما كانت هناك مشكلة ولأصبح الاتحاد فعلًا قوتنا وقيادتنا القادرة على تحريك جماهيرنا وتوعيتها وقيادتها وحل مشاكلها. إنما المشكلة أن الاتحاد الاشتراكي ليس المصدر الواضح المعروف للسلطات عندنا؛ فالحكومة لها سلطة؛ إذ هي تحكم وتنفذ وتُعيِّن وتُنشئ وتُقيِّم، والمؤسسات لها سلطة، ومجلس الأمة له سلطة محاسبة الحكومة والقطاع العام والخاص، فأين هي سلطة الاتحاد الاشتراكي؟

إن الذي يفرق بين أي تنظيم سياسي وغيره من التنظيمات الاجتماعية أو الخيرية هو أن الأول يملك سلطة تنفيذ — على الأقل — على أعضائه المنضمين إليه، ولكن لجنة الوحدة ليست لها السلطة على أعضائها.

فالرقابة الشعبية لا تكون إلا حين يتولى تنظيمٌ شعبيٌّ عملية الرقابة، في نفس الوقت يكون باستطاعتها التدخل لتصحيح الأخطاء. بهذه الطريقة وحدها تتغير وجهة نظرنا — حتى كمواطنين — إلى الاتحاد الاشتراكي، وإلى أنفسنا باعتبار أننا نحن الاتحاد الاشتراكي، لأدركنا أننا بواسطته نقود أنفسنا بأنفسنا، ونحكم أنفسنا بأنفسنا، ونراقب أنفسنا بأنفسنا، لشعرنا بقوة أنه مركز تجمُّعنا العصبي الذي يجب علينا باستمرار أن ندعمه ونقويه؛ لأننا حينئذٍ إنما ندعم قدرتنا الذاتية كأفراد وكشعب وكقيادة.

ولا يصلح بديلًا لهذا الحل تكوين التنظيم السياسي المقترح؛ فأي تنظيم سياسي بلا فاعلية أو سلطة إنما هو شكلٌ بغير محتوى. بالعكس بمنح الاتحاد الاشتراكي سلطاته

الواردة بالميثاق والقوانين إنما نجعل من التنظيم السياسي ليس المحرك للاتحاد الاشتراكي، ليس الموتور كما هو متصور وكما لا يمكن أن يحدث؛ لأن الموتور يجب أن يكون — على الأقل — في ضخامة التنظيم كله، وإنما سنجعله جهاز القيادة لاتحاد قائم ومتحرك بالفعل، وجهاز وعي عاقل وينظر لجسدٍ حيٍّ تام الصحة.

باستطاعتي أن أحدِّث القراء الأعزاء عن ثلاثة وجوه جديدة في وزارة السيد زكريا محيي الدين الجديدة، وكم كنت أودُّ لو أعرفهم كلهم لأقدِّمهم للقراء، فمن الأشياء التي لا أستريح لها معاملتنا للمسئولين على أنهم مناصب، ومعاملة المسئولين لنا على أننا مواطنون. إننا قبل هذا وذاك آدميون، أفراد في شعب واحد كبير عظيم.

أغرب زفاف جماعي طائر!

الأحد

خبر كنت قد قرأته من عدة أسابيع عن زفاف جماعي يتم في إحدى القرى المجاورة للهرم، حيث يتم زواج أكثر من مائة شاب في ليلة واحدة من ليالي العام توافق الليلة الكبيرة لمولد وليٍّ من أولياء الله الصالحين. تذكرت اليوم هذا الخبر ووجدتني أتذكَّر للتوِّ زفافًا جماعيًّا آخر يحدث في عالم غير عالمنا.

والحقيقة، ما أحوجنا إلى أحاديث الحب والزفاف في عالم يحيا على قمة صاروخ ذي رأس ذري قد ينفجر في أي لحظة ويُفنيه ويُفنينا معه. العالم الذي يحدث فيه هذا الزفاف الآخر هو عالم النمل، ولا بأس أيضًا من الحديث عن النمل. بل لا أرى أبدًا بأسًا في أن نتعلم من النمل كيف نحيا وكيف نسلك؛ فالنمل مجتمع مُجِد مجتهد، يقضي معظم حياته في عمل لا يكل. ومع هذا فله هو الآخر أيامه التي يفرح فيها ويحتفل، وأسعد أيامه تلك وأَرْوَعها هو يوم الزفاف الجماعي حيث تُزَفُّ فيه ملكات كل جحر إلى الذكور تمهيدًا لإنشاء مستعمرات نمل جديدة وإكثار النوع، والنمل ليس نوعًا واحدًا؛ فله ما يزيد على الخمسة عشر ألف نوع، وكل نوع يحيا على هيئة جماعة مكونة من عدة ملكات وعدة ذكور، وغالبيتها العظمى مكونة من أفراد لا أنوثة فيها ولا ذكور اسمها الفعلة أو الشغيلة، ووظيفتها الوحيدة هي القيام بكل ما تتطلبه حياة الجماعة من عمل. وكل نوع من أنواع النمل له يوم زفاف جماعي خاص به، يختار للاحتفال به عصر أحد أيام الصيف أو الربيع الدافئة، ولكنك لا بد أن تلمح علامات الاستعداد لهذا الحدث العظيم قائمةً قبل

يومها بأيام أو بعدة ساعات. وأُولى هذه العلامات ازدياد الحركة بين أفراد الفَعَلة واندفاع جماعات كثيرة منها داخلة إلى الجُحر وخارجة منه تجوب كل بقعة من المنطقة المحيطة به وتفتشها وتحرسها حراسة منتظمة لتتأكد من خلوِّها من الأعداء قبل خروج موكب الزفاف الملكي.

كيف يبدأ يوم الفرح؟

في هذا اليوم بالذات لا يؤدي الفَعَلة للجماعة أي عمل يُذْكَر، والعمل الوحيد الذي تقوم به هو توسيع مدخل الجُحْر والممرات المؤدية إليه لتسمح بمرور الملكات وأجنحتها الجديدة دون أن يلحقها أذى، وملكات النمل لا يغادرن الجحر أبدًا إلا في يوم الزفاف هذا، ولأن حجمهن أكبر من حجم النمل العادي ويبلغ في حالات نادرة — كما في النوع المسمى «الميرمسينيا» — سبعة آلاف ضِعْف حجم النملة العادية، فلا بد من توسيع الممرات خاصة، والملكات قد نبتت لها أجنحة، فزفاف النمل لا يتم على الأرض ولكنه يتم في طبقات الجو العليا؛ ولهذا تنبت للملكات والذكور أجنحة تُستخدَم في رحلة شهر العسل هذه فقط وتسقط بعدها. وتوسيع الممرات هذا هو المسئول عن أكوام الأتربة التي نلاحظها قريبة من جحور النمل مع بدايات الربيع، وهي تدل على اقتراب يوم الزفاف.

وحين تتم الاستعدادات النهائية تبدأ حركة هرج ومرج غير عادية تحدث بين الفَعَلة خارج الجحر، ثم لا يلبث أن يتضح السبب إذ يكون الموكب قد بدأ يتحرك. وتبدأ الملكات والذكور في الظهور، وفي أعقاب كل ملكة وذَكَر ثلاثة أو أربعة أفراد من الفَعَلة عملها تثبيت كلٍّ منها في الأرض حتى لا تنطلق بأجنحتها الجديدة، وأيضًا سحبها بعيدًا عن المدخل لتُفسح الطريق لغيرها، وأهم من هذا وذاك إبقاء الذكور بعيدة بُعدًا كافيًا عن الملكات حتى لا يحدث أي اتصال بينهما وهما على الأرض.

وحين يخرج الموكب كله تبدأ كل ملكة وكل ذكر في تجربة الأجنحة «تمامًا مثلما تفعل الطائرات عند نهاية ممرات الطيران»، وتتولى الفَعَلة إمساك الملكات والذكور من الخلف في أثناء التجربة، أما بقية الفَعَلة فتجدها متجمعة خارج الجُحر على هيئة جماعات كبيرة كثيرة الحركة بادية الغبطة حتى ليحاول بعضها أن يطير هو الآخر مع أنه لا يملك أجنحة وليس باستطاعته الطيران.

ظاهرة غريبة

والعجيب أنه في نفس الوقت تكون استعدادات مماثلة قائمة على قدم وساق في جحور كل مستعمرات النمل المنتمية لنفس النوع في جميع أنحاء المنطقة المجاورة. ولا يُعْرَف على وجه الدقة كيف يقع اختيار هذه الجماعات المتباعدة التي لا اتصال بينها على نفس اليوم والساعة والدقيقة لتنفيذ الزفاف. بعضهم يقول: إنها الحساسية المتساوية الزائدة لدرجات الحرارة والرطوبة التي تدفع مستعمرات نفس النوع لكي تختار نفس اليوم والساعة؛ ولكن هذا التفسير وحده لا يكفي. ولكن بوجود يوم زفاف مشترك واحد عامل هامٌّ جدًّا في إتاحة الفرصة للتزاوج المتبادل الذي يؤدي لجيل جديد أقوى، بدلًا من التزاوج الداخلي بين أفراد الجُحر الواحد الذي يؤدي — كزواج العائلة الواحدة — إلى ضعف النسل.

الزفاف

بعد دقائق قليلة من ظهور الموكب تبدأ أول ملكة عذراء في الطيران. قد تلاقي بعض الصعوبة أول الأمر وتعود للهبوط ولكنها لا تلبث أن تُعاود الصعود قُدُمًا تتبعها بقية الملكات والذكور. وبالضبط وفي نفس اللحظة تكون ملكات المستعمرات الأخرى وذكورها قد بدأت تطير، وبهذا تتكوَّن من ملكات المستعمرات الكثيرة المنتشرة في المنطقة وذكورها سحابة ملكية نملية تأخذ طريقها إلى طبقات الجو العليا في حركات حلزونية صاعدة، إلى أن تصل إلى الطبقات التي يُسْمَح فيها باتصال الذكور بالملكات، أما موكب الزفاف وهو لا يزال على الأرض ففعلة النمل تحُول بضراوة بين الذكور وبين أي اتصال بالملكات، فإذا فقد أحد الذكور أعصابه وتخلَّص من مرافقيه وانقضَّ على ملكة عذراء مجاورة ونالها؛ فالملكة المعتدى عليها تطير أيضًا وتشترك في موكب الزفاف، أما الذكر الشقي فغالبًا ما يَلْقَى حتفه في أثناء عملية شدِّه وجذبه بعيدًا عن الملكة. ولنعُد إلى الساحة الملكية: تظل كل ملكة صاعدة حتى تصل إلى طبقة جوية حافلة بأشعة الشمس والهواء النقي الخالي من الشوائب والأتربة، وهنا فقط تسمح للذكر الذي يصادف وجوده بجوارها أن ينالها، ولكنها لا تلبث أن تُدرك خطأها؛ إذ هي تضطر لحمله فوق ظهرها مما يُعيق قدرتها على الطيران، فهنا حين تبدأ تهوي تجاه الأرض تبدأ تناضل الذكر حتى تنفضه عن كاهلها وتعود إلى الصعود من جديد؛ لكي يظفر بها ذكر آخر وهكذا.

نهاية ساعة العسل

وتظل عملية الصعود والهبوط قائمة حتى يحلَّ التعب بالملكات فتأخذ طريقها إلى الأرض حيث تجدن الذكور قد سبقوهن إليها، راقدين لا يُبْدُون حراكًا.

تعود الملكة من رحلتها لتجد نفسها تواجه مشكلة؛ فمعظم الملكات لا يُسْمَح لهن بالعودة إلى مستعمراتهن القديمة؛ إذ الهدف من يوم الزفاف الطائر كله إقامة مستعمرات جديدة. حينئذٍ تبدأ الملكة تبحث عن ملجأ مؤقَّت يحميها، وحين تجده تقوم بآخر مراسم الزفاف فتقف ساكنة للحظة، ثم فجأة تنتفض انتفاضة قوية تُسقط بها أجنحتها إلى الأبد، بينما العضلات التي كانت تُحركها تتحول إلى مواد دهنية تتغذى عليها الملكة خلال الأسابيع الكثيرة التي عليها فيها أن تبقى قابعة في الجحر الذي تصنعه لنفسها حتى تضع البيض، وحتى يفقس بعد عدة أسابيع أخرى وتخرج منه العذارى وتتكون منها مستعمرة جديدة بملكاتها وذكورها وفعَلتِها.

وفي أحيان أخرى قليلة يُسْمَح للملكة بأن تعود إلى الجحر الذي خرجت منه إذا كانت المستعمرة ضعيفة وفي حاجة إلى تقوية. وفي أحيان أقل تتطفل الملكة بعد رحلة شهر العسل على مستعمرة أخرى، وتتبع من أجل هذا طريقة خبيثة؛ فهي تظل تحوم حول جحر المستعمرة التي قررت أن تتطفل عليها حتى تكتسب رائحة نمل هذه المستعمرة، «فجماعات النمل تتميز عن بعضها بوجود رائحة خاصة لكل مستعمرة بحيث يتعرف أفراد المستعمرة على بعضهم البعض بواسطة هذه الرائحة. وقدرة النمل على التمييز بين الروائح المتقاربة أكثر مائة مرة من قدرة الإنسان.» وبعد يوم أو يومين تقتحم الملكة الجحر بين دهشة الفعَلة وعجبهم؛ فهي نملة غريبة ولكن لها رائحتهم، وتنتهز الملكة فرصة الذهول المسيطر الذي يتخلله أحيانًا بعض المقاومة وتأخذ طريقها مباشرةً إلى حجرة الحضانة حيث توجد الملكة الأصلية ترعى صغارها، وبحركة مفاجئة تمتطي ظهرها، وقد تبقى على هذا الوضع أيامًا. ولكنها لكي تستريح من جماعة الفعلة التي كثيرًا ما تحيطها وتراقبها تقطع رقبة غريمتها بأطرافها المنشارية وتأخذ مكانها وتضع بيضها حينئذٍ في أمان، وتنشأ أجيال مشتركة من أبناء الملكة الجديدة والقديمة. ولكن شيئًا فشيئًا وبعد بضع سنوات لا يلبث أبناء القديمة أن يندثروا وتُصبح المستعمرة كلها من أبناء الملكة الغازية المتطفلة.

هل نحن السبب في قيام الحرب العالمية؟!

الاثنين

آخر ما كنت أتصوَّره وأنا أقرأ رواية الكاتب «نيفل شوت» التي سماها «على الشاطئ» والتي رأيناها منذ أسبوعين في القاهرة كفيلم سينمائي يحمل نفس الاسم، آخر ما كنت أتصوره أن يأتي ذكرنا في الرواية، وأن يأتي على هذه الصورة، والحقيقة أني فُجِعْتُ للكتاب؛ فإذا كانت العادة قد جرت على أن يكون الفيلم المأخوذ عن العمل الأدبي أقل جودة وأثرًا من العمل نفسه، فالعكس هو ما حدث في «على الشاطئ»؛ فالفيلم إنسانيٌّ رائعٌ يُعتبر عملًا فنيًّا ممتازًا، ويُصوِّر الحياة بعد حرب ذَرِّية تمت في عام ١٩٦٤، وكيف ظل الإشعاع الذري يقضي على الأحياء شيئًا فشيئًا حتى انتهى بنا الفيلم والكرة الأرضية خراب كالبيت الذي مات كل أصحابه.

فيلم دعاية ضد الحرب، ولكن الدعاية حين تصل إلى الذروة لا تصبح فنًّا فقط، ولكن شيئًا أرفع من الفن وأكثر فاعلية. الرواية المكتوبة أضعف بكثير من الفيلم، ورغم سعة خيال مؤلفها فهي مملوءة بالحشو والتخريف. وأنا هنا لا أقارن بين العملين، ولكني أريد أن أفرِّجكم على الكُتَّاب الغربيين حين يخرِّفون؛ إذ ما أصدق التخريف أحيانًا! ما أصدقه في الكشف عن مكنونات النفس التي قد ينجح صاحبها في إخفائها عن الناس لأمد طويل! يحاول المؤلف في أحد فصول الرواية أن يناقش الأحداث والأسباب التي أدت لهذه الحرب، وما كنت أتصور أنه سيجعلنا نحن المسئولين عن قيام الحرب.

ولكن هذا هو ما تفتَّقت عنه عبقرية المؤلف، واقرءوا معي هذا الحوار:

قال بيتر أخيرًا: المأساة تمَّت إذن بعدما هاجم الروس واشنطن ولندن؟

فقال دوايت: ومَنْ قال إن الروس هاجموا؟ لقد كانت طائرات روسية بعيدة المدى ومن طراز «ب ٦٢-٦س» ولكن كان يقودها طيارون مصريون جاءوا من القاهرة.

– هل أنت متأكد من هذا؟

– متأكد تمامًا. لقد اضطروا الطائرة التي ذهبت لبورتريكو للهبوط ووجدوا أن قائدها طيار مصري، ولكنهم وجدوا هذا بعد فوات الأوان وبعد ضرب لينتجراد وأوديسا وغيرهما؟

– أتعني أننا ضربنا روسيا خطأً؟

فقال جون أوزيورن: للأسف هذه هي الحقيقة. إن أحدًا لم يعترف بها ولكنها الحقيقة. لقد بدأت الكارثة بتلك القنبلة التي سقطت على تل أبيب ولم يعرف أحد من أسقطها؛ وعلى هذا قامت مظاهرة جوية أنجلو-أمريكية فوق القاهرة للإرهاب، وفي اليوم التالي أرسل المصريون كل قاذفات قنابلهم الروسية البعيدة المدى لضرب واشنطن ولندن، أرسلوا ثلاث عشرة طائرة وصلت منها واحدة إلى واشنطن واثنتان إلى لندن. فاعتقد المسئولون في الدولتين أنه هجوم شيوعي مفاجئ وأمروا بالرد عليه فورًا، وهكذا ضُرِبَت موسكو ولينتجراد فردَّ الروس بضرب كل بلاد أوروبا وأمريكا. وبدت الحقيقة — لشدة بساطتها — مذهلة لا يكاد يصدقها العقل.

– ولماذا لم يفطن أيٌّ من الجانبين إلى الخطأ فيُصلحه ويوقفوا الحرب؟

فقال الكابتن: إذ اندلعت الحرب فمستحيل أن تتوقف.

وقال عالم الذرة: المأساة سببها أن القنابل النووية كانت قد أصبحت أثمانها وتكاليفها في متناول الدول الصغرى، فاعتقدت كلٌّ منها أن باستطاعتها أن تهزم أي دولة كبرى بهجوم ذري مفاجئ.

وقال الكابتن: والمأساة الأخرى هي الطائرات. لقد ظلت روسيا ترسل طائرات بعيدة المدى إلى المصريين، وظلت بريطانيا تسلح إسرائيل والأردن.

وتمطَّى عالِم الذرة وقال: الواقع لا نستطيع أن نعتبر الروس هم المسئولين عن قيام هذه الحرب، وكذلك لا نستطيع أن نلقي اللوم على أنفسنا؛ فالدول الكبرى ليست هي السبب؛ الحرب أشعلتها الدول الصغرى، أشعلها اللامسئولون.

وأكتفي بهذا القدر من الحوار، وكم كان بودِّي أن أورده كله خاصةً ذلك الجزء الذي يتكلم فيه المؤلف عن الحرب التي نشبت بين روسيا والصين عقب انتهائهما من الحرب مع المعسكر الغربي، وكيف أن روسيا قد ارتضت أن تُشعل حربًا ذرية ضد الصين من أجل

الحصول على ميناء شانجهاي، وأن الصين ألقت قنابلها خارج المدن الروسية لتستطيع أن تضمها لأرضها بعد الحرب بسنين وتستعمرها. ولكنه الحيز، وشيء آخر؛ فأنا أريد فقط أن أضرب مثلًا لرأي الغرب فينا حين لا يصبح هذا الرأي أقوالًا وأخبارًا وافتراءات ترددها إذاعاته وصحفه، ولكن حين يصبح قصصًا تُكْتَب وحوارًا يدور على ألسنة أبطال روايات. الشعوب الغربية صحيح مُضلَّلة ومعصوبة الأعين حتى لا ترى الحقيقة، ولكن هناك شيء أعمق من هذا في نظرة الغرب لنا. إن كثيرين من أفراده العاديين وقادته ومثقفيه لا يستطيعون أن يهضموا أبدًا استقلال دولة مثلنا، بَلْهَ معاملتها لهم معاملة الند للند. إنهم يروننا من أعلى وبنظرة إقطاعية طبقية دولية، نظرة مالك إلى أجير، مالك لا يمكن أن يهضم أبدًا أن يصبح الأجير مالكًا مثله وعنده نفس سلاحه ويعامله معاملة الند للند، وكذلك فهو يحقد علينا حقدًا أسود، حقدًا قد تستدعي مصالحه المؤقتة أن يكبته، ولكنه أحيانًا يفلت منه على هيئة كليوباترا، على هيئة حوار في قصة. إنها علامات النهاية والحمد لله. وإذا كانت نهاية الإمبراطورية العثمانية جاءت على هيئة الرجل المريض؛ فالظروف كلها تشير إلى أن نهاية الغرب ستأتي على هيئة الرجل المجنون الذي سيدفعه فقدان الصواب إلى الهلاك. والمجنون يعتقد أنه العاقل الوحيد وأن آراءه وأفعاله هي الصواب بعينه، وهو بالضبط ما يفعله الغرب. إنه يصنع القنابل النووية بالأكوام ويرسل طائراته تتحرش بروسيا وتتجسس عليها ويحضِّر للحرب الخاطفة فعلًا، ومع هذا يعتقد عن إيمان حقيقي — وهذا هو الجنون بعينه — أنه المسئول عن أمن العالم وسلامه والحارس على تراثه وحضارته. إن الغرب يحارب الشعوب فعلًا ويضطهد ملوَّنيها ويعذبهم ويخدش بأنيابه وأظافره استقلال الدول ويخوض ضد الحرية حربًا حقيقية واقعة، ومع هذا يصر — وعن إيمان أيضًا — على أنه هو الذي ظل يحمل المشعل ويضيء الطريق أمام الإنسانية لولا رعونة الدول الصغيرة ولولا مسئوليتها ومشيها بالوقيعة بين الكبار. الرجل المريض بنورستانيا اسمها إسرائيل وحمايتها، لا ينساها حتى وهو في قمة خياله وتخريفه؛ والمريض أيضًا — وإلى حد الجريمة — بمرض الخوف من العرب أو بالأرابوفوبيا والإيجيبتوفوبيا وبالذات بالناصروفوبيا.

أتريدون الحقيقة؟ لقد أحسست بالفخر وأنا أقرأ هذا الفصل؛ فقد أدركت أننا بكفاحنا وبقوَّتنا وبوجودنا الرائع الحاضر وبسياستنا، قد دفعنا الغرب لأن يفقد صوابه ويخرف، فخر بأنفسنا وبناصرنا وقائدنا الذي قال لهم: «موتوا بغيظكم»، فدفعهم الغيظ إلى ما هو أبشع من الموت، إلى الجنون.

مَن يحاسب مَن؟

لا أعتقد أني أول من وقف هذا الموقف ولن أكون آخر من يقِفه، لا بد قد حدث لكثيرين وسيحدث لكثيرين، ولكنه أبدًا لا يصل إلى الرأي العام الواسع إلا إذا كان الضحية من هؤلاء الذين لديهم الفرصة والقدرة على مخاطبة الرأي العام. ومع هذا فلست أعرف بالضبط ما هو الحل، ولكني مؤمن أن شيئًا ما لا بد أن يحدث ليوقف تلك المهازل والمخازي التي تلوِّث حياتنا وتُكسبها — مهما كانت رائحتها العطرة — رائحة القذارة والنتن.

منذ بضعة أيام كدت أفقد حياتي هكذا في غمضة عين ولسببٍ تافهٍ لا يمكن أن يتصور أحدٌ مَبلغ تفاهته. كنت منطلقًا بعربتي الصغيرة أعبر الميدان الكائن أمام المرور مع العربات التي فُتِحَت لها الإشارة الخضراء. وإذا بي وأنا في منتصف الميدان أكتشف — بالصدفة المحضة — أن هناك ترامًا قادمًا من الناحية اليسرى بسرعة مخيفة كاسرًا لا بد إشارة الوقوف الحمراء. لم يكن هناك وقت لأفكر في سبب عدم احترام السائق لإشارة الوقوف ولا في كيفية التصرف إزاء الموقف؛ فالمسافة بيننا كانت لا تتعدى الأمتار الخمسة وكان التصادم محتمًا ولا بد منه. كل ما في الأمر أن عليَّ أن أفعل المستحيل لإنقاذ نفسي؛ فقد كان مفروضًا أن يصدم الباب المجاور لي بزاوية عربة الترام وبقوة. ولا أعرف ماذا فعلت بالضبط ولا كيف استطعت أن أُدير العربة بقوة حلاوة الروح حتى توازي الترام بحيث يتهشم جانبها الأيسر وأخرج منها سليمًا بغير جرح خطير أو كسر. التفَّ حولي الناس يتفحصونني ويهنئوني بالنجاة، والتفُّوا حول السائق يلومونه ويعنِّفونه على رأسهم عسكري الإشارة الذي حين طلب الرخصة من السائق اتضح أنْ ليس معه رخصة وأنه ليس سائقًا بالمرة، إنما هو محصل سمحت له مؤسسة النقل العام أن يسوق ترامها لأزمة في السائقين. أما سبب كسره للإشارة فقد اتضح أنه كان متأخرًا بضع دقائق، وخوفًا من

خصم بضعة قروش منه أو لفت نظره غامر بمحاولة اختراق الميدان بعد إضاءة النور الأحمر على أمل أن يستطيع قطعه قبل قافلة العربات التي فُتِحَ لها الطريق آنذاك.

تجمَّع الناس وتوقَّفت خطوط الترام وأُبْلِغَ بوليس النجدة، والتفَّ السائقون والمحصِّلون حول زميلهم يزجرون مَن يحاول لومه ويلقِّنونه ماذا يقول في المحضر، ولكن يبدو أن موقفه كان ميئوسًا منه وأن خطأه كان واضحًا إلى درجة أنهم تركوه والتفُّوا حول عسكري إشارة المرور وأخذوه بعيدًا حيث بدأت «الغمزات» و«اللمزات» تنهال عليه في الظلام. ولكني كنت على يقين أنهم مهما فعلوا فلا يمكن أن ينجحوا معه، أو يستطيعوا تغيير رأيه الذي جهر به علنًا منذ ثوان. ولكن بوليس النجدة جاء، وبدأ الضابط يأخذ أقوال العسكري. وإذا بي أُدهش وأُذهل وأكاد أُصْعَق إذ — هكذا علنًا وأمام عشرات المواطنين الذين كان يشترك معهم في لوم السائق وتعنيفه — يقول إنني أنا المخطئ وإنني أنا الذي اخترقت الإشارة الحمراء، وإن السائق كانت له الإشارة الخضراء، ولم يخطئ أبدًا وإنما هو المجني عليه وأنا الجاني. كدت أُصْعَق لأنه مهما كانت قوة «الغمز واللمز» فلِمَداها حدود، من الصعب أن تُفلح الرشوة في أن تجعل كائنًا مَن كان يشهد أن الشمس غائبة ونحن في منتصف النهار، ولكن هكذا قالها العسكري ومضى يؤكدها إلى درجة جعلت الدماء لا تغلي في عروقي أنا وحدي، وإنما في عروق كل المواطنين الحاضرين، وجعلتهم يهبُّون في وجهه مُكذِّبينه طالبين من الضابط أن يأخذ أقوالهم هم كشهود على ما حدث. وبصعوبة شديدة استطعت أن أقصر الشهادة على اثنين؛ ضابط شاب بمدفعية القوات المسلحة ومهندس زراعي. والحقيقة أن الفجيعة التي فُجِعْتُها في هذا العسكري والتي كدت معها أيأس من إصلاح كل جهاز يحتوي على أناس بلغوا من خسة النفس هذا الحد، تلك الفجيعة سرعان ما أعاد لها وأزالها تمامًا ما أبداه الضابط الشاب والمهندس من حماس وجرأة ونخوة دفعت لاستعادة ثقتي بشعبنا وقيمنا وإنسانيتنا. لقد قضينا أربع ساعات ننتقل من نقطة كوتسيكا إلى القسم إلى مكان الحادث، وبينما أجبرت المهندس على ترك عنوانه للاستعانة بشهاداته إذا احتاجها الأمر لم أستطع ولم ينجح المحامي في إقناع الضابط الشاب بالعودة إلى حياته وعمله؛ فقد أصر إصرارًا غريبًا على البقاء إلى النهاية وإلى أن تؤخذ أقواله ويدحض بها أقوال العسكري المغموز. فشهادة العسكري يأخذ بها القاضي كحقيقةٍ مسلَّم بها؛ فشهادته هو وهو ضابط كفيلة بدحض أقواله. كان غاضبًا وكأنه هو الآخر أُهِين إهانةً موجَّهة إلى كلِّ مصري، إلى كرامة شعبنا كله وآدميته. وصحيح أنه أدلى بشهادته وأن المحضر قُفِلَ وأن تلك الإجراءات قد انتهت، ولكن المهم، ما هي نتيجتها؟

أليست كارثة أن ندرك أن أقصى ما يمكن أن يناله السائق هو محضر مخالفة مرور؟ هل من الممكن أن تكون هذه المخالفة هي الجزاء الرادع لكل ما حدث؟ مؤسسة ضخمة كمؤسسة النقل العام من أجل توفير بضعة قروش تسمح لمحصل أن يعمل سائقًا فلا يكترث كثيرًا بأهمية اتِّباع لوائح المرور. ومحصِّل — في سبيل أن يتجنب كلمة لوم أو خصم يوم — يُعرِّض حياة المواطنين لخطر ساحق وأولهم ركاب ترامه أنفسهم. من أجل بضعة قروش تحدث في العربة خسائر يتكلف إصلاحها مائة وخمسين جنيهًا. ثم في النهاية تأتي المهزلة الكبرى، وفي سبيل غمزة أو لمزة تافهة يُضيع عسكري يأخذ القضاء كلامه حجة لا تقبل الطعن أو الجدل، يضيع هيبة القانون الذي يحميه وهيبة الحكومة التي يُمثِّلها وإدارة المرور التي يواجهها.

يضيع هيبتها جميعًا وحُرمتها وثقة عشرات المواطنين فيها، وأمامهم يكذب ويدلِّس ويلفِّق للجاني براءةً تُعفيه من المسئولية ويُلفق للمجني عليه خطأً يُضيع حقه.

إن ما يحز في نفسي أنه رغم بشاعة كل تلك الجرائم التي ارتُكِبَت معي والتي تُرْتَكَب مع غيري، فإن أحدًا من مرتكبيها لا يناله أدنى عقاب. المؤسسة لن تعاقَب؛ فما من أحد يعاقِب المؤسسات إذا أخطأت في أزمة سائقين أو أزمة بوتاجاز أو أزمة كيروسين أو سمن صناعي.

والسائق أقصاها محضر مخالفة بجنيه، والعسكري مهما كان ما فعله ولو كان قد انقلب أيضًا إلى معتدٍ اعتدى عليَّ أو على غيري فلا أحد حاسبه أو يحاسبه، ولا يزال واقفًا أمام الإشارة في مواجهة إدارة المرور مرفوع الرأس، نظيفًا، لا يستطيع أحد أن يقول له «تلت التلاتة كام».

عبقريات مدفونة

لا شك أن لدينا عبقريات مدفونة. وإني لأنحني احترامًا وإجلالًا لعبقرية ذلك الموظف الألمعي النشيط الذي ظل شهورًا يفكر ويُعْمِل عقله ويدبِّر ويبحث وينقِّب عن مشكلة المشاكل في جهاز من أجهزة حياتنا، عصب الحياة العصرية ولازمتها: التليفونات، تلك التي لا تنقطع الشكاوى منها ومن تعطُّلها وفقدان حرارتها وتشابُكها والزيادات غير المعقولة في فواتيرها، لا بد أن ذلك الموظف العبقري النشيط استعرض هذا كله ثم هداه وحي العباقرة — الذي هدى نيوتن إلى التفاحة وأرشميدس إلى الحمام — إلى أن الحل الحاسم لكل أزماتنا التليفونية هو إنشاء شبكة تليفونية لاسلكية جديدة تُرَكَّب في العربات، وتستطيع وأنت جالس فيها أن تمدَّ يدك وتطلب أي رقم تشاء، وأن توقف العربة على الكورنيش وتطلب حبيبتك لتهمس لها بالشوق الذي لا تستطيع كبحه إلى أن تصل بعد دقائق إليها، أو من خلاله تستطيع أنت أيها الزوج أن تطلب الأرقام التي لا تجسر على طلبها تحت رقابة زوجتك أو مرءوسيك في المكتب.

كلام إيه ده أيها السادة؟! لقد طُفْتُ بكل بلدان أوروبا تلك التي نخجل من مقارنة مستوى المعيشة فيها بمستوى معيشتنا، ومنها البلاد التي تصنع التليفون واللاسلكي نفسه ولا تستورده مثلنا، ولم أجد فيها أثرًا لذلك النوع من التليفونات، ولكن أيضًا لم أجد في تلك البلاد أثرًا لكل شكاوانا من التليفون العادي الذي أصبح وجوده واستعماله أمرًا حيويًّا مثل المواصلات سواءً بسواء. ولا زلت لا أستطيع أن أضمن البلد الخرافي الذي استطاع ذلك الموظف العبقري أن يقتبس منه الفكرة. ولا بد أننا حللنا جميع مشاكلنا التليفونية والتلغرافية والمعيشية ولم يبقَ لكي تُصبح حياتنا الجنة المثلى إلا أن نستكملها بإضافة آخر صيحة في عالم الاتصالات: تليفون السيارة. عشرات الآلاف من المواطنين في انتظار حلول دورهم في تركيب التليفون، أطباء وعيادات ومستشفيات بلا تليفونات، وتليفونات

بلا حرارة، وحرارة بلا خطوط، وخطوط تتشابك مع خطوط، وألف مليون مشكلة تحيط بتليفوناتنا، ونتركها كلها لنستورد — وبالعملة الصعبة — تليفونات تُرَكَّب في سيارات، سيارات مَنْ؟ سيارات يستطيع أصحابها أن يدفعوا مائة جنيه للتليفون، سيارات طبقة أرستقراطية جديدة لا بد أنها نشأت في غفلةٍ عنا وأصبحت لها مشاكل الأرستقراطية التي لا تستطيع أن تصبر دقيقة أو دقيقتين لكي تصل إلى البيت أو المكتب؛ ولهذا أصبح على دولة العمال والفلاحين أن تستخدم نقود العمال والفلاحين في جلب تليفونات لاسلكية تريح أعصاب المرفهين من دقيقة قلق أو ترقُّب.

مُخرج جديد

حين حدثني عنه الصديق سعد أردش قلت: إنه لا بد حديث الزميل عن الزميل ذلك الذي لا يخلو من كلمات المديح والمجاملة، واعتقدت لا بد أنه واحد آخر من عشرات الشبان الذين نوفدهم لدراسة نواحي المسرح المختلفة فيعودون وقد حفظوا بعض الجمل والمعادلات، وقد بهرهم ما رأوه هناك إلى درجة أصبح منتهى آمالهم أن ينسجوا على منواله. وفي رأيي أننا في مسائل إيفاد البعثات إلى الخارج لا نفرق بين شيئين أساسيين: دراسة الفن ودراسة العلم؛ فالعلم وقوانينه وحقائقه تراث إنساني واحد، تسري قواعده في أستراليا كما تسري في غانا وأيسلنده، ولكن الفن شيء مختلف إذ هو حقائق ذاتية متصلة اتصالًا لا ينفصل بحياة كل شعب ووجدانه، بحيث إن طرق التعبير الفني من شعب إلى آخر تختلف لغة وملامح هذا الشعب عن ذاك؛ بمعنى أن مسرحنا المصري يجب أن يكون مختلفًا عن المسرح الإنجليزي أو الأيرلندي اختلاف حياتنا ولغتنا وملامحنا عن حياة وملامح ولغة الشعب الإنجليزي أو الأيرلندي؛ وبالتالي فإن كافة ما يتصل بهذا المسرح من تأليف وإخراج وتمثيل وطريقة عمل الديكور يجب أن تكون مختلفة أيضًا، بحيث إن إخراج أي مسرحية يجب أن يتم بطريقة، أي بشكل مصري مُنتزَع من صميم واقعنا الوجداني وصميم العمل المسرحي الفني. بمعنى آخر، النقل أو المحاكاة أو مجرد التطبيق الأعمى لأساليب ومدارس منتشرة في أوروبا على رواياتنا يُفقدها الكثير من نكهتها الحقيقية وفاعليتها.

ولكن كرم مطاوع — وهو المُخرِج الفنان الذي حدثني عنه سعد أردش — استطاع من أول مرة التقيت به فيها أن يغيِّر من وجهة نظري تمامًا. ها هو ذا شاب يؤمِن أنْ ليس عمله حين يعود أن يطبِّق ما رآه وما سمعه وبهره ودرسه، بل يعتبر أن كل هذا ليس سوى Background ثقافي هدفه توسيع الأفق والمدارك والإحاطة بما يفعله الآخرون، أما حين يتصدى لإخراج عمل مسرحي مصري هنا فعليه أن ينسى تمامًا كل ما علق بذهنه وأن

يعايش العمل، ومنه نفسه — من العمل — يخلق طريقة وضعه في حيز التنفيذ. ها هو ذا مُخرِج لا ينقل أو يطبِّق الرمزية أو الإيحائية في الإخراج، وإنما من العلم ذاته يخلق طريقة إخراجه.

إني أنتظر بترقب شديد نتيجة تجربة كرم مطاوع مع أول مسرحية مصرية يُخرجها بهذا المفهوم. أنتظر وأنا أكاد أكون واثقًا من النتيجة؛ فالوسيلة السليمة لا يمكن أبدًا أن تؤدي إلى غاية أسلم، وإني لأعلِّق على كرم مطاوع وأصالته ومنهجه آمالًا كبارًا بالنسبة لمسرحنا المصري.

اللقاء بعد عمر طويل

لا أدري مدى صحة القول ولكني أرويه؛ فقد كنا نناقش أغنية أم كلثوم وعبد الوهاب الأخيرة ونتساءل عن سر رفضهما التعاون معًا لأكثر من ثلاثين عامًا، ثم قبولهما المفاجئ أن يتعاونا ويلتقيا دون مقدمات أو سابق إنذار.

أحسنُ تفسيرٍ قيل هو أنهما أصرَّا على هذا اللقاء، أجبرتهما عليه بوادر التطور الموسيقي الذي تحفل به حياتنا الموسيقية، وعلى رأسها ظهور أوبريت مهر العروسة بعد اختفاء هذا اللون حقبة طويلة من الزمن. لقد كتبت مرةً أقول: إن من سوء حظ موسيقانا أن قيَّض الله لها عملاقين من عمالقة الغناء هما: أم كلثوم وعبد الوهاب، استطاعا بروعة تلحين عبد الوهاب والأداء المعجز لأم كلثوم أن يجعلا الأغنية الفردية تتربع على عرش موسيقانا دون منافسةٍ تُذْكَر. هذا الوضع كان لا يمكن أن يستمر إلى الأبد، وكان لا بد أن يأتي اليوم الذي تحاول موسيقانا أن تسلك دروبًا جانبية ليستمر التطور، حتى كُلِّلَت تلك الجهود بتقديم أول أوبريت مصري بعد سيد درويش، ظهورًا كان تحديًا صريحًا للأغنية الفردية لا بد أن يرد عليه عملاقاها معًا، فكانت أغنية «إنت عمري»، وكان نجاحها الساحق دليلًا على أن الأغنية الفردية قد كسبت الجولة الثانية وباكتساح. وقد يظل التحدي قائمًا لبعض الوقت ولكن إنْ آجلًا أم عاجلًا ستنتقل موسيقانا إلى مرحلة الأوبرا والأوبريت والكونشرتو والسيمفونية وتتخلف الأغنية الفردية محتلة مكانًا جانبيًّا، كما هو وضعها في كافة بلدان العالم.

السؤال هو: أَمِن الضروري أن يظل عملاقَا الغناء يصرَّان على الوقوف في وجه التطور، ولماذا لا يقفان مع التطور؟ بل لماذا لا يقودانه ويكون العمل التالي الذي يلتقيان فيه ليس أغنية فردية أخرى ولكن عملًا موسيقيًّا مسرحيًّا؛ حلمًا من أحلام شعبنا التي طالما تمنَّاها؛ ألحان عبد الوهاب وصوت أم كلثوم في أوبريت، في إطارٍ أخلد بكثير من أغنية حب مفردة في الإطار الحقيقي الذي كان يحب أن يحتوي صوت أم كلثوم المعجز من قديم الزمان؟

حديث مع أم كلثوم

حين رأيتها تغني تذكرت قول شوقي في وصفها وهي تغنِّي:

حمامة الأيك مَنْ بالشدو صارحها ومَن وراء الدُّجى في الروض ناداها
ألقتْ إلى الليل جِيدًا نافرًا ورَنَت إليه أُذْنًا وحارت فيه عيناها

واستعدت قول كامل الشناوي عقب حفلتها الأخيرة التي أُذِيعت بالتليفزيون:

إنها لم تكن تغني؛ فالمغني هو الذي يؤدي اللحن كما أراده الملحن. لقد كانت منفعلة بالكلمات كأعظم ما يكون الانفعال. إن الملايين معها كانت تقشعر أجسادها وتنتفض كلما قالت: ثوار، ثوار، ولآخر المدى ثوار، لكأنها كانت تُعلن بقولها ثورةً، أو لكأنَّ ثورةً كانت تُعلِن عن نفسها من خلالها. كانت تقف ووراءها تراثنا الموسيقي تحميه وتذود عنه؛ القصبجي بالعود وسبعين عامًا، القصبجي الذي علَّم عبد الوهاب العود، وعبده صالح الذي يحبو إلى الستين على القانون، وإبراهيم عفيفي على الرق وقد ناهز السبعين هو الآخر، وكلهم يردون بالعزف وانبثاقات الانفعال، ثوار، ثوار.

فينقلبون إلى شبان في العشرين وحتى إلى فتوَّات. ماذا هذا؟ إنه لشيء معجز. إنه لإقطاع غنائي. إنه الإقطاع الغنائي الوحيد الذي تحتِّم الاشتراكية أن نُبقي عليه ونُنميه. حتى الكاميرا، خشعت ووقفت من بعيد كأنها تستمع.

وحين وجدت أننا جميعًا في حاجة لمعرفة رأي أم كلثوم في القوانين الثورية الجديدة، رأي تلك المعجزة التي وُلِدَت في السنبلاوين دقهلية من الفلاحين وبين الفلاحين المعدمين، رأيها وقد بدأت دولة الفلاحين وأصبح المحل الأول فيها للعاملين، رأيها في فنها، في أهداف الفن، فيها، في إحساسها وقد خسرت بعض النقود وكسبت كل الأرواح.

حين فكرت في هذا كله قررت أن أتصل بها في رأس البر، وتحمَّس الصديق مأمون للفكرة ورفع السماعة.

مأمون: آلو، سنترال، اديني رأس البر، مكالمة مستعجلة للسيدة أم كلثوم.

(دقائق انتظار «للحقِّ لم تزد عن دقائق، لا بد أن مصلحة التليفونات قد مسَّتها الثورة بشعلتها» ثم دق الجرس.)

عاملة التليفون: آلو، رأس البر، كلم.

(وأمسكت بالسماعة، ومن الأذن المعدنية سمعت الصوت): أنا أم كلثوم.

(كان الصوت مفاجأة؛ فقد كان لفتاة في العشرين، جميل، أنثوي، فيه كل شباب البر، وأحلام رأس البر.)

أنا: أريد أن أعرف رأي أم كلثوم في الثورة الجديدة.

أم كلثوم: وتريد أن تسمعه في التليفون؟ مش معقول، اللي حصل ده أعمق وأخطر من أن يبدي الإنسان فيه رأيه بالتليفون، أعظم تأييد وفرحة بهذه القرارات هو أن نفهمها بعمق عشان نمشي على هداها بعمق، مش معقول قرارات بتغير بناء المجتمع كله يصلح التليفون لمناقشتها.

(ملحوظة: أدركت فعلًا أن الأمر غير معقول.)

أم كلثوم: إن شاء الله أنا جاية مصر ولازم نقعد قعدة طويلة أقدر أعبر لك فيها عن مش اللي انت عايزه وبس، إنما كمان عن كل اللي عايزة أنا أقوله، أنا عندي كلام كتير لازم أوصله للناس، أنا عايزة أشترك في تغيير بلدي مش بصوتي بس، وإنما كل واحد أو واحدة فينا لازم يجند نفسه، بكل ما يملك لإسعاد غيره.

(أصوات تتداخل في الخط وكأنما دخل فيه وابور حرث، عاملات التليفون يتخاطبن خلال الضجة، كيف؟ لا أدري، خط آخر دخل علينا كالزوبعة وخرج تاركًا زوبعته، طنين هائل وكأن بركانًا تفجَّر في رأس البر، أيوه يا دمياط، آلوه، مائة آلوه قيلت، بعضها مني، وبعضها بأصوات غليظة، وبعضها يشبه حفيف الثياب على الثياب، وأنا ألعن هذا كله فقد أضاع مني أم كلثوم، كالراديو حين

يفسد فجأة وسط حفلتها؛ لذلك ما كان أسعدني حين قلت آلوه مرة، فسمعت من الطرف الآخر أجمل آلوه.)

الطرف الآخر: آلوه، أيوه، أنا كنت بتكلم مع مصر دلوقتي.
أنا: آلوه واحنا كنا بنتكلم مع رأس البر، السيدة أم كلثوم؟
الطرف الآخر: أيوه، أنا، مش انتم ...

(أنا ومأمون في نفس واحد، أنا إلى السماعة وهو إلى هواء الحجرة): أيوه احنا.

العاملة (متدخلة)**:** المدة انتهت.
نحن (في نفس واحد أيضًا)**:** ادينا مدة ثانية، وثالثة ورابعة، ادينا وصلة بحالها.
أنا: آلوه، كنا نريد أن نسألك بشأن الحفلة، هل رأيتها في التليفزيون؟
أم كلثوم: للأسف، رجعت ثاني يوم الحفلة، ولم أرَها.
أنا: لقد كانت ناجحة جدًّا، ولا بد أن تكرريها ولا تحرمي جمهور التليفزيون الذي يُعَدُّ بالملايين منك.
أم كلثوم: ألا يكفيهم الصوت؟
أنا: إن طريقة غناء أم كلثوم جزء لا يتجزأ من فن أم كلثوم، وحرمانهم منها جزء لا يتجزأ من حرمانهم من صوتها. لماذا لم ترضي عن الأغاني التي عُرِضَت عليك؟
أم كلثوم: لأن التصوير لم يكن كما يجب، لا بد أن تقف الكاميرا حيث يقف المستمع، أما في الأشرطة التي تُلتقط فالمصور كان كأنه يريد أن يصور أفكاري.
أنا: إذا رأيت الحفلة الأخيرة، وقطعًا سيسرُّك رؤيتها، هل توافقين على إذاعة الحفلات بعد هذا؟
أم كلثوم: بالتأكيد.
أنا: أزعجناك في مصيفك بالأسئلة.
أم كلثوم (بطيبة شرقاوية دقهلاوية؛ فالسنبلاوين تقع على الحدود الفاصلة بين الشرقية والدقهلية)**:** أبدًا.
العاملة (قبل أن نقول متشكرين)**:** المدة انتهت.

أنا: متشكرين.
أم كلثوم: إلى اللقاء في القاهرة حين أعود، أعدك بجلسة طويلة إن شاء الله.

(أصوات مذكرة ومؤنثة وإنسانية وآلية كثيرة، مدافع وأزيز طائرات، سكون، طلقة أخيرة.)

صوت العاملة: خلاص المكالمة يا جمهورية؟
أنا (وكلي أسف)**:** خلاص يا تليفونات.

حديث صريح مع العاملة النقابية
عايدة فهمي

عايدة فهمي، كنت أحسبها سيدة اتخذت الكفاح النقابي وسيلة للظهور كسيدات الجمعيات وإذا بي أمام نقابية عتيدة ذات تاريخ حافل في الكفاح النقابي.

– ماذا فعل العمال إزاء القرارات الثورية التي صدرت؟

– أيدوها ونشروا التأييد في الجرائد.

– وهل يكفي التأييد في الجرائد؟ لماذا لم ينعقد في كل مصنع وشركة مؤتمر من العمال يناقش هذا التحول الجذري من مجتمع سادته الرأسمالية والرجعيون إلى مجتمع سادته العمال؟ هل انعقد مؤتمر واحد كهذا؟

– على حد علمي، لا.

– ماذا تنتظرون — كعمال — لتتحركوا؟

– …

– طيب، ماذا يمكن أن يقوم به العمال إزاء هذه الحقوق الجديدة؟ وكيف يمكن أن يحموها وأن يخوضوا المعركة مع الحكومة؟

– أخطر حق في رأيي هو حق العمال في التمثيل في مجلس الإدارة، دي نقطة هامة جدًّا وأساسية؛ لأن العمال بدل ما يبقوا أجراء عند الدولة ح يبقوا هم أصحاب العمل أو على الأقل شركاء في ملكية المصنع، وإدارته وتوجيه هذه الإدارة ناحية زيادة الإنتاج؛ لأن زيادة الإنتاج معناها زيادة في ربح العمال وزيادة في الدخل العائد عليهم. إحنا كان عندنا مطلب هو إقامة لجان مشتركة لإدارة أي مؤسسة من العمال وأصحاب الأعمال،

ولكن حتى هذا الطلب الذي كنا نعتبره خطوة ضخمة جدًّا فاقه الرئيس وأصبح النهاردة مالوش داعي.

– هل تعتقدين أن دور المرأة العاملة ح يتأثر؟

– لازم؛ تشغيل المرأة ح يزيد، ووجهة نظر الرجل في المرأة ح تتغير، احنا كنا في مجتمع رجالي، ومع تحطيم الرأسمالية والإقطاع سيعقبه حتمًا تغيير شكل المجتمع فيصبح مجتمع رجالي ونسائي معًا، وده هو التطور؛ لأن مجتمع بالشكل ده لا يمكن كان يقوم في ظل أوضاع إقطاعية وعقلية رجعية. كل ما بيتغير النظام الاقتصادي بيتبعه تغيير في النظام البشري.

– منذ متى بدأ تشغيل النساء في مصر؟

– من أيام الفراعنة، وفي الأرياف المرأة بتعمل زي الرجل تمام، أما العاملات بالمفهوم الحديث فابتدأ عملهم تقريبًا من سنة ١٩٠٨ وفي سنة ١٩٢٧–٢٨ حصلت حركة كبيرة من العاملات لتخفيض ساعات العمل بالنسبة للمرأة إلى ٩ ساعات، وبعد انتصار المرأة العاملة في المعركة دي فضلت تكافح لغاية ما الحكومة وافقت في سنة ١٩٣٣ على إدخال قانون تشغيل النساء بعد قانون الأحداث، والقانونين دول كانت الهيئة التابعة لعصبة الأمم أقرتهم قبلها بسنين إنما ما دخلوش مصر إلا في سنة ١٩٣٣.

– وأنتِ؟ هل أنتِ أول عاملة تصل إلى عضوية مجلس إدارة النقابة؟

– أيوه، كان سنة ١٩٤٦.

– والسبب؟ تفتكري إيه اللي يخلي عاملة من العاملات تتجه إلى ترشيح نفسها والكفاح عشان غيرها؟

– السبب إن الواحدة بتلاقي أوضاع غلط قدامها، ممكن تحلها حل فردي وبطرق جانبية وممكن بطريقة تانية تدرك أن المشكلة مشكلة جماعية وتلم إخوانها وأخواتها وتحلها حل جماعي. أنا فضَّلت الطريقة الثانية وكانت أصعب الطرق. كان الأجانب واقفين قدامنا، وكانت المرأة العاملة مش ممكن توصل إلا لحد معين في الوظائف، وكان لازم نكسر الحد ده، ورشحت نفسي، ونجحت.

– إيه رأيك في المرأة العاملة عندنا؟

– أنا متعصبة لها وأعتقد أن كل امرأة يجب ألَّا تبقى بلا عمل.

– أمال سمعنا أن بعض الوزراء رفضوا يعيِّنوا بنات وسيدات في وزاراتهم؛ لأن العمل بيتأثر حسب قولهم بوجود الجنس الآخر.

– إذا كان فيه تأثر فهو تأثر إلى أحسن. لقد قال الرئيس: إن العمل شرف. فلماذا وبأي حق تُحْرَم المرأة من هذا الشرف؟ ألكونها امرأة؟ إنها وجهة نظر ما عدتش تليق بمجتمعنا. إن الرجال والنساء وحدة اجتماعية واحدة فازاي نقتطع نصفه، ونشتغل بنصف واحد؟! ده كأنهم بيقولوا الرجل بيشتغل برجل واحدة، أو بذراع واحد أحسن!

أوقفوا هذه الجرائم

القراء لا شك قرءوا بالأمس حادثة الخادمة التي عذَّبها مخدومها فآثرت الانتحار ... إلخ إلخ. ولأن الحادثة وقعت في نفس البيت الذي أقطنه، وشهدتها عن قرب وشهدت المحاولات التي بُذِلَت لتحطيم الأبواب وإنقاذها، فإني لا أستطيع أن أمنع نفسي من رواية ما حدث حتى ولو كان ما حدث لا يطابق تمامًا ما نُشِرَ بصحف الأمس: فجأة وجدت العمارة تدوِّي بالصراخ والاستغاثة، وحسبتها أول الأمر خناقة زوجية، ولكن استمرارها أكد لي أن هناك حادثًا أخطر.

غادرت شقتي في الدور العاشر مسرعًا، وهناك — في الدور الثامن — وجدت جمعًا كبيرًا من رجال العمارة وسيداتها وأطفالها وبوابيها يزدحمون عند باب الشقة رقم ٥٠ ويحاول بعضهم تحطيمه. سألت عن السبب، أشاروا إلى نافذة المنور، ومن خلالها رأيت مشهدًا رهيبًا، فتاة تلتهمها النيران وهي تصرخ وتطلب من الناس أن ينقذوها؛ لأن باب المطبخ أغلقه أصحاب الشقة عليها. ولما كان باب الشقة هو الآخر مغلقًا فقد كان علينا أن نحطم بابين لنصل إلى الفتاة في خلال دقيقة أو أقل لنستطيع إنقاذها قبل أن يحترق جسدها تمامًا. وحين فشلت محاولات تحطيم الباب الخارجي للشقة استطاع اثنان من البوابين أن يقفزوا من خلال نافذة الجيران إلى الشرفة الخلفية للشقة ولكن بلا فائدة؛ فقد جاء صوتهما إلينا يخبرنا أن باب المطبخ محكم الإغلاق والمفتاح مع أصحاب الشقة، وهكذا ظللنا نحن نحاول تحطيم الباب الخارجي وظل البوابان يحاولان تحطيم باب المطبخ بينما النار تنهب حياة الخادمة نهبًا، حتى حضر بوليس النجدة والمطافئ وحطم العساكر البابين.

ودخلت مع المطافئ والبوليس لإسعاف الفتاة، ولكن أي فتاة؟! لقد كانت فحمة مشوهة مسلوخة الجلد في بقع، ومع هذا فقد كانت لا تزال فيها الروح ولا تزال تمشي

وتتأوه وتتكلم بعقل وكأن شيئًا لم يحدث، سألها الضابط عما حدث فقالت: إن مخدومَيها اعتادا إغلاق باب المطبخ عليها وباب الشقة، حتى لا تهرب؛ لأنها كانت لا تريد العمل عندهم، وأنهم حلقوا لها شعرها، وهي المتزوجة حتى لا تنزل لمقابلة زوجها وتبقى تعمل في خدمتهم، وأنها في ذلك اليوم بالذات أرادت أن تولع الوابور لتغسل الملابس التي تركتها لها سيدتها فهبَّ فيها الوابور واشتعلت النار في ملابسها فصرخت تطلب النجدة؛ لأن باب المطبخ كان مغلقًا عليها وليس في المطبخ شيء تستطيع أن تطفئ به نفسها.

وكنت أستمع لأقوالها وأنا مغيظ، فلو لم يكن باب المطبخ مغلقًا عليها لأمكن إنقاذها ببساطة، ولما قضت نحبها هي والجنين الذي قال لنا زوجها الغلبان إنها حامل فيه.

كان واضحًا أن الفتاة لن تعيش أكثر من ساعات، وكان واضحًا أن هذه آخر أقوالها، وجاء الإسعاف، ولم يكن مع متطوعيه نقَّالة، فمشت كالمسخ الرهيب ملتفَّة ببطانية قديمة اقترضها لها البوابون وكادت تسقط فزعًا حين خرجت من الشقة وقابلتها صرخات النساء، ونظرات الهلع من عيون الرجال، ولكنها تحاملت على نفسها، ومشت بقدميها إلى الأسانسير، وبعد ساعات عرفنا أنها ماتت في المستشفى.

ومن عدة أيام كنا نقرأ أخبار زوجة أستاذ الجامعة المتهمة بقتل خادمتها.

ومن أسبوعين كنا نقرأ أخبار الخادمة التي عذبها سادتها بالكي بالنار، قتل وكي بالنار وسجن وتعذيب، أين نحن؟ وفي أي عصر؟ وبأي حق يقتل المواطن مواطنة أخرى أو يكويها أو يسجنها ويرغمها على العمل عنده لمجرد أنها تقوم بدور الخادمة.

إني لأطالب بإنقاذ هذه النفوس البريئة، وأطالب بسَنِّ تشريع عاجل يوقف هذه الحمَّى ويحدد علاقة المخدوم بخادمه، وليُرفع الخدَمَة من وهْدة العبودية الوحشية إلى مرتبة العمل المنظم بقوانين. إن هناك شكوى عامة من الخدم والخادمات، سببها في الواقع أن علاقات العمل العبودية هذه أصبحت مصدر تذمُّر غير منظم من الخادمات والخدم، تذمُّر لا يجد له من يعبِّر عنه، ومن يطالب لهم بحقٍّ واحد بدائي؛ حق أن يعامَلوا كبشر.

نجيب محفوظ والاتحاد القومي

أنا لا أقابل نجيب محفوظ إلا كل صدفة وصدفة، وفي كل مرة أحس إذا ما رأيته وكأن بلادنا لا تزال بخير، وكأن لا تزال تحفل بالطيبة والصدق والنبل. واليوم قابلت نجيب على قهوة بالعباسية، يذهب إليها كل خميس من الساعة السادسة تمامًا إلى الثامنة، ويقابل فيها أصدقاء العمر والطفولة. ولم نتحدث في الأدب هذه المرة؛ انصبَّ معظم حديثنا على التجربة الجديدة المثيرة التي يزاولها نجيب محفوظ لأول مرة، تجربة اختياره عضوًا بالمؤتمر العام للاتحاد القومي، واشتغاله بالسياسة واللجان والمناقشات وصياغة القرارات.

كان حماس نجيب كبيرًا وهو يتحدث عن لجنة الفنون والآداب التي انضم لعضويتها عدد كبير من أبناء الاتحاد القومي بالأقاليم، وكيف مضى أصحاب الجلاليب يُثبتون لأصحاب النظارات والبِدَل أنهم لا يقلُّون عنهم حماسًا للفنون والآداب، بل بعضهم كان قد جاء وفي جعبته قرارات حملها من لجان بلاده تطالب بمسارح وفرق تمثيلية محلية، ومكتبات وأفلام ثقافية. وقد حدثني نجيب عن هذا الشيخ الذي وقف يسائل السيد ثروت عكاشة عن باليه «آخر الزمن» ويطالب بإلغاء رقصه المزعوم، وكيف رد عليه الوزير، وكيف اشترك في إقناعه بفائدة الباليه شيوخ مثله وأبناء أرياف. تجربة كان نجيب منفعلًا بها إلى درجة دفعتني لأن آسَفَ لأني لم يُتَحْ لي أن أحضرها أو أراها.

وفي المساء كنت مع الصديقَين: موسى صبري وفتحي غانم، وكانا يتحدثان بانبهار وكأنما طول المؤتمر يشهدان مولد كائن حي عملاق اسمه إرادة الشعب. تكلم فتحي غانم عما دار في لجنة التوجيه القومي حين وقف أستاذ في الجامعة واستنكر أن يشترك المواطنون العاديون في مناقشة قضايا ضخمة كالقومية العربية ومفهومنا للاشتراكية؛ إذ مناقشة أمور كتلك مفروض أن تدور في حرم جامعات وبين متخصصين، وكيف انبرى له

الدكتور سليمان حزين قائلًا: إن هذا عين الخطأ، وإن الجامعة كانت تحيا في برج عاجي، وإن الاشتراكية والقومية إذا أردنا فهمهما وتحديدهما لا بد أن نبحث عنهما بين الناس، ونلتقطهما من خلال خبرتهم واحتكاكهم الحقيقي بالحياة وكدحهم في طلب العيش، وإنه سعيد لأنه أحس في اجتماعات اللجنة أنه يتعلم من مواطنيه الذين جاءوا من أقاصي القرى والبقاع، وحبذا لو أنصت لزميله الأستاذ، وسكت، وحاول أن يتعلم.

وقال موسى صبري: لقد راعني أن أرى جموع المواطنين المنتخبين والمختارين آتية ظامئة لأن تناقش وتسأل وتطلب وتلح في الطلب، وراعني أن أرى الفلاح يناقش الوزير مناقشة ندٍّ لند، وحين لا يقتنع يبدي رأيه بصراحة في الجواب، ويعود يلح على الوزير ويناقش؛ راعني أن أرى الوزراء وقد فهموا مهمَّتهم وفهموا أنهم أمام ممثلي الشعب، وأنهم مندوبوه للتنفيذ. لم يكن مؤتمرًا، كان احتفال أمة بمولد قادة، واحتفال ثورة بمولد إرادة.

وفي آخر الليل كنت أعود وأنا شديد الإعجاب بشعبنا، الشعب الذي طالما افترَوا عليه والذي كان دائمًا يتطور ويتقدم ويزداد إدراكًا ووعيًا، الشعب الذي أثبت في كل مرة أن الشكليات لا تهمُّه بأي حال، الشعب الذي أحال الاتحاد القومي من نظرية إلى أمرٍ واقع رائع ونقطة بدء وانطلاق، الشعب الحي المتفاعل الذي لا يغلبه غلاب. لقد كنت في العام الماضي أجول في أوروبا، وأحاول أن أراها من جديد، ولم أتحمَّل أن أراها أكثر من ثلاثة أسابيع. لقد أحسست أني في مقبرة وأن أناسها أحياء بقدر ما هم غير أحياء؛ أحياء جسدًا وأموات أرواحًا وتطلُّعًا إلى المستقبل وطموحًا، أحسست أني غادرت قاهرةً ثائرةً تغلي وتصنع الأحداث وتكتب التاريخ إلى أوروبا راكدة مستسلمة لا تحب السياسة ولا تناقشها، بينما السياسة تحدد مصيرها وتهدد كيانها. أحسست أنهم في أوروبا يروننا من الخارج ويحكمون علينا بالشكل، مثلما لا يزال بعضٌ منا يحكم على أحداثنا هنا من ظاهرها وشكلها، بينما المضمون — مضمون حركتنا وخطواتنا — هو المهم، وهو ما دفعني للفخر بشعبنا، الشعب الذي يعرف دائمًا كيف يجد نفسه ويحقق وجوده، ويتقدم.

مشروع الخمس سنوات لتحسين الذمة!

رجعت إلى البيت ظهرًا فوجدته يعبق بغاز البوتاجاز، وكلٌّ من فيه يعاني من قيءٍ أو صداع ودوخة لا يعرف سببها. فتحت كل النوافذ وأسرعت إلى المطبخ، وكانت مفاتيح الموقد مغلقة كلها والأسطوانة مغلقة، وكل شيء على ما يرام. أخيرًا وبعد بحثٍ وتدقيقٍ اشترك فيه عامل محطة التعاون اتضح أن أسطوانة البوتاجاز «تنفِّس» من ثقبٍ كبير كان مسدودًا بقطعة شمع، وبتأثير الحرارة ذابت، فراح الغاز ينفذ من الثقب بكميات تكفي للقضاء على عشرات الأحياء لو كانت نوافذ البيت مغلقة. ومعنى وجود قطعة من الشمع أن الشركة عرفت أن الأسطوانة بها ثقب. ومن المعروف أن الغاز يُعَبَّأ تحت ضغط؛ ولهذا لا بد من سلامة أسطواناته ومتانتها. وإذا كان لا بد من لحم أي ثقب فيها فلا بد أن يتم اللحام بالأكسجين وبالكهرباء، ولا بد أن تُجرَّب أيضًا قبل ملئها بالغاز وإرسالها إلى العملاء، هذه الحقائق يعرفها أي صبي ورشة؛ فغاز البوتاجاز ليس «بارفان» أو هواءً منعشًا ولكنه غاز قاتل يقضي على الكائن في أقل من دقيقة.

كيف استباح المسئولون عن الأنابيب في الشركة لأنفسهم أن يسدُّوا أسطوانة من الصلب كهذه بقطعة شمع لا يمكن أن تتحمل أي ضغط أو حرارة؟ وكيف استباح المهندس أو العامل الذي قام بهذا العمل أن يرسل الأسطوانة لمحطة التوزيع لتباع وتستخدمها أُسرة كان من المحتم أن تقضي عليها لولا رجعتي المفاجئة التي جاءت صدفة؟ أَمِن أَجْلِ لحامٍ لا يتكلف قرشًا ولا يستغرق زمنًا، يُقضى على أسرة بأكملها وبطريقة لا نجاة لهم

منها، إذا كان المفروض أن يظل الغاز يتسرب دون أن يفطن أحد إليه خاصةً بالليل أو حتى بالنهار؛ إذ تعتاد أعصاب الأنف رائحة الغاز بعد قليل ولا تعود تشمه؟!

يُخيَّل لي أنه لا بد أن نضع في مشروعاتنا للتصنيع مشروع خمس سنوات آخر لتحسين الذمة، خاصةً في بعض الصناعات الخطرة التي يؤدي أقل إهمال فيها إلى إزهاق أرواح.

النقد الشامل

أعتقد أننا يجب أن نأخذ النقد — بعد ما ذكره الرئيس جمال عبد الناصر عنه في خطابه أمام مجلس الأمة — مأخذًا علميًّا، بحيث إننا من المستحيل أن نعتمد في ممارستنا للنقد اعتمادًا كليًّا على ما تتطوع به أقلام الصحفيين والكُتَّاب، فإما أننا نؤمن بالفائدة الأكيدة للنقد وبأهميته القصوى في عملية البناء أو التحول أو الانطلاق على حد سواء، وإما أننا نؤمن به إيمانًا حقيقيًّا ونعرف دوره المؤكَّد، وفي هذه الحالة لا بد أن ننظمه التنظيم الصحيح ونوسع رقعته بحيث تشمل كافة مرافق حياتنا، وبحيث يصبح النقد جزءًا لا يتجزأ من العمل، وبحيث تسير عملية النقد جنبًا إلى جنب مع عملية الإنتاج، وإما أننا لا نزال ننظر إليه كنوع من الضرر الذي لا بد منه؛ وفي هذه الحالة فلا فائدة مطلقًا من نقدٍ لا يتقبله المنقودون ولا يعملون به، وإن رضخوا له كان رضوخهم رضوخ الخائف من التشنيع والتشهير.

وهو بالضبط الفارق بين النقد في مجتمع اشتراكي وبين النقد في مجتمع لا يزال خاضعًا لقيم رأسمالية متعفنة. إن النقد ليس «شتيمة» وليس تجريحًا وليس حطًّا من قدر أحد، ولكنه جزء متمم لكل عمل، وبدونه يبقى العمل ناقصًا حافلًا بالعيوب. لو لم يجد النجار من ينقد مناضده وكراسيه وموبيلياته لما فطن إلى عيوبها الخَفِية، ولولا النقد ما اكتمل النضج الفني لكاتب ولا استقام الحكم لحاكم.

لا مناص لنا إذن من أن نأخذ النقد مأخذ أناس يبنون حياتهم لكي تبقى أعمارًا تلو أعمار. لا مفر لنا من أن نأخذه كالحقائق المسلَّم بها، كالنسبة الضئيلة من غاز ثاني أكسيد الكربون التي يجب أن يستنشقها الإنسان لكي تُحرِّك مركز تنفُّسه وتجعله ينشط. وثاني أكسيد الكربون موجود في الطبيعة بنسبة معينة وموزَّع توزيعًا مُحكمًا، بحيث لو خلا منه مكان لهلك فيه الإنسان اختناقًا. وكذلك النقد؛ لقد ذكر لي صديق زار الصين أن

النقد هناك يزاوَل بطريقة شاملة، وبحيث قد تبدو الصورة لنا مضحكة؛ فسائق القطار مثلًا لا بد أن يجتمع مع الكمسارية والعمال بعد كل رحلة للقطار حيث يقومون في هذا الاجتماع «بنقد» الرحلة وما حدث فيها من أخطاء وكيف يستطيعون التغلب عليها في المرات القادمة. والنقد عندنا لا يجب أن تقوم به الصحافة وحدها، وإنما يجب أن يشمل وينبع من كل وحدة عمل، بحيث تتولى كل وحدة نقد نفسها وطريقة إنتاجها ومناقشة الوسائل الكفيلة بزيادة هذا الإنتاج، والصحافة ليست إلا جزءًا — يعتبر ضئيلًا جدًّا — بالقياس إلى الإذاعة والتليفزيون التي يجب ألا تخلو برامجها من النقد في يوم من الأيام، فليس يكفي أن نجد النقد في برنامج «رأي الشعب» أو «على الناصية» مثلًا! إننا بهذه الطريقة نقطع خط الرجعة على كل الوجوه الحسنة لحياتنا التي نقدمها في الإذاعة أو التليفزيون؛ لأن شعبنا لا يمكن أن يصدق أن كل وجوه حياتنا حسنة، وأن كل شيء يمضي أربعة وعشرين قيراطًا، إننا بهذا نعطيه صورة غير حقيقية عن حياته ومشاكله، ونجعله يطمع إلى مزيد من الحقوق فقط على اعتبار أنه أدى كل الواجبات، بدليل ما تذيعه الإذاعة وما يعرضه التليفزيون. إن الناس تريد أن ترى حياتها ومشاكلها وصعوباتها منعكسة فيما تسمعه وفيما تشاهده، في التحقيقات التي يمكن أن يقدمها التليفزيون عن أزمة المواصلات، في الصورة التي يمكن أن تقدمها لنا الكاميرا عن زحام السيارات وتجمعات أفراد الشعب على المحطات ورعونة بعض السائقين والعمال وغطرسة بعض الركاب ووقاحتهم! وفي المعالجات المختلفة لأزمات التموين، أين هو من أخطاء بعض الوزراء والمسئولين؟ إن التليفزيون وسيلة قاهرة وفعالة في اكتشاف الأخطاء وتحديد المسئولين عنها ونقدهم، وكذلك الإذاعة بالنسبة إلى عدد المواطنين الهائل الذي لا يقرأ ولا يكتب، والذي تُعْتَبر الإذاعة بالنسبة إليه مصدر التثقيف الوحيد والمتنفس. قد يقول قائل: إن إذاعاتنا تُسْمَع بالخارج وسوف يستغل الأعداء نقدنا لأنفسنا ولأجهزتنا في دعاياتهم، والرد على هذا بسيط. إن خير دعاية لنا أن يحس العالم من حولنا أننا لا نمشي على أرض مفروشة بالحرير، وأن في حياتنا صعوبات ومشاكل وأخطاء، وأننا رغم هذا نمضي ونتقدم بسرعة خارقة. إنك قد تعجب بالشخص حين تراه يقطع المسافة من ميدان التحرير إلى ميدان المحطة في عشر دقائق من الجري، ولكنك لا بد ستذهل لو عرفت أنه قطع كل تلك المسافة وفي قدمه شوكة، وما أكثر الأشواك في أقدامنا! وما أسرع ما نجري! وما أروع أن يعرف العالم الحقيقة عنا! فخير دعاية لنا هي أن نُرِيَ للدنيا حقيقتنا ونُطلعهم على حقائقنا؛ فالدعاية قد تفشل ويكذِّبها معظم الناس، أما الحقائق فإنها دائمًا تأخذ طريقها إلى القلب والعقل.

إن مهمة النقد يجب أن تشغل حيزًا كبيرًا في جميع وسائل الإعلام، سواء في الصحافة أو الإذاعة أو التليفزيون؛ فالعبء أكبر وأضخم من أن تحتمله وسيلة من هذه الوسائل دون الوسائل الأخرى، بل يجب أن تكون جميع أجهزتنا مفتحة الأعين حتى لا تظل الغالبية العظمى من شعبنا متخلفة عن إدراك حقائق حياتنا ومشاكلنا، وهو وضع أخطر بكثير من عملية النقد مهما كان ضرر النقد الشامل، لو كان للنقد الشامل أضرار.

إلى متى إن شاء الله؟

أعتقد أنه قد آن الأوان لوضع حد لمهزلة المؤتمرات التي نُدْعَى إليها، والتي ينتهزها كبار الموظفين فرصة فيستولون على الدعوات لأنفسهم ويذهبون ليقضوا أيامًا جميلة في الخارج، ويصبح المؤتمر مجرد ستار وتصريح ونقود للسفر ليس إلا؛ وبهذا يحرمون المتخصصين الذين كانوا سيستفيدون من هذا المؤتمر أو ذاك فائدة حقيقية تعود عليهم وعلى عملهم؛ وبالتالي على بلادنا بالخير والخبرة.

إن كل مسئول عن إيفاد الناس إلى الخارج يعتقد أنه حر التصرف يستطيع أن يفعل ما يشاء كما يحلو له. وكل مسئول عن اختيار وفد إلى الخارج يظن أن باستطاعته أن يضع فيه أصدقاء دون معقِّب أو مُراجع. ولهم حق في هذا الظن؛ فأنا لا أعرف فئة من الفئات إلا وهي تشكو مُرَّ الشكوى من سوء اختيار أعضاء الوفود بحيث نادرًا ما يذهب الأصلح.

إن المؤتمرات والدعوات ليست نزهات توزَّع كالهدايا، بل هي نوافذ حقيقية تُفْتَح لنا كي يرى منها كل متخصص فينا ما وصلت إليه تجارب الآخرين ومقدار ما حقَّقوه من تقدم. إنه دراسة على مستوًى عالٍ. إنه جامعة غير منظورة، لا يمكن أبدًا ولا يقبل أحد أن يدخلها إلا صاحب المؤهل الكافي لدخولها.

ولقد كنت شخصيًّا ضحية تصرُّفَين من هذا النوع؛ فمنذ عام أو يزيد حضر إلى القاهرة وفد ثقافي سوفييتي، كان أحد أعضائه الكاتب الروائي الكبير ناجيبين سكرتير اتحاد الأدباء السوفييت، وقد حرص الرجل على مقابلتي؛ إذ هو قد كتب دراسة عن مجموعة من القصص تُرْجِمَت لي وطُبِعَ منها مائة ألف نسخة بالروسية وحدها، غير الطبعات باللغات المحلية، ثم كتب مقدمة أخرى ودراسة لقصة «الحرام» التي طُبِعَ منها مائة ألف نسخة ككتاب وثمانمائة ألف نسخة كملحق خاص بالمجلة الأدبية، أي ما يقرب

من تسعمائة ألف نسخة نفدت بعد ثلاثة أشهر من طباعتها. وليعذرني القراء إذ كنت أذكر هذه الحقائق عن أعمالي، فأُقسِم أني أحس بخجل شديد من نفسي وأنا أقولها. ولولا أني في سبيلي إلى كشف الستار عن أوضاعٍ غريبةٍ تجري في حياتنا لما سمحت لنفسي بذكر هذه الحقائق. المهم أن مقابلتي لناجيبين كانت هائلة، وقد ألقى كلمةً أمام جمهور الحاضرين عن القصص التي كتب مقدمتها، قال فيها: إن هدفه من زيارة مصر كان أن يرى تلك البلاد وذلك الشعب الغريب الذي تكشَّف له في القصص التي قرأها.

المهم أن ناجيبين ذكر لي أن عدد قرائي في الاتحاد السوفييتي يفوق مئات المرات عدد قرائي في مصر، وأني لا بد أن أزور الاتحاد السوفييتي مدعوًّا من قبل اتحاد الكُتَّاب؛ إذ إن زيارةً كهذه ستكون فرصةً لتعريف القراء هناك بالأدب العربي الحديث، وبالتالي تعريف أكثر من مائتي مليون مواطن سوفييتي بناحية هامة من نواحي الحياة في جمهوريتنا العربية، تلك التي أصبح أدبها لا يُتَرْجَم إلى اللغات الأجنبية كنوعٍ من المجاملة أو التعرف على أدب قديم غريب مجهول، وإنما هو يُتَرْجَم للقراء على أوسع نطاق وجنبًا إلى جنب مع الأدب الأمريكي والفرنسي والهندي.

وقد حدث أن قابلت الأستاذ يوسف السباعي وعرضت عليه الأمر وطلبت منه أن أرشَّح للسفر إلى هناك. ووعدني الصديق يوسف أن أكون أول المرشَّحين حين تأتي الدعوة. كان هذا منذ بضعة شهور. ومنذ أسابيع عرفت أن الاتحاد السوفييتي قد وجَّه دعوةً لكاتبَين لزيارته، وأن الصديق يوسف السباعي قد اختار للسفر زميلين آخرَين أكنُّ لهما كل التقدير؛ هذه واحدة.

والثانية حدثت منذ أيام؛ فقد اتصلت بي الإدارة الثقافية بوزارة الثقافة فجأة — كما يحدث في القصص — وأخبرتني أنه قد صدر قرار بإيفادي في بعثة ثقافية مع الزميل نعمان عاشور لمدة أسبوعين للتعرف على الحركة المسرحية الإيطالية، وهي بعثة على نفقة الحكومة الإيطالية، وتنفيذًا لاتفاقية التبادل الثقافي بين البلدين. وطلبت مني الإدارة صورًا وبيانات — استوفيتها جميعًا — واستعدادات للسفر، ولكني في آخر لحظة علمت مصادفةً ودون أن تتكلف الإدارة مشقة إخباري أن قرار سفري قد أُلْغِيَ وأن زميلًا آخر (أُكِنُّ له كل الاحترام) قد أخذ مكاني.

شكرًا للمجلس الأعلى وللإدارة الثقافية ولوزارة الثقافة.

جائع الحب لا يعطيه

العلاقات الشخصية — كالأحزاب السياسية — في حاجة بين كل حينٍ وحينٍ إلى عملية تطهير كي تظل محتفظًا بخط حياتك ومبادئك سليمًا، وبحيث تبتر من دائرة وجودك تلك العلاقات التي تُهدد أمنك النفسي وقيمك العليا. ولقد قررت اليوم أن أقطع علاقتي بأحد الأصدقاء؛ فقد اكتشفت أنه يكره الناس وأنه يُحرضني على كره الناس، ليس بطريق مباشر وإنما بمجرد كرهه. إن الصديق الحقيقي هو ذلك الذي يحفظ عليك توازنك في حكمك على الآخرين. ولكن هذا الصديق كنت ما أكاد أذكر سيئةً صغيرة لأحدٍ من الناس إلا وأجده قد اندفع في سبِّه وذِكْر عشرات القصص التي تدل على مدى ضعته، في حين أن المفروض في الصديق أنه العين الثانية لصديقه؛ فحين نرى السيئة في الشخص أو السيئات يُذكِّرك هو بالحسنات، وحين تندفع في ذكر الحسنات يُنبِّهك هو إلى وجود بعض السيئات، ولكن ذلك الذي يذكر السيئات وحدها يضرك ويظلم بصيرتك ويجعلك شيئًا فشيئًا تبدأ مثله تعتقد أن الناس جميعًا وحوش وأقزام، وأنك لا بد أن تقضي العمر تحاربهم. إننا لا يمكن أن نعمل أو ننتج إلا مدفوعين بعاطفة حبٍّ ما، وتقطير الكره في النفس وصبغ الأعين بالجوانب المظلمة يُسيء أول ما يسيء إلى الشخص نفسه، يشله، يجعله يستخسر أن يعمل؛ إذ كيف يعمل وأنت حين تعمل لا بد أن تعمل من أجل الآخرين ولا بد أن تحب هؤلاء الآخرين لتعمل من أجلهم؟ اكتشفت أن الذي يكره الآخرين لا بد تجده يكرهك أنت نفسك؛ فأنت أيضًا بالنسبة إليه واحد من الآخرين. قطعت علاقتي بالصديق لأنه ليس صديقًا؛ فالصداقة أيضًا حب. مسكين هذا الإنسان؛ فقد اكتشفت في النهاية أنه يكره الدنيا والناس؛ لأنه يكره حتى نفسه؛ لأنه ساخطٌ عليها سخطًا يُسقطه على الآخرين وعلى معارفه وعلى أصدقائه؛ ولهذا فالناس جميعًا تنفضُّ من حوله. وقد كنت بالنسبة إليه

القلعة الأخيرة التي يحتمي فيها، ومع هذا فما أكثر ما كان يكيل لي من طعنات غادرة قاتلة! ما أطول ما صبرت وتحملتها! ولكن ماذا أستطيع أن أفعل لمريض مثله إلا أن أعامله على أنه مريض؟! إنه جائع حب، وصل به الجوع إلى حد السُّعار، وجائع الحب لا يعطيه.

الحاجز أو الملالة

أذهلتني الحركة المسرحية القائمة الآن على قدمٍ وساق في الكويت؛ فمنذ بضع سنوات فقط ذهب الأستاذ الكبير زكي طُلَيمات إلى الكويت وأنشأ فرقة المسرح العربي هناك، واستطاع بمساعدة بعض النجوم من القاهرة وخامات كويتية طيبة أن يخلق مدرسة طُليماتية، وأن يحبب المسرح إلى الجماهير هناك. ولم يكد يمضي على هذا العام المجيد عام أو عامان حتى خرجت مدرسة أخرى — كويتية هذه المرة — تُشبه إلى حد كبير قصة ظهور «المسرح الحر» عندنا وسمَّت نفسها مسرح الخليج، وقدمت روايات كويتية مؤلَّفة أولها كان «الطين والإسمنت» من تأليف صقر الرشود، وهو شابٌّ لم يتعد الثلاثين ممتلئ بالحيوية والحماس شديد التطلُّع والطموح.

غير أن الفارق بين المسرح الحر ومسرح الخليج أن مسرح الخليج لم يكن مجرد فرقة مسرحية أخرى تقوم بتمثيل الروايات المؤلَّفة أو المترجمة، وإنما مسرح الخليج «حركة» مسرحية تُشرف عليها لجنة تقيم الندوات المسرحية وتكتب النقد المسرحي، ولها مكتبة مسرحية متواضعة، وإن كانت عامرة. واللجنة مؤلَّفة من شباب كويتيين يتابعون الحركة الفنية في البلاد العربية من كثبٍ وفي تدقيق شديد؛ هي إذن حزب مسرحي وليست مجرد فرقة. وقد استطاع هذا الحزب أن يقف على أقدامه أمام فرقة المسرح العربي الرسمية، بل واستطاع — بما قدمه — أن يجعل الدولة تقف على الحياد من الحركة المسرحية، وأن تكتفي بمنح إعانات مالية تتراوح ما بين أربعة آلاف إلى ستة آلاف دينار في العام لكل فرقة من الفرق المسرحية الأربع التي تتنافس الآن على مسارح الكويت. أما الأستاذ زكي طُليمات فقد آثر أن يفتح بنكًا آدميًّا لتمويل هذه الفِرق جميعها بالكفاءات البشرية، فأنشأ معهدًا أو نواة لمعهد تمثيل.

استرعتْ نظري هذه الظاهرة: ظاهرة بزوغ المسرح كعلامة رئيسية من علامات الحياة لدى هذا الشعب الشقيق، وظللت أتساءل عن سرٍّ هذا الإقبال الشديد على المسرح سواء من ناحية القائمين على أمره أو من ناحية جمهوره، إلى أن شاهدت آخر مسرحية يعرضها مسرح الخليج هناك وهي مسرحية «الحاجز» أو «الملالة»، وهناك أدركت على الفور السبب. إن المسرح في ناحية من نواحيه يشكِّل المرآة التي يتطلع إليها المجتمع بين كل حينٍ وحين ليرى نفسه، ليرى كيف يتحدث وما هي مشاكله، وكيف وماذا يُضحكه، وإلى أين يسير؟ ومسرحية الحاجز صراع بين جيلين: الجيل القديم، ذلك الذي عاش على البحر وشقيَ حياة الشظف وعرف قيمة اللقمة والجنيه، والجيل الجديد المتمثل في شبانٍ وشابات خرجوا إلى حياة ما بعد البترول، حيث الأموال تفيض بلا حساب، وحيث لا بحر ولا متاعب ولا عُقَد. والمسرحية تدور فيما يشبه الفيلا، واحدة من تلك الفيلات التي تزدحم بها مدينة الكويت والتي تفنَّن المهندسون «ومعظمهم من المصريين» في تنميقها وزخرفتها وكأنهم يُعدُّونها لمسابقة لجمال الفيلات.

والحاجز هو ذلك الحاجز الموجود بين الجيل الجديد والجيل القديم، الجيل الجديد الذي يريد الثورة والتغيير، والجيل القديم الذي يريد الثبات والجمود والذي يمتلك في يده كل شيء؛ هو صاحب الكويت الحقيقي، وما الثائرون والثائرات عليه سوى حماقات أطفال لا تلبث بعد حينٍ أن تئوب إلى ركود وهدوء.

إن مؤلف المسرحية هو نفسه مؤلف «الطين والإسمنت» وهو — على ما سمعت أيضًا — كاتب مسرحية «صراع بين أجيال»، وقد كنت أنتظر من مسرحية الحاجز أن تنتهي بمأساةٍ يدرك معها الجيل القديم أن أفكار الجيل الجديد ليست عبث أطفال وأنها لن تئوب أبدًا إلى هدوء، وأنه إن كان يملك كل شيء فإنه قطعًا لا يملك المصير. ولكن المؤلف آثر أن ينهيها بالضوء منسكبًا على الحاجز القائم بين جيلين؛ حاجز من البترول ربما أو الثراء الذي هبط فجأة كأوراق اليانصيب.

وليست الحاجز وحدها، ولكن في السنوات القليلة الماضية قُدِّمَت على مختلف المسارح روايات مثل «الكويت سنة ٢٠٠٠»، وهي كوميديا تسخر بكل الأوضاع غير المفهومة في مجتمع يحرِّم شرب الخمر أو تجارتها على أرضه، فيضطر شبانه مثلًا إلى الذهاب إلى البصرة في العراق وقَطْعِ ١٨٠ كيلومترًا ليشربوا هناك، ثم يعودون سكارى إلى أرض الوطن. وضعٌ جعل منه مؤلف المسرحية سببًا في أنه في عام ٢٠٠٠ سيكون لدى كل كويتي مصنع للويسكي في بيته، باعتبار أن كل ممنوع مرغوب ومُبالَغ في قيمته.

إنها لظاهرة تسترعي الانتباه حقيقة، أن يحدث التناقض العميق في واقع الحياة فإذا به بعد فترة قصيرة قد أصبح حدثًا مسرحيًّا نراه على الخشبة. إن كُتَّاب المسرحيات جيل جديد من شبان نشئوا في أوضاع هم ضيقون بها أشد الضيق، وقد وجدوا في المسرح المتنفس الطبيعي الذي يستطيعون من خلاله نقد هذه الأوضاع بضراوة ومسرحتها ومسخرتها، والمسرح في هذا يقوم — مثلما يقوم عندنا هنا في القاهرة أحيانًا — بدور الصحافة والكاريكاتور. لقد شاهد المسرحية معي بعض الأصدقاء المصريين الذين يعملون في الكويت، وقد اعترف لي أحدهم أنه مع أن له في الكويت خمسة أعوام إلا أنه لم يستطع أن يدرك عن الحياة في الكويت هذا الذي أدركه من مشاهدته لعملٍ مسرحي واحد، وتلك هي المشكلة! فالحياة الاجتماعية في الكويت ظاهرة تكاد تكون معدومة، فليس هناك اختلاط بين الكويتيين وغيرهم من الجاليات العربية والأجنبية، هناك حاجز أيضًا، هو حاجز الدفاع عن النفس والتقاليد والثروة، ولكن هذا الحاجز يزول تمامًا على خشبة المسرح؛ فبالمسرحية تعيش صميم المشكلة الكويتية، مشكلة شعب كان يحيا بتقاليد ونواميس وأوضاعٍ متوارَثة منذ مئات السنين وآلافها.

ثم جاء البترول وخلق من حوله مجتمعًا جديدًا تمامًا لا يعرف الكويتي تقاليده، وإن عرفها مجَّها، وإن زاولها لبعض الحين في قلب المدينة أو في بعض العواصم العربية فهو لا يحب لهذه التقاليد أن تدخل بيته، يغلق عنها بابه. ولكن التقاليد الجديدة وقد يئست من الباب تدخل من النافذة ليزاولها أهل البيت فيما بينهم؛ ويرقصون أحدث الرقصات على نغمات البيتلز وأغانيهم، ورب البيت حائر بين أن يقف بلا حراك أمام هذا الجديد فيُتَّهم بالانغلاق والتأخر، وبين أن يسمح بالقليل أو يسمح بالكثير في غيبته فيُتَّهم من المجتمع بأنه قد جرفه التيار.

التناقض صارخ وحارٌّ وحادٌّ، والمسرح يتحول إلى جلسة عائلية صاخبة لمناقشة المشكلة: هل تعمل المرأة أو لا تعمل؟ هل تلبس «الحبرة» أو تُسْفِر؟ هل من حقها أن تحب؟ هل من حق الشاب «المتكوت» أو الذي لا يمت إلى العائلات العربية الأصيلة أن يتزوج من كويتية؟ ماذا يحفظ الأخلاق؟ أهي التقاليد أم المناعة حين تُكْتَسب بالخبرة والتجربة؟ عشرات وآلاف الأسئلة تمور بها وتفور مسرحيات الجيل الجديد، «وليس هناك لحسن الحظ جيل قديم فهو جيل جديد وأول جيل.»

والمسرح ليس إلا ناحية واحدة من نواحي الحياة في ذلك الجزء الخصب من بلادنا العربية، البلد الذي تتعايش فيه كل متناقضات بلادنا العربية وحتى عالمنا الآسيوي

الأفريقي، تتعايش ولكنها تتفاعل وتتضارب ويعنف انفعالها وتضاربها في أحيان إلى درجات قد لا نستطيع تصورها، وإلى فرصة قادمة.

في كلمة

أنا لا أحب القراءة في الطائرة، ولكني استصحبت معي رواية محمد عفيفي «التفاحة والجمجمة». لم يعجبني الاسم وإن كان غلاف الكتاب قد أعجبني، ومضيت أقرأ، ولم أكتم في صدري الضحكات والقهقهات، فكتابة الفنان الموهوب محمد عفيفي لا تدفعنا إلى الضحك الصاخب، إنها تدفعنا إلى الضحك الصغير المنمنم، إلى ابتسامة طويلة تظل عالقة بلا وعيٍ بملامحنا حتى تكلَّ عضلات وجهنا وتتعب. لم أُفِقْ من القراءة إلا على صوت المضيفة وهي تطلب منا أن نربط الأحزمة ونمتنع عن التدخين إيذانًا بالوصول، وحتى وأنا أربط الحزام وأرقب الطائرة وهي تهبط من مجراها العالي لنقترب من أمِّنا الأرض، كنت أختلس النظرات إلى صفحات الرواية اختلاسًا وأنا حزين لأني سأنقطع عن القراءة بعد دقائق معدودات، وكان أول شيء فعلته بعد ذهابي إلى الفندق أني جلست أُكملها. تحية حارة إلى فناننا العذب محمد عفيفي.

المظلومات الضعيفات المغلوبات

كنت أركب الأتوبيس في طريقي إلى «الجمهورية» وإذا به يتوقف في شارع ٢٦ يوليو بلا محطة أو إشارة مرور. وسألنا ما الحكاية، قالوا: مظاهرة.

استغربت، فلم يكن في الجوِّ هتافات ولا هدير جماهير محتشدة. كان الشارع يموج فقط بعشرات من العربات الملاكي الفاخرة. ونزلنا من الأتوبيس لنتفرج، وإذا بالمظاهرة تستحق الفرجة والتأمل فعلًا؛ فقد كانت مظاهرة نسائية، لا زلت للآن لم أعرف كل أسبابها، ولكني وقفت مع غيري من الواقفين نحدِّق في العربات الفارهة وهي تقف، وتهبط منها السيدات، أنيقات أبدع ما تكون الأناقة، ونظل نتتبعهن بشغف وهم يخطرن برشاقة إلى أن ينضممن إلى غيرهن من «المتظاهرات».

والحقيقة أن المشهد أعجبني لدرجة أني فوَّتُّ الأتوبيس وتركته يحاول سائقه أن يخرج به من هذا المأزق النسائي الذي وضعته فيه السيدات المتظاهرات وعرباتهن التي تتبادل الكلاكسات والنعوت. ومن الكلمات التي تناثرت على أفواه المارة والمتفرجين من أمثالي عرفت أن «المتظاهرات» قد اتفقنَ على اللقاء أمام «شيكوريل!» في الساعة العاشرة أو الحادية عشرة — لا أعرف — للتوجه إلى القصر الجمهوري لعرض مطالبهن، واعتقدت كغيري أن مطالبهن تلك لا بد أن تكون رفع الحظر عن استيراد الفراء مثلًا أو مستحضرات ماكس فاكتور، ولكني لم أشأ أن أعتمد على ظني وتخميني وسألت جاري عنها، وحاول جاري أن يسأل جاره، ولكن الجيران جميعًا كانوا مشغولين بالتفرج على المظاهرة والبحلقة في المشتركات فيها.

وبعد فترة بدا أن المظاهرة تكاملت، وتوقعت — كما توقع غيري — أن تبدأ في التحرك، ولكن لم يحدث شيء من هذا، ظلت المظاهرة واقفةً لسببٍ لم نستطع تخمينه أو معرفته، ولكنه ما لبث أن اتضح بعد دقائق؛ فقد وجدنا بعض العربات الخاصة بدور الصحف تقف ويهبط منها مندوبات ومندوبو صاحبة الجلالة — متأخرين كالعادة، وفي الحال سَرَتْ في المظاهرة نوبات حركة وحماس، ومضت حقائب اليد تُفْتَح خُفيةً وتختلس النظرات إلى المرايا الصغيرة التي بداخلها.

وحين انتهى التصوير، واطمأنت كل «متظاهرة» إلى «ظهورها» في صورة أو أكثر، حينئذٍ فقط تحرك الموكب.

ولم أعرف أسباب المظاهرة إلا من مندوبة إحدى الصحف؛ فقد قالت لي بحماس المدافعة عن جنسها إنها خاصة بتقييد الطلاق، وعلى ما أظن تعديل قوانين الميراث بما يضمن للمرأة حقًّا مساويًا لحق الرجل، ولا أعرف ماذا قالت أيضًا، ربما لأنه لم يكن هناك غير هذين السببين، وربما لأن الحماس أنسى المندوبة بعضها ونسيت أنا الباقي.

وأنا شخصيًّا شديد الحماس لهذه المطالب ولأي مطالب أخرى تتفتق عنها أذهان زعيماتنا النسائيات ويكون هدفها مساواة تامة؛ ولكن حماسي هذا يهبط إلى الصفر حين أرى الطرق والوسائل التي تتبعها سيداتنا الزعيمات لتحقيق هذه المطالب، خاصة تلك الطريقة المبتكرة في التظاهر والتلاقي أمام شيكوريل. ومن يدري ربما المرة القادمة تكون أمام هانو أو «آنو كما تنطقها سيداتنا»، أو أمام داود عدس «بمناسبة أوكازيون البياضات»؛ فالمهم أني لم ألمح في هذه المظاهرة كلها واحدة يبدو عليها أنها مطلَّقة أو حتى في طريقها للطلاق؛ فقد كُنَّ جميعًا — ولله الحمد — يَبْدُون متزوجات مستقرات صاحبات باعٍ ونفوذ؛ بدليل أن كلًّا منهنَّ لا بد أرغمت زوجها على قضاء مشاويره في تاكسي أو على الأقدام وأخذت هي العربة؛ «لأن عندنا مظاهرة النهارده يا شيري».

وأنا أفهم مثلًا أن سيداتنا الزعيمات هؤلاء لو أردْنَ عمل مظاهرة حقيقية للمطالبة بالحد من الطلاق لجعلنها في ميدان السيدة زينب مثلًا أو في باب الخلق، حيث النساء اللائي يعانين فعلًا من مشكلة الطلاق أو الميراث، وحيث الحماس الذاتي متوفر. أما تلك الطريقة للحصول على الحقوق، مظاهرات شيكوريل وشملا والصالون الأخضر هذه، فأنا لست ضدها أبدًا، ولا أنصحهن إطلاقًا بالكفِّ عنها، فهو كفاحٌ مسلٍّ حقًّا؛ ألم يجعلني أقف أنا ومئات الرجال من أمثالي نتفرج لأكثر من ساعة ونحن في قمة السعادة والانبساط؟

قضية ملفقة

وتُذكرني هذه المظاهرة «الشيك أوي» بالصيحات التي ترتفع بين كل حين وحين، الصيحات التي تُطْلِقها سيداتنا من «رائدات الحرية» وأصحاب نظرية طغيان الرجال الشرقيين الوحوش على النساء الشرقيات المظلومات المهيضات الجناح، والتي لا نملك إزاءها بالطبع إلا كل حماس وتصفيق وتعضيد؛ تلك الصيحات التي بدأت تدفعني للتساؤل: أهي صيحات حق؟ أم هي صيحات الهدف منها التظاهر والقيام بدور الزعامة لحزب النساء الشرقيات المظلومات الذي لا وجود له بالمرة في واقع حياتنا؟ ومَنْ هي المرأة الشرقية التي تنطق باسمها رائدات الحرية هؤلاء؟ هل هي المرأة في الأرياف والمرأة العاملة في المصانع؟ ولكننا في الأرياف أبدًا لا نجد مشكلة حرية ورجل ظالم وامرأة مظلومة. إن الفلاحة التي تعمل مع زوجها وتقوم بدور لا يقل عن دوره لا تحس أبدًا أن الرجل يظلمها ويجور على حقوقها، إنها تحس بالمساواة الكاملة المطلقة، مشكلة حقوق المرأة التي اغتصبها الرجل لا نسمعها إلا هنا في مدننا ونسمعها مقلوبة؛ فحتى في ظل هذه الأوضاع السائدة في مدننا أو بين طبقتنا المتوسطة حيث الرجال يعملون والنساء لا يعملن، حتى في ظل أوضاع كهذه، هل بقيت دولة النساء ساكتة مستسلمة تنتظر كفاح زعيماتنا النسائيات، ورائدات الحرية لتظفر بحقوقها المساوية للرجل؟ إننا نخدع أنفسنا إذ نعتقد هذا؛ فالحقيقة أن الحادث هو أن الرجال لهم كل الحقوق في الظاهر، أما في حقيقة الأمر فكل الحقوق للنساء.

عمارتنا

وأنا أقطن مثلًا في عمارة مكونة من مائة شقة، في كل شقة عائلة صغيرة أو كبيرة ولكن فيها على الأقل زوج وزوجة. وإذا أخذنا ما يجري مثلًا للحادث في كل البيوت والأزقة والعمارات ونقول: إن باستطاعتنا أن نعتبر أن فيها مائة ممثل لدولة الرجال «الأقوياء الخشنين الظالمين المتسلطين ... إلخ إلخ» ومائة ممثل لدولة النساء «الضعيفات المسلوبات الحقوق المهيضات الجناح»، فلنرَ إلى أي حدٍّ تنطبق هذه الأوصاف على الحقيقة والواقع.

دولتنا — دولة الرجال — ما أتعسها وأفرغ عقلها! دولة مفككة لا رابط بينها ولا ضابط. لا يعرف الجار منهم جاره ولا كُنْهَ عمله، حتى لو جاوره لأعوام وأعوام. وإذا تصادف والتقى منهم اثنان في الأسانسير أو على السلم شَمَخَ كلٌّ منهما بأنفه وتقوقع داخل نفسه ومثَّل دور الرومي خير تمثيل.

وفي مقابل هذا لا نجد أروع من دولة النساء تماسكًا ووحدة. في ظرف أسبوع واحد من سكني عمارتنا كانت سيداتها قد تعارفن جميعًا وبعضهن كن قد تصادقن وتحاببن وأزلن كل ما بينهن من حواجز وأستار، وعرفن عن بعضهن كل شيء تقريبًا ابتداءً من أنواع الملابس وألوانها إلى أخلاق أزواجهن وعاداتهم، بل ما كاد يمضي شهر على سكني العمارة حتى كانت دولة النساء قد بدأت تنظم نفسها وتكوِّن الأحزاب؛ حزب متوسطات العمر المتشبثات بالشباب، بزعامة السيدة القاطنة في الدور الثالث، وحزب الضيقات بالزواج الكارهات لعيشتهن اللائي لا عمل لهن إلا تعداد مساوئ الأزواج والجري وراء متعهن الشخصية من خروج وكوافير وأفلام ومواعيد وتشنيعات، بزعامة السيدة القاطنة في الدور الأول، وأحزاب أخرى كثيرة لا يعلم عددها إلا الله. حتى الفتيات، والتلميذات ما أسرع ما يتعلمن سياسة الأحزاب السرية والائتلافية، حيث يخرجن معًا ويكذبن معًا. ولكل منهن ثلاث صديقات على الأقل مستعدات دائمًا لشهادة الزور، وتلك الدولة أيضًا جريدتها الخاصة ومحطة إذاعتها الرسمية وشبه الرسمية هي السيدة «...» (وأعفوني من التحديد فليس أبشع من إذاعتها الموجهة) هي التي تتولى مهمة إشاعة الأخبار أولًا بأول.

الرجال (الخشنون الأقوياء الظالمون ... إلخ إلخ) يخرجون إلى عملهم من هنا، وتبدأ دولة النساء عملها بنشرة الأخبار والتعليقات التي تذيعها على موجات متوسطة وطويلة، التي تطول حتى الأرملة الساكنة في الدور الثالث عشر. وإذا بما حدث بين كل جدران أربعة وما تعتبره دولة الرجال المغفَّلة من الأسرار الحربية المنيعة، إذا به مجرد خبر عادي في نشرة الأخبار.

لمن اليد العليا

وهكذا بنظرةٍ واقعية محضة نجد أن رجال عمارتنا مثل الرجال في كل مكان ليسوا إلا فَعَلة تستخدمهم نساؤهم في جلب النقود ليتولَّين هنَّ إنفاق معظمها على أنفسهن ومتعهن الخاصة. وفي الوقت الذي يحرق الرجال دماءهم ويُفنون أعمارهم لكسب القروش والملاليم، تكون سيداتنا الضعيفات المظلومات المهيضات الجناح ... إلخ إلخ. يقضين الساعات يتسكعن في الشوارع بحجة التفرج على المعروضات وانتقاء أروع الطرق لإنفاق ما سوف يجلبه الزوج في آخر النهار. وويل للزوج لو قال «بم»، وويله لو سلَّمها الماهية ناقصة أو بها خلل، عليه حينئذٍ أن يجهِّز نفسه، هو القوي الخنشور المسيطر ... إلخ إلخ، لما سوف يصيبه من مندوبة دولة النساء الضعيفة المظلومة ... إلخ إلخ.

وإذا كان الرجل لا يزاول حريته إلا في العلن وفي أضيق حدود؛ فالمرأة تزاول في السر حرية أكبر وأوسع، بل ليس هناك مدًى لما يمكن أن تزاوله من حريات، وحتى الميزة الوحيدة الباقية للرجل «أي القوة والخشونة» لا يستمتع هو بها ولا يزاولها أبدًا من تلقاء نفسه. إن المرأة تحتكرها أيضًا لاستعمالها الخاص، فإذا ضايقها البواب أو الجزار لجأت إلى فتوَّتها الخاص ومثَّلت أمامه دور المُهانة حتى تتأكد أن الدماء غلت في عروقه، وتتركه حينئذٍ ليواجه مصيره، وغير مهم أن يعود مُعْتدًى عليه أو مهانًا أو مربوط الجبهة، فأن يُعْتَدَى على كرامته هو مسألة بسيطة، أما أن تُخْدَشَ كرامتها فمسألة لا يجب أن تمر بغير أن تسيل لها الدماء.

أي حقوق مزعومة اغتصبها الرجال في مجتمعنا من النساء، والرجل هو الذي يُنتج ويعرق ويكدح، والمرأة مع هذا هي التي تتحكم فيه وفي نتيجة عرقه وكدحه؛ ملابسها دائمًا أحسن من ملابسه وأغلى، وتكاليفها أكثر، ومطالبها هي الأولى، والرجل دائمًا هو الذي يدفع؛ إذا خطبها دفع، وإذا تزوجها دفع، وإذا عاش معها قضى عمره يدفع، وإذا طلقها قضى أكثر عمره في نفقة ومؤخر وهباب أزرق، وكأن مكتوبًا عليه أن يحمل فوق كاهله إلى الأبد تلك التي تدَّعي أنها أسيرته وأنه ظالمها.

دعوة

أليس من المعقول أكثر أن ندعو أنفسنا نحن الرجال للثورة على تلك الأوضاع الغريبة الظالمة؟ ألا يحق لنا أن نتواجد نحن أمام قهوة النشاط الكبرى أو حتى أمام قسم عابدين لنقوم بمظاهرة نطالب فيها بإعادة توزيع الحقوق والواجبات بيننا وبين النساء توزيعًا عادلًا؟ نطالب بخلط حقوقنا العلنية الجوفاء الزائفة بحقوقهن الخفيَّة الواقعية، ونُعيد توزيع الخليط حسب المبدأ القائل: من كلٍّ حسب ما يكسبه، إلى كلٍّ حسب ما يكسبه برضه.

إني فقط أتساءل، فلا يمكن أن يبلغ بنا الضعف نحن الرجال الخشنين الأقوياء … إلخ إلخ درجة نتظاهر معها لنطلب إنصافنا من نسائنا الضعيفات المغلوبات المهيضات … إلخ إلخ.

ماذا نفعل بداليدا وإليزابث؟

أكثر من مرة خلال هذا الشهر أقرأ آراء تُطالب بإبعاد أو منع أفلام وفنانين لهم علاقة بالصهيونية أو بإسرائيل. وليس من قبيل الصُّدف أن يتزعم هذه الحملة الأستاذ ناصر النشاشيبي، وما دام رائدنا كلنا هو الإخلاص لعروبتنا والغيرة عليها فالموضوع يُخَيَّل إليَّ أنه في حاجة لمناقشة أعمق، ولموقف أكثر من مجرد صرخة تتعالى: امسك صهيوني، أو امسك دعاية لإسرائيل. عسى أن نخرج في النهاية برأي أو بوجهة نظر تخدم قضيتنا أكثر، وإن اختلف هذا الرأي مع معظم الآراء التي نقرؤها بين الحين والحين.

ومبدئيًّا يجب أن نفرق بين مقاطعة الشركات المتعاملة مع إسرائيل والمقاطعة الفنية، فنحن حين نقاطع هذه الشركات اقتصاديًّا نوقع عليها عقوبة حقيقية؛ لأن البلاد العربية كقوة شرائية واقتصادية أهم عشرات المرات من إسرائيل، بحيث لا بد لأي شركة أن تفكر مرتين قبل أن تقرر بيعنا لشراء إسرائيل.

ولكننا في الأفلام والمسائل الثقافية لا بد لنا أن نفكر مرتين قبل منعها أو مقاطعتها، إذ نحن بهذا الإجراء سنحرم أنفسنا نحن؛ ولهذا لا بد أن نتأكد أننا نحرمها فعلًا من شيء ضار، وأننا لا نأخذ الأمور بالشبهة؛ إذ من الممكن أن نصل إلى حد متطرف نعزل أنفسنا فيه عن الثقافة العالمية عزلًا خطيرًا، أو نمنع ترجمة هارولد لاسكي باعتباره يهوديًّا، ونقاطع نظريات فرويد وداروين وأينشتين باعتبارهم يهودًا، ومن الممكن أن يوجد بين الأحياء منهم من يعطف على إسرائيل، ونحن في هذه الحالة لن نضر إسرائيل أو الثقافة العالمية، سنضر بالتأكيد أنفسنا.

وبينما في الحقل الاقتصادي إثبات التعاون والتعامل مع إسرائيل أمر هين لا يحتاج لبذل جهد، نجد أن المسألة في الحقل الفني أو الثقافي ليست بهذه البساطة والمحدودية،

ولا يمكن أن نتخذ فيها قرارات على أساس آراء مُبَالغ فيها تُنْشَر، أو صيحات تذكِّرنا بصيحات الماكارثيين ترتفع؛ فكثير من الأعمال التي قرأت أن بها دعاية صهيونية ذهبت لمشاهدتها فلم أجد بها أية دعاية من هذا القبيل، وأقربها فيلم محاكمة نورمبرج، وإني لأقف مع الأستاذ محمد علي ناصف مستعدًّا لأية محاكمة أو مسئولية تثبت أن لهذا الفيلم علاقة بإسرائيل أو بالصهيونية.

إن حرماننا من عرض هذه الأفلام — لمجرد الشبهة ولمجرد صيحة ترتفع — لن يخسر الشركات المنتجة له شيئًا يذكر، ولكنه سيجعلنا نحن نخسر رؤية ومشاهدة ومتابعة وثائق إنسانية وتاريخية وثقافية، لا نستطيع بحكم إمكانياتنا أن نُنتجها محليًّا. من أجل هذا يجب أن لا ندع تقرير هذا الأمر لرأي سريع يقال في صحيفة أو مجلة، ولا حتى للرقيب السينمائي وحده، وإنما يجب أن تؤلَّف لجنة استشارية للرقابة من كبار نقادنا الواعين تُعْرَض عليها الأعمال المشكوك في أمرها وتتولَّى هي وحدها الفصل في شأنها.

داليدا، وإليزابث تايلور

هناك مسألة أخرى، الفنانون والشخصيات التي تؤيد أو تجمع المال أو تدلي بتصريحات في صالح إسرائيل. إن من رأيي أننا يجب أن نغيِّر جذريًّا من وجهة نظرنا في هذا الموضوع، وحسبنا أن نعرف ما فعله كاسترو في وفد الصحفيين الأمريكيين الذي رافق وفد المفاوضة عقب العدوان الرجعي الأمريكي على كوبا. هؤلاء الصحفيون كانوا قادمين إلى الجزيرة وكاسترو فاقد الأمل تمامًا فيهم ومتأكد أنهم حتى لو اقتنعوا شخصيًّا بعدالة القضية الكوبية لن يجرءوا على تحدي رؤساء التحرير وأصحاب الجرائد الأمريكية ونشر آرائهم تلك. ومع هذا حين جاءوا مع الوفد، هل قاطعهم؟ هل حاصرهم في فنادقهم؟ هل رفض دخولهم كوبا أصلًا؟ لم يحدث شيء من هذا. بالعكس، كاسترو رغم كل مشغولياته ومسئولياته وعقب عدوان ترك الجزيرة في حالة توتر واضطراب، ترك كل شيء ورافق — بنفسه — الصحفيين الأمريكيين الذين يُعادونه ويُعادون ثورته، واستمر يناقشهم ويجادلهم ويشرح لهم ثورته وظروف بلاده.

كاسترو فعل هذا؛ لأنه يعلم أنك إذا استطعت كسب العدو — أي عدو — فهو قمة النصر لك ولثورتك ولمبادئك.

فإذا جئنا لوضعنا هنا، يُخيَّل إليَّ أن هناك مواقف أخرى نستطيع اتخاذها، ولكي نفعل لا بد لنا أن نُسلم بعدة حقائق بسيطة:

فأولًا: الناس خارج بلادنا — وبالذات في المعسكر الغربي — لا بد أن نفترض أنهم — نتيجةً للدعاية الصهيونية الواسعة — يعطفون فعلًا على إسرائيل.

وثانيًا: يجب أن نقتنع أنه حتى القضية العادلة في حاجة إلى شرح وتوضيح، في حاجة إلى أن ننطق كي يفهمها الناس ويؤمنوا بها. بمعنى آخر، إن الأصدقاء لن يهبطوا علينا من السماء، ولا بد أن نؤمن أننا لن نكسبهم إلا ببذل جهود إيجابية.

ثالثًا: إن مكاتب الدعاية للقضية العربية بالخارج قد تصلح للدعاية لقضايانا بالنسبة للرأي العام، أما بالنسبة للشخصيات الفنية والأدبية والعلمية فنشرات هذه المكاتب لا تكفي — للأسف — لإقناعها. وهذه الشخصيات ليس أمرها هينًا بالمرة. إن الكاتب أو الفنان أو العالم بالخارج موقفه أو رأيه أو وجهة نظره شيء خطير للغاية، والكفاح من أجل كسبه يؤدي في الغالب إلى كسب كل القطاع الضخم الذي يؤثر فيه.

رابعًا: يجب أن نعي أن هذه الشخصيات ليست أصلًا صهيونية، وإنما أصبحت كذلك أو بدأت تعطف على إسرائيل نتيجة لنشاط دعايتهم، وفي رأيي أن معظمها قابل للاقتناع بالحقيقة إذا أتيحت له الفرصة كي يفهم ويدرك ويغير موقفه؛ فالعقوبة تزيد المؤمن بشيء؛ استمساكه بإيمانه. وكل عقوباتنا هذه التي اتخذناها ضد داني كاي لم تُخِفْ إليزابث تابليور ولا أخافت داليدا، ولا يمكن أن تخيف أحدًا.

خامسًا: بقيت نقطة أخيرة، قرأت للأستاذ التابعي أول أمس كلمة حول هذا الموضوع أنهاها بقوله: إننا نأخذ هذا الإجراء لأنه إجراء تفرضه علينا كبرياؤنا وكرامتنا وموقفنا من إسرائيل والصهيونية. وقمة الكبرياء والكرامة بالنسبة لمؤمن بقضيةٍ ما ليست هي أن يخاصم خصومه ويفتح الباب للأصدقاء. إننا أصحاب ثورة ومبادئ وقضية عادلة، وقمة إيماننا بكرامتنا وكرامة هذه القضية يتجلَّى، لا بالمقاطعة والخصوم وإنما بالإقناع، بأن نقنع، كما فعل كاسترو وكما يفعل أصحاب القضايا، وبدلًا من أن نقاطع ندعو هذه الشخصيات لترانا على حقيقتنا، لترى جهودنا السلمية في بناء بلادنا، لترى أننا لسنا تترًا ولا معتدين، لترى أننا نحاول أن نرفع عن رءوسنا تراب أربعة آلاف عام من الذل والهزيمة والاستعباد.

إنني أطالب — بدل أن نقاطع هذا النجم أو ذاك — أن نبعث له بدعوة ليحضر إلى القاهرة، وإني لمتأكد أنه في معظم الحالات سننجح نجاحًا أكيدًا في خسران أعداء وكسب أصدقاء.

إنني لا أزال أذكر المرارة التي أحسست بها حين رفضت السفارة الأمريكية بالقاهرة منحي تأشيرة سفر لأمريكا باعتبار أني «غير صديق». وكأنهم لا يصح أن يعطوا فيزات إلا للأصدقاء اللصقاء والعملاء. وفي ظني أن كثيرين ممن نرفض حضورهم — مثل داليدا — قد يغادروننا وهم أكثر فهمًا لنا ولقضيتنا؛ إذ إن معظم المواقف الخاطئة التي يقفونها سببها الجهل بنا وبجهودنا في بناء بلادنا ودفع قوى شعبنا إلى الأمام.

لنغيِّر الشعار من «المخاصمة والمعاداة» إلى «الإقناع»، وخير وسيلتنا لهذا الإقناع هو الحقيقة، فلنُطلع هؤلاء الناس عل حقيقتنا، ولا نيأس. قد تحدث حالات شاذة، وقد لا يؤمن بعضهم، ولكنا بالاستمرار والإصرار سنكسب ونظل نكسب.

ظاهرة خطيرة

الظاهرة الخطيرة التي تجتاح حياتنا الجامعية هذه الأيام هي انصراف معظم السادة أساتذة الجامعات ومدرسيها إلى الكتابة في الجرائد والمجلات. وليتهم يكتبون عن موضوعات أصيلة، نتيجة بحث ودراسة لواقعنا مثلًا أو لتاريخنا، ولكن عملهم في الغالب يقتصر على ترجمة بضع مقالات نُشِرَت في مجلات فرنسا أو إنجلترا. وتقرأ عنوانًا لإعلان ضخم: الدكتور فلان يترجم لك مقالة فلان عن فلان. ترجمة، صحيح قد تكون أكثر دقة، ومقالات قد تكون أكاديمية وعلى العين والرأس، ولكنها أبدًا ليست من عمل الأستاذ الجامعي؛ فالأستاذ أو المدرس الجامعي له منبره الخاص المقدَّس، وأي كلام يقوله خارج المنبر — ولو لزيادة الإيراد ولأكل العيش — هو عمل لا يليق بالأستاذ الجامعي، ولا أقول: لا يليق من الناحية الأخلاقية، ولكني أقصد من الناحية العلمية البحتة؛ فهجرة الأساتذة الجامعيين إلى وسائل النشر السريعة وطرق الإعلام معناها تفضيلهم القول السريع والكسب السريع على البحث العلمي الدائب ذي النتيجة البطيئة حقيقة، ولكنها النتيجة التي تغيِّر من حياتنا التغيير الأعمق والأكثر فاعلية. إنها فضيحة في إنجلترا — مثلًا — أن ينشر الأستاذ الجامعي مقالةً في صحيفة؛ إذ الميدان ليس ميدانه، ولو تحوَّل كلٌّ منا من ميدانه الحقيقي إلى غيره لارتبكت حياتنا وتوقَّفنا.

إن حياتنا سائرة في الظاهر، ولكنا نجني بهذا السير محصول جيل كامل قضى حياته يبحث ويدرس ويُفني شبابه. وقد كنا نعتمد في مستقبلنا على جهود هذا الجيل المعاصر من الأساتذة والمدرسين؛ إذ الجامعة ليست سوى معمل كبير، هدفه دائمًا المستقبل، فإذا كنا نجد أن هذا العمل اليوم وقد أصبح هدفه الحاضر الوقتي واستغلال صفة الأستاذ أو المدرس للكتابة في أكبر عدد من الصحف والمجلات، وفي الظهور أمام أكبر عدد من

العدسات، فقل على مستقبلنا السلام. إن انخفاض مستوى خريجي الجامعة العلمي والثقافي قد ترجع بعض أسبابه إلى الطلبة أنفسهم، ولكني متأكد أن أسبابه الحقيقية مرجعها إلى انصراف الأساتذة والمدرسين عن التعليم إلى أمورهم الخاصة، وعن الاهتمام بالطلبة إلى الاهتمام بأنفسهم وتحسين أوضاعهم الأدبية والمالية.


هنداوي